



الهيئة العامة
للكتاب والمخطوطات والأرشيف

الأدب العربي

ومصادره عبر العصور

تأليف

الدكتور محمد بن أحمد
الدكتور محمد بن أحمد

الدكتور محمد بن أحمد

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م



الهيئة العامة
للكتاب والمعلومات
مكتبة البرنية للمعلمين والمعلمات

الدُّرُوبُ الْعَرَبِيَّةُ

وَمَصَادِرُهُ عِبْرُ الْعُصُورِ

تأليف

الدكتور رجاء السمرين الدكتور محمد عبد العزيز

الدكتور أحمد عبد الرحمن

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

مقدمة

في إطار الخطة الشاملة الرامية إلى تطوير جميع مقررات معهد التربية للمعلمين والمعلمات، وربطها بالبيئة الكويتية وضعنا هذا الكتاب، ليكون واحداً من المراجع التي يعول عليها أبناؤنا وبناتنا من طلاب وطالبات شعبة المكتبات.

وقد وضعنا نصب أعيننا منذ البداية أن تطبيق الخطة التي رسمتها لجنة تطوير هذا المقرر - مقرر الأدب العربي - من الصعوبة والدقة بحيث تتطلب حرصاً كاملاً على ألا يكون هذا الكتاب نسخة جديدة تضاف إلى الكتب الكثيرة التي تناولت الحديث عن الأدب العربي وفنونه عبر العصور.

وقد راعينا في الموضوعات التي تعرضنا للحديث عنها في أبواب هذا البحث وفصوله أن تكون مما ينبغي أن يلم به العاملون في المكتبات العامة من ثقافة أدبية تجعلهم على وعى كامل بالمراحل التي مرت بها فنون الأدب العربي وسمات كل مرحلة وماجد في كل منها من عوامل أثرت في الأدب وفنونه سلباً أو إيجاباً.

وقد ربطنا ذلك كله بالحديث عن حركة الترجمة والتدوين والتأليف في كل عصر، وأشرنا إلى خير ما أنتجته قرائح الكتاب والشعراء والعلماء من كتب الأدب ودواوين الشعر وروائع القصص والموسوعات والمعاجم وكتب العلم في بعض الأحيان.

وإدراكاً منا لأهمية الكتابة الفنية التي هي أداة التأليف ووسيلة المؤلفين التي بها يسجلون ما تنتجه عقرباتهم الخلاقة وملكاتهم المبدعة، فقد عمدنا للحديث عن نشأة الكتابة الفنية عند العرب، والمراحل التي مرت بها في مسيرتها الطويلة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من قوة وازدهار، لم يلبث أن تحولاً إلى ضعف وانحدار في عصور الانحسار الأدبي.

ولم نشأ أن نحرم طلابنا وطالباتنا من الاستمتاع بقراءة ودراسة وتذوق مختارات متنوعة من فنون الأدب العربي شعره ونثره، فأثبتنا في معرض حديثنا عن كل فن نموذجاً أو أكثر يستطيع الطالب من خلاله التعرف على ما أوضحنا من سمات هذا الفن ومميزاته.

وقد ألقينا ونحن نتحدث عن الأدب في العصر الحديث بعض الضوء على الحركة الأدبية في الكويت، وعلى أدب الأطفال الذي بدأ يأخذ حقه من العناية والاهتمام في الخطط التربوية الحديثة.

وبعد، فلننا نزع أن في كتابنا هذا ما يغني طلابنا وطالباتنا عن الرجوع إلى غيره من المراجع الأدبية، فإن ذلك مما يتعارض أصلاً مع طبيعة نظام المقررات التي تقتضي من الطالب ضرورة الحرص على الرجوع إلى أكبر قدر ممكن من المراجع والمصادر. ولكن حسبنا أن نزع أن في كتابنا هذا ما ينفع الغلة، ويبل الصدى، ويطفيء الأوام.

والله تعالى نسأل أن ينفع به أبناءنا وبناتنا من طلاب المعهد وطالباته، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلفون

التمهيد

بقلم

الدكتور رجا سمرين

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الأدب العربي في عصوره المختلفة أن نقدم بين يدي ذلك بمقدمة تمهد لنا سبيل دراسته، وتذلل مضاعفها، إذ لا بد لدارس الأدب قبل أن يشرع في دراسته من أن يعرف شيئاً عن ماهيته ووظيفته وعناصره والمؤثرات العامة التي تؤثر فيه. ونبدأ ذلك بتعريف الأدب متوخين الإيجاز، عازفين عن أن نزع بطلابنا وطالباتنا في خضم الخلافات الناشئة بين الباحثين والنقاد في تعريفهم للأدب.

ما هو الأدب؟

هو فن الإبانة عما في النفس من أحاسيس وانفعالات، وتسجيل صور الحياة، ومواقف الإنسان، ومظاهر الكون. تسجيلاً يثير في النفس لذة فنية ومتعة شعورية^(١).

وظيفته:

الأدب طبيعة من طبائع الفرد، وضرورة من ضرورات المجتمع، يصور ما في النفس من فكرة أو عاطفة، وينقل تصويره هذا إلى نفوس القراء، فيؤثر فيهم، ويعينهم على فهم الحياة، ويوقظ مشاعرهم، ويوجهها إلى أنبل الغايات الإنسانية، وأسمى الأهداف البشرية.

وهو عماد النهضة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية يسجلها ويسايرها ويغذيها ويرفدها.

وهو بعد ذلك كله وسيلة الاستمتاع بجمال الطبيعة والحياة.

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ١٢ تأليف الدكتور/ حسن جاد وشريكيه.

عناصر الأدب ومقوماته :
عناصر الأدب ومقوماته عند المحدثين من الباحثين أربعة وهي

١ - الفكرة :

وهي التجربة التي يمر بها الأديب فتؤثر فيه، فيصورها نثراً أو شعراً، وقد تكون التجربة سارة أو محزنة، داعية للسخرية والاستهزاء أو الرضى والغضب أو غير ذلك . وهذا العنصر من أهم عناصر العمل الأدبي، لأن الأدب الخالي من الحقائق والأفكار سخف وعبث.

٢ - الأسلوب :

وهو الألفاظ والعبارات التي تنقل ما في نفس الأديب الى غيره لتجعله يشعر بما شعر ويحس بما أحس . والأسلوب عنصر هام من عناصر العمل الأدبي لأن القدرة على التأثير في الآخرين إنما تعتمد على جمال العبارة ووفائها بحق عناصر العمل الأدبي الأخرى.

٣ - العاطفة :

وهي من أهم عناصر النص الأدبي التي تميزه من النصوص العلمية وغيرها من الأخبار العادية أو الصحفية . ومن أهم ما يشترط في العاطفة الصدق وأن تكون في مستوى واحد من الحدة والتأجيج.

٤ - الخيال :

وهو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة، ويعتمد إلى حد كبير على الصور البيانية أو التصوير القصصي أو الرموز الأسطورية أو غير ذلك من الوسائل.

٥ - الموسيقى :

وهو عنصر يختص بالتجارب الشعرية، ومن الشعراء من يلتزم بوحدة البيت والقافية، ومنهم من تعدد قوافيه في القصيدة الواحدة. وربما عزف الشاعر عن وحدة البيت واتخذ من إحدى التفعيلات وحدة موسيقية يبنى عليها إيقاع قصيدته وموسيقاها . وقد يجمع الشاعر

في قصيدة واحدة بين أكثر من وزن، ولا نريد أن نسترسل في الحديث عن موسيقا الشعر، فذلك أمر يطول وهو ليس مما يدخل في اهتمامنا ضمن هذا البحث.

العوامل العامة المؤثرة في الأدب

الأدب مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية يخضع لما تخضع له، ويتأثر بما تتأثر به، وهنالك عوامل عامة تؤثر في الأدب بصورة عامة وتتلخص فيما يلي:

١ - الاستعداد الفطري: وهو الموهبة التي تتمثل فيما يجبل عليه الإنسان من دقة الحس ورقة الشعور وصفاء الطبع وسرعة التأثر بما يحيط به من مظاهر الحياة وأحداثها والقدرة على التعبير عنها وتختلف حظوظ الأفراد من هذا الاستعداد، كما تختلف حظوظ الأمم.

٢ - الاقليم والمناخ: قد يكون الإقليم صحراويا أو جبليا وقد يكون سهلا تشقه الأنهار، وربما كان قريبا من البحر أو بعيدا عنه، وقد يكون معتدل المناخ أو شديد الحرارة أو البرودة، وقد ينهج ساكنوه من سنن المعيشة ونظم الحياة ما يجعلهم يختلفون في الطباع والسلوك عن غيرهم من سكان الأقاليم الأخرى... وذلك كله يترك آثاره التي لا تنكر في الأدب شعره ونثره.

وقد أخذت آثار هذا العامل من العوامل المؤثرة في الأدب في الضعف بسهولة المواصلات وانتشار المدنية وشدة الاتصال بين الشعوب.

٣ - خصائص الجنس: فمن الأجناس من يميل إلى دقة البحث والاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق، كما هو الحال عند الجنس الآري، ومنها ما يميل إلى التعميم والإجمال والبساطة كما هو الأمر عند الجنس السامي. وهذه الخصائص تؤثر في الإنتاج الأدبي وتبدو فيه بصورة واضحة فشعر العرب مثلاً يختلف عن شعر اليونان في المذهب والخيال والغرض.

٤ - الحضارة والاجتماع: فالحضارة والرخاء، ورغد العيش وبلهنيته، وسمو ألوان العيش، وتنوع طرائق الحياة مما يؤثر في الذوق ويزيد في الصور والمناظر وينوع في معاني الأدب وأغراضه وأساليبه وأخيلته، لهذا اختلف أدب العرب بعد أن تحضروا عن أدبهم في

العصر الجاهلي، ونرى الفرق عظيمًا بين شعرهم إبان عصور الازدهار وبينه في عصور الضعف والانحدار.

٥ - العلم : وهو من إفرازات الحضارة وأثره في ترقية العقل ودفعه إلى خلق ألوان جديدة من الأدب أمر لا يمكن تجاهله أو إنكاره. وما القصص الخيالية التي تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال - كقصّة حى ابن يقظان - إلا أثرًا من آثار العلم وشاهدًا من شواهده.

وقد استمد عدد كبير من الشعراء والكتاب أعمالهم الأدبية من التاريخ كما فعل شكسبير وجرجي زيدان وأحمد شوقي وغيرهم.

٦ - الدين : وللدين وما يتصل به من معتقدات وأخلاق وأنماط سلوك تأثير كبير في الأدب.

وقد كان الدين سببًا في خلق عدد كبير من الأجناس الأدبية كأنا شيد «رع» عند المصريين القدماء، «وسجع الكهان» عند الجاهليين، والأدب التمثيلي عند اليونان، والأدب الصوفي وشعر الزهد عند المسلمين.

٧ - الحياة السياسية : وقد يكون النظام ملكيًا أو جمهوريًا ديمقراطيًا أو استبداديًا، تسوده العدالة والمساواة، أو يُخيم عليه البطش والإرهاب.

ففي ظلال الحرية تزدهر الخطابة ويزدهر الشعر الوطني والسياسي، وفي ظلال الاستبداد يخفت صوت الخطابة، ويروج الأدب الرمزي، ويكثر شعر المدح والتزلف.

٨ - اتصال الشعوب : وأشكال الاتصال بين الشعوب كثيرة ومتعددة، وقد تكون الصلة حربية أو سلمية في أعقاب كل حرب ينتفع كل من الغالب والمغلوب بما عند الآخر من ألوان العلم والمعرفة والأدب، وفي السلم يشتد اتصال الشعوب عن طريق التجارة والبعثات العلمية والترجمة والتزاور وغير ذلك من وسائل الامتزاج فتنشأ بسبب ذلك فنون في الأدب لم تكن معروفة، وتتطور فنون أخرى لم تكن لتتطور لو لم يتوافرها وسيلة من وسائل هذا الاتصال.

٩ - التقليد والاحتذاء : والتقليد فطري في الإنسان وبدونه لا يستطيع أن يتعلم أو يتكلم، ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الأدب. وأثر التقليد في الآداب على مر العصور ظاهر لا ينكر فالشعر اللاتيني عاش ربحاً من الزمن وهو يقلد الشعر اليوناني، وقد قلد الأوروبيون اليونان في شعر الملاحم والشعر التمثيلي وقد قلد العرب في العصر الحاضر الأوروبيين في كتابة القصّة والمسرحية والمقالة، وقد تأثر الأدبان الفارسي والتركي بالأدب العربي وخاصة في الشعر حيث أخذوا عن الشعر العربي عدداً من أوزانه.

١٠ - وهناك عوامل أخرى كثيرة: تؤثر في الأدب بعضها عام وبعضها خاص لا يمكن حصرها والمضى في تعدادها. ومن ذلك النقد الذي يرشد الأدباء إلى المناهج الصالحة في الإبداع، والغناء الذي يهذب ألفاظ الشعر ويطور ألحانه ويرقق حاشيته ويعمل على انتشاره بين جميع الطبقات.

وقد خضع الأدب الجاهلي إلى عوامل خاصة أثرت فيه كأيام العرب وأسواقها. ومجمل القول: أن أي مظهر من مظاهر الحياة يؤثر في الأدب ويترك عليه بصماته الخاصة لأن الأدب صورة الحياة وترجمتها وتاريخها.^(١)

(١) لمزيد من التفاصيل عن العوامل المؤثرة في الأدب راجع أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب، وأصول الأدب للأستاذ أحمد حسن الزيات، والتوجيه الأدبي للدكتور طه حسين.

تاريخ الأدب العربي

تاريخ الأدب العربي علم يبحث في الأطوار التي مر بها الأدب العربي شعراً أو نثراً على مر العصور، ويبين ما أصاب الأدب من رقي وازدهار، أو انحطاط وانحدار في مختلف الحقب التي مرت بها الأمة العربية.

وهو علم حديث النشأة، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر، وعُني به المستشرقون في القرن التاسع عشر، وقد ظل مجهولاً في الشرق العربي حتى اشتد اختلاطه بالغرب، فكان أول من نقله إلى مصر الاستاذ حسن توفيق العدل بعد عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم.

ثم تتابع المؤلفون على هذا النهج كأحمد الاسكندري في الوسيط، وجرجي زيدان في «تاريخ آداب اللغة العربية» والرافعي في «تاريخ آداب العرب» وأحمد الزيات في «تاريخ الأدب العربي» وغيرهم من أساتذة الجامعات في البلاد العربية المختلفة.

عصور الأدب العربي

اعتاد مؤرخو الأدب العربي أن يقسموا العصور التي مر بها أدبنا كما يلي:

أولاً: العصر الجاهلي، ويبدأ على الأرجح قبل ظهور الإسلام بقرن ونصف وينتهي ببزوغ فجر الإسلام.

ثانياً: عصر صدر الإسلام، ويبدأ بالبعثة المحمدية وينتهي بقيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ.

ثالثاً: العصر الأموي من سنة ٤١هـ إلى سنة ١٣٢هـ وهو عام قيام الدولة العباسية.

رابعاً: العصر العباسي وهو أطول العصور الأدبية السابقة وأحفلها بالتطورات الأدبية ويمتد

من سنة ١٣٢هـ حتى سنة ٦٥٦هـ، وقد قسمه المؤرخون لطوله إلى أربعة عصور:

أ — العصر العباسي الأول، أو عصر نفوذ الخلفاء، من سنة ١٣٢هـ — سنة ٢٣٣هـ.

ب — العصر العباسي الثاني، أو العصر التركي من سنة ٢٣٣هـ — ٣٣٤هـ.

ج — العصر العباسي الثالث، أو العصر البويهي من سنة ٣٣٤هـ — سنة ٤٤٧هـ.

د — العصر العباسي الرابع، أو العصر السلجوقي من سنة ٤٤٧هـ — ٦٥٦هـ.

خامساً: العصر المغولي، أو عصر المماليك من سنة ٦٥٦هـ إلى سنة ٩٢٣هـ.

سادساً: العصر الأندلسي من سنة ١٣٨هـ إلى سنة ٨٩٧هـ وهو ينقسم إلى ثلاثة عهود.

سابعاً: العصر العثماني. من سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ١٢٢٠هـ وهو العام الذي أسس فيه محمد علي باشا دولته في مصر.

ثامناً: العصر الحديث، أو عصر النهضة ويبدأ من سنة ١٢٢٠هـ ويستمر إلى زماننا هذا^(١).

(١) عصور الأدب العربي، د. رجا سميرين وشريكه ص ٨.

الباب الأول
العصر الجاهلي

بقلم
الاستاذ عبد الرحمن سالم

الفصل الأول

السمات العامة لهذا العصر

لمحة عن حياة العرب :

انقسم العرب منذ أقدم العصور إلى قسمين: عرب الشمال، وعرب الجنوب، وقد اصطلح المؤرخون على تقسيمهم إلى جيلين: العرب البائدة، والعرب الباقية. أما العرب البائدة فلم يبق لنا من أخبارهم إلا ما ذكره القرآن الكريم والتوراة، ومنهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم. وكانوا يقيمون في حضرة موت واليامة ومدائن صالح. أما العرب الباقية، فعاربة ومستعربة، والعرب العاربة هم أهل اليمن، وينتسبون إلى قحطان، وقد أنشأوا دولة سبأ وحير ودولة التباغة، وكانوا متحضرين، شيدوا المدن وأقاموا السدود وبنوا القصور. أما العرب المستعربة، فهم أهل الشمال «عرب الحجاز ونجد والبحرين» وينتسبون إلى عدنان بن اسماعيل، وقد أنشأوا دولتي الأنباط وتدمر. أما أغلبهم فقد عاشوا بداءة على شكل قبائل متفرقة في الصحراء. والأدب العربي الذي نؤرخ له، ونتصدى لدراسته هو من إنتاج العرب الباقية، والأرض التي قام عليها هذا الأدب أرض صحراوية غالباً، لذلك فقد طبعت أدبهم بطابعها، كما أثرت في نواحي حياتهم الاجتماعية والسياسة والدينية والعقلية والفنية. ولذلك فإنه لا بد لنا من إلقاء الضوء على وجوه هذه الحياة وصورها، حتى نتتمكن من فهم الأدب الجاهلي فهماً سليماً.

الحياة الاجتماعية والسياسية:

عاش العرب الجاهلية بدواً، ينتقلون من مكان إلى مكان طلباً للماء والمرعى، فسكنوا الخيام، وربوا الماشية واعتمدوا عليها في معيشتهم، فكان منها لباسهم وغذاؤهم، واعتمدوا

على الجمال والخيل في ترحالهم وغزواتهم، وعرفوا الصيد، وشربوا الخمر، ولعبوا الميسر، ووأدوا البنات.

وكان لأهل الرأى منهم مجتمعات خاص للمذاكرة والمشاورة في حروبهم، وللفضل في منازعاتهم، ولعقد الأحلاف والسمر، كما كانت لهم مجتمعاتهم العامة كالحنج والأسواق. ومجمل القول أن عرب الجاهلية لم يعرفوا الاستقرار. وقد ساد النظام القبلي فيما بينهم، وكان لكل قبيلة رئيس يهتم بشؤونها، ويفصل في المنازعات بين أفرادها. يصرف أمورها في وقت السلم ويقود فرسانها في وقت الحرب.

أما أفراد القبيلة فكانت تجمع بينهم عصبية حادة، وكان لكل قبيلة شاعر أو أكثر، ينطق باسمها، ويزهو بمفاخرها، ويتغنى بأحسابها وأجادهاء، ويدافع عنها، ويهجو خصومها.

ولما كانت موارد الحياة قليلة محدودة فقد أدى ذلك إلى التنافس بين القبائل على حيازة هذه الموارد، وبسبب ذلك نشأت الأحلاف بين القبائل حتى تطمئن القبائل الداخلة في الحلف إلى استمرار التمتع بهذه الموارد، وحتى تكون في مأمن من غارات الأعداء أو غزو قبيلة قوية، أو حلف آخر.

وكانت المرأة تشارك الرجل في بعض أعماله اليومية وكانوا يعتبرونها رمزاً لكرامتهم وشرفهم، ولذلك كانوا يستميتون في الدفاع عنها وحمايتها.

وقد اتسم موقف الجاهليين من المرأة بتناقض عجيب، فكان لها عند بعض المجتمعات الجاهلية — كعرب الجنوب — شأن عظيم وصلت بسببه إلى أرفع المناصب وهو الحكم، فكان من النساء ملكات. وفي الوقت نفسه بلغ من هوانها عند بعض القبائل أنهم كانوا لا يتورعون عن دسها حية في التراب خشية الفقر أو العار.

الحياة الدينية

عبد كثير من القبائل الأصنام والأوثان، واتخذوا منها آلهة يتقربون بها إلى الله زلفى. ومن أشهر أصنامهم «اللات والعزى ومناة وبعوث ويعوق ونسر وهبل» وكانت عبادة الأصنام أوسع دياناتهم انتشاراً.

وقد عرف العرب عبادة الكواكب، والشمس والقمر وعبد بعضهم «الملائكة والنار»

— وهي ديانة فارسية — وكان منهم صابئة عبدوا الفلك، ودهريون ينكرون الله، وآمن بعضهم باليهودية أو النصرانية، وكان بينهم قلة من الموحدين الذين يؤمنون بديانة إبراهيم عليه السلام

الحياة العقلية

توصل الجاهليون بخبرتهم وفطرتهم إلى بعض العلوم والمعارف، عرفوا النجوم ومواقعها ليهتدوا بها في الصحراء، وتوصلوا إلى معرفة زمان الخصب والحل، وأوقات الرياح والمطر. وحذقوا علم البيطرة لكثرة اهتمامهم بالماشية. وعرفوا قليلاً من الطب البشري، وألموا ببعض الأخبار التاريخية التي تلقفوها عن الأمم المجاورة.

ومن معارفهم، القيافة: وهي الاهتداء بآثار الأقدام على أصحابها، والعيافة: وهي الاستدلال بأسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على ما يتفاعل به البدوى أو ما يتشاع منه. وعرفوا كذلك العرافة: وهي ادعاء معرفة الغيب، والكهانة: وهي التكهن بما يخبئ المستقبل. وقد ارتبطت بعض معارفهم هذه بدجل واضح. وقد عرف قليل منهم الخط العربي

الحياة الفنية

عرف الجاهليون الغناء في صورته البسيطة الفطرية وهي الحداء، وكانوا يمارسونه في أثناء رحلاتهم، ويقال إنهم عرفوا ألواناً من الرقص وتوصلوا إلى صنع بعض الآلات الموسيقية البسيطة كالربابة والدف والناي. ولكن أعظم فنونهم التي نبغوا فيها قد تمثلت في الشعر والخطابة والوصية والمثل والحكمة.

الفصل الثاني

الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي هو الأب الشرعي للشعر العربي في جميع عصوره. وقد جاءنا هذا الشعر ناضجاً، غير أننا لا نعرف عن بداياته شيئاً ولا عن كيفية نموه وتطوره، ولكن المؤرخين يرجحون أنه بدأ بمناجاة الآلهة، ثم تحول إلى حداء وغناء، فأبيات، فقصائد، فقصاصد...
رمها يكن من أمر بداية هذا الشعر، فقد وصلنا رائعاً مصوراً للبيئة الجاهلية أدق تصوير، بحيث يصح القول بأنه أنضح شعر عربي قتل حتى الآن، وذلك إذا قيس بقدرته على التعبير عن مرحلة تاريخية معينة، وعن بيئة محددة، إذ لم يترك هذا الشعر جانباً من جوانب الحياة الجاهلية إلا صورها وجسمها. فأنت من خلاله ترى الخيام والجمال والرحلات والظعائن، ومن خلال يربك ذكر الصيد والسهام وشرب الخمر والميسر والمخاضات والمحالفات والأسواق والمجتمعات، كما تراه ينبض بمعاني الشجاعة والفروسية والصبر والمروءة والكرم والإيثار والحمية والنخوة والشهامة إلى جانب السفة والطيش والتعصب وغير ذلك مما حفلت به حياتهم.

وقد تميز الشعر الجاهلي بالبساطة والواقعية فجاءت أساليبه مبتكرة قوية، وألفاظه غريبة وحشية، ومعانيه ساذجة سطحية، وأخيلته بسيطة قريبة، مستمدة من واقع البيئة والحياة.

وقد ساعدتهم الحياة التي عاشوها والبيئة التي أحاطت بهم، واللغة التي تمكنوا من ناصيتها، وملكوا زمام التعبير بها على أن يقولوا هذا الشعر، وأن يحسنوا قرضه، ويعبروا به عن مكنون وجدانهم ودخائل نفوسهم، وأن يصورا بواسطة تجاربهم ومواقفهم وخبراتهم أجمل تصوير.

وقد فاض هذا الشعر على ألسنة الكثيرين منهم، فقالاه الشريف والوضيع، وقرضه السادة والأرقاء، وجرى على ألسنة الرجال والنساء والفلمن والجواري من جميع الطبقات.

ومن الصعوبة بمكان أن نقدر عدد شعراء الجاهلية، لضياح أكثر ما خلفوه لعدم تدوينه في ذلك العصر ولا اشتغال العرب بالفتوح في صدر الاسلام.
ومع ذلك، فقد نظم عرب الجاهلية من الشعر ما لم يجتمع مثله لغيرهم من الأمم في عدة قرون.

وما وصل اليينا منه إنما وصل عن طريق الرواية، فقد كان لكل شاعر رواية يذيع شعره في القبائل، وبسبب ذلك اختلف في رواية بعض أبيات القصيدة الواحدة، كما اختلف في نسبة بعض القصائد الى قائلها، فنسبت القصيدة الواحدة إلى شاعرين أو أكثر. وقد ذكرت كتب الأدب القديم عدداً كبيراً من الشعراء مثل : امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، ولييد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، وعنتر بن شداد العبسي، وعبيد بن الأبرص. وقد عرف هؤلاء بأصحاب المعلقات.

ومنهم : مهلهل بن ربيعة التغلبي، وعدى بن زيد، والنابعة الذبياني، والأعشى، والمرقش الأكبر، والمرقش الأصغر، وبشر بن أبي خازم، وأميرة بن أبي الصلت، والمتلمس، والشنفرى، وتابط شراً، وعروة بن الورد العبسي، ودريد بن الصمة، والمسيب بن علس، والمنخل الشكري، والحارث بن حلزة الشكري، وأوس بن حجر، والربيع بن زياد، والمثقب العبدى، وجلييلة بنت مرة، والخنساء، وغيرهم كثير.

أغراض الشعر الجاهلى

تنوعت أغراض الشعر الجاهلى، وتشعبت فنونه، فتناول: الغزل والمدح والفخر والحماسة والوصف والرثاء والاعتذار والهجاء، والحكم والأخلاق. ولكل غرض من هذه الأغراض لغته التي تناسبه، وأسلوبه الذي يليق به.
واليك تعريفاً موجزاً لكل منها مصحوباً بمثال:

١ - الغزل : هو الشعر الذي يتصل بالمرأة و يصور علاقتها بالرجل... فيه يصف الشاعر محاسنها، ويشيد بجمالها، ويعلن الفرح بقرها، والألم والحزن لبعدها، ويذكر تأثيرها على نفسه وما تجود به عليه من وصل، أو ماتريه من تمنع وصد ودلال، أو ازورار وهجران.
وبعض الباحثين يقسم الغزل الى ثلاثة أقسام:

الغزل : وهو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والعبث بذلك في الكلام.
والتشبيب : وهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع القصائد وما يضاف إليه من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال.
والنسيب : وهو شعر الحب الصادق الذي يقصره الشاعر على امرأة واحدة لا يتعداها الى سواها.

ومن الغزل الجاهلى قول اعشى قيس:

ودع هريرة إن الركب مرتحل	وهل تطيق وداعاً ايها الرجل
غراء فرعاء مصقون عوارضها	تمشى الهوينى كما يشى الوجى الوحل
كأن مشيتها من بيت جارها	مر السحابة لا ريث ولا عجل
يكاد يصرعها لولا تشدها	إذا تقوم الى جارها الكسل
إذا تقوم يضوع المسك أصورة	والزنبق الورد من أردانها شيل

٢ - المدح : وهو الثناء على إنسان بذكر أفضاله، وتعداد خلاله الكريمة وصفاته الحميدة.
ومنه قول النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب	إذا طلعت لم يبد منها كوكب
وقوله في مدح عمرو بن الحارث الغساني	
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم	من الجود والأحلام غير عواذب
محلهم ذات الإله ودينهم	قويم، فإ يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حجزاتهم	يحيون بالريحان يوم السباسب

٣ - الفخر : وهو التباهى والتدح بكرم الخلال الذاتية وطيب السمائل النفسية والقبلية.
ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته:

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أنى
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلّاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم تلقى
فإن تبغى في حلقة القوم تلقى
وإن تلتمنى في الحوانيت تصطد
وإن يلقى الحى الجميع تلاقى
إلى ذروة البيت الشريف المصمّد

٤ - الحماسة: وهى التغنى بالصفات التى تنبىء عن القوة والشجاعة والمخاطرة والمغامرة، وضم الجبن والتردد والضعف والخور والفرار. وقد كثر هذا اللون من الشعر عند العرب، حتى الفت فيه الأسفار والمجلدات. ومن نماذجه قول عمرو بن كلثوم من معلقته مفتخراً بأيام قومه وغاراتهم المشهورة وسطوتهم وجبروتهم:

أبا هند فلا تعجل علينا
بأننا نورد الرايات بيضاً
وأيام لنا غر طوال
إذا ما أملك سام الناس خسفاً
أذا بلغ الفطام لنا رضيع
مق تنقل إلى قوم رحانا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها
وأنظرنا نخبرك اليقينا
وتصدرهن حمراً قد رويانا
عصينا التلّك فيها أن ندينا
أبيناً أن نُقرّ الخشق فينا
تخرله الجبابر ساجديننا
يكونوا في اللقاء لها طحيننا
ونبطش حين نبطش قادرينا

٥ - الوصف: وهو من أدق موضوعات الشعر، إذ لا يقدر عليه إلا شاعر نافذ البصيرة صافى الذهن، دقيق الاحساس، وقد برز فيه شعراء الجاهلية وكان لهم منه حظ وافر ونصيب كبير.

ومن ذلك قول امرئ القيس يصف الفرس في معلقته^(١)
وقد أغتدى والطير في وكناتها
بمن جرد قيد الأوابد هيكلي
منكر مفر مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل
يزل الغلام الخف عن صهواته
ويلوى بأثواب العنيف المثل
له أبطلا ظبي وساقا نعامية
وارخاء سرحان، وتقريب ثفل

٦ - الرثاء: وهو بكاء الميت، والتفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته، وذكر خلاله وتعداد مآثره، والاشادة بمناقبه وشماله ووصف الخسارة التى حلت بذويه لعفده. ومن ذلك قول أوس بن حجر يرثى فضالة بن كعدة لفقده^(٢):

أيها النفس أجملى جزعاً
إن الذى جمع السماحة والنجدة
والحزم والقوى جمعاً
الظن كأن قد رأى وقد سمعاً
أودى فلا تنفع الإشاعة من
أمر لمن قد يحاول البدعاً
ليبكك الشرب والمدامة
والفتيان طراً وطامع طمعاً
والحى إذ حاذروا الصباح وإذ
خافوا مغيراً وسائراً تلعا

٧ - الاعتذار: وهو التنصل من الذنب، وادعاء البراءة مما ينسب الى الشاعر من تهم، وهذا الغرض قليل في شعر الجاهليين وفارسه المجلى هو النابغة الذبياني. ومنه قوله يعتذر

(١) شرح القصائد العشر للشيرازى ص ٤٠.
(٢) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام، د. حسن جاد وشريكاه ص ١٣٩.

للعمان بن المنذر:

أتاني أبيت اللعن أنك لم تني
وتلك التي اهتتم منها وأنصب
فبيت كأن العائدات قرشن لي
هراساً به يُغلى فراشي ويقشب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد أبلغت عني وشاية
لمبلغك الواشي أغش وأكذب
فلا تتركني بالوعيد كأنني
إلى الناس مظلومي به القار أجرب
فإن أكره مظلوماً فعبداً ظلمته
وإن تك ذا غيب فثلك يعتب
ولست بمستبق أحداً لا تلثمه
على شعث أي الرجال المهذب؟!

٨ - الهجاء: وهو نقيض المدح، إذ يكون بسلب المهجو ما يعتز به من فضيلة، ورميه بكل منقصة ورذيلة، وهو كثير في الشعر الجاهلي لأن حياتهم قامت على الخصومات والمنافرات. ومن أمثله قول قريظ بن أنيف يهجو قومه بني النضر لقعودهم عن نصرته:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من دهل بن شيبانا
إذا لقم بنصرى معشر خشن
عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد
ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
كأن ربك لم يخلق خشيته
سواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا
شدوا الإغارة فرساناً وركباناً

٩ - الحكم والأخلاق: وهذا الغرض متفرق في ثنايا القصائد، وهو خلاصة الخبرة في الحياة، وعصارة التجربة الإنسانية، يودعها الشاعر في أبيات مفيدة بحث فيها الناس على الخلق الكريم والفعل الحسن، مبيناً فيها عواقب الشر وجزاء الخير، داعياً إلى الحلم والشجاعة والكرم والصمود والصبر على المكروه واحتمال الأذى ونحو ذلك من الأخلاق الكريمة، والأفعال الحميدة. ومنه قول حاتم الطائي:

تحلّم على الأذنين واستبق ودّهم
ولئن تستطيع الحلم حتى تحلّم
وتفسك أكرمها فإنك إن تهن
عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً
وقول الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ماصلحت
فإن تولت فبالأشرار تنقاد

مميزات الشعر الجاهلي

يمتاز الشعر الجاهلي من حيث الألفاظ بالفصاحة والغرابة والجدالة، ووضع الألفاظ في مواضعها التي تتطلبها، فهي ألك قليلة المجاز. أما من حيث الأساليب، فإن أساليبهم تمتاز ببجودة السبك، ومتانة التركيب، وفخامة النسيج، وكانوا يستهلون قصائدهم بذكر الأطلال، وبكاء الرسوم، ومناجاة الديار، وينقلون في القصيدة الواحدة من غرض إلى غرض. ولم يكن للقصيدة الجاهلية في الغالب

وحدة موضوعية، بل كان يجمع بين أغراضها المتعددة وحدة نفسية.

أما من حيث المعاني فقد كانت معانيهم بسيطة كحياتهم تتسم بالصدق والوضوح، يستحضرونها دون كد قريحة أو إعمال فكر.

وأما من حيث الأخيصة فشعرهم حافل بألوان الخيال، ففيه التشبيهات الرائعة والاستعارات الجميلة، والكنايات البديعة، والحكم الخالدة، والأمثال السائرة، ولكن ذلك كله مستمد من بيئتهم البسيطة الخالية من التعقيد والتكلف والغموض.

والشعر الجاهلي سجل دقيق حافل بتاريخ العرب السياسي والديني والاجتماعي في الجاهلية، فهو يقوم مقام الآثار عند قدماء المصريين واليونان وغيرهم من الأمم القديمة.

فقد نقل إلينا صورة مفصلة لألوان الحياة العربية الجاهلية، ففيه تاريخ البادية وحروبها ووقائعها، وفيه تحديد لمعالم الجزيرة العربية وأماكنها ومنازلها ومياهها وجبالها وحيوانها وبناتها وأشجارها وطيرها، كما اشتمل على أسماء النساء وعظاء الرجال ومواطن الأحياء.

وجملة القول أن الشعر الجاهلي كما يقول ابن سلام: «ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم، به يأخذون، وإليه يصيرون»^(١).

المعلقات

هي أطول قصائد الشعر الجاهلي وأجودها، قال بعض المؤرخين أنها سبع، وقال آخرون إنها ثمان، وقال غيرهم: إنها عشر قصائد. وكما اختلفوا في عددها اختلفوا في تسميتها. فن قائل إنها سُميت بالمعلقات لأنها كتبت بماء الذهب وعلقت في الكعبة. ومن قائل بأنها علقت في الكعبة دون تذهيب، وروى آخرون بأنها عرفت بالمعلقات لأنها علقت في خزائن بعض الملوك ولم تعلق في الكعبة.

وقد عرفت بالمشهورات، أو المطولات، أو الحوليات أو السموط.

والذي يهمنا هو أنها كانت أروع ما أنتجته الشاعرية الجاهلية.

أما أصحابها فهم: امرؤ القيس ومطلع معلقته:

(١) طبقات فحول الشعراء - ابن سلام الجعفي - السفر الأول ص ٢٤.

قفأ نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وطرفة بن العبد، ومطلع معلقته:

لخولة أطلال ببرقة ثمند
وتلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وزهير بن أبي سلمى ومطلع معلقته:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بجومانة الدراج فالمثلم
وعنترة العبيس، ومطلع معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم
وعمر بن كلثوم، ومطلع معلقته في وصف الخمر دون سائر المعلقات:

ألا هي بصحنك واصبحنا
ولا تبقى خمور الأندرينا
ولبيد بن ربيعة العامري، ومطلع معلقته:

عفت الديار محلها فقائمها
بني تأبد غولها فرجامها
والحارث بن حنظلة الشكري، ومطلع معلقته:

أذنتنا ببينها أسماء
رُبَّ ثاوٍ يمل منه الثواء
وكان أول من دون هذه المعلقات هو حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ.

وقد لقيت المعلقات من عناية الدارسين والشارحين ما لم تنله أية مجموعة أو ديوان من دواوين الشعراء باستثناء ديوان المتنبي... على أن أهم الشروح التي كتبت لهذه القصائد وأجودها هي شروح الحسين بن أحمد الزوزني المتوفى سنة ٤٨٦ هـ، وأبي بكر الأنباري المتوفى سنة ٣٢٧ هـ، ويحيى بن علي التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ.^(١)

أشهر مختارات الشعر الجاهلي

لم تقتصر عناية الباحثين والشارح على الاهتمام بشعر المعلقات، بل سمت همهم إلى جمع وتدوين عدد كبير من عيون الشعر الجاهلي، فكان لنا من ذلك عدد من كتب الاختيارات منها:

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٤٧٠.

١ - المفضليات

وهي من جمع واختيار المفضل الضبي المتوفي سنة ١٧٥ هـ، وهي مائة وثلاثون قصيدة أملاها الضبي على تلميذه المهدي بن أبي جعفر المنصور. وأكثر هذه القصائد لشعراء جاهليين وبعضها لشعراء مخضرمين أو إسلاميين^(١).

٢ - الأصمعيات

وهي مجموعة من القصائد التي اختارها عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي، و يبلغ عددها اثنتين وتسعين قصيدة منها إحدى عشرة قصيدة مكررة في المفضليات^(٢).

٣ - جهرة أشعار العرب

وهي من جمع أبي زيد محمد بن أبي طالب الخطاب القرشي المتوفي سنة ٢٥٠ هـ على الأرجح. وقد قسمها إلى سبعة أقسام جمع فيها مختارات رائعة من الشعر الجاهلي والإسلامي^(٣).

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٤٧١ - ص ٤٧٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٥ - ص ٤٧٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٧٦ - ص ٤٨١.

الفصل الثالث

النثر الجاهلي

من التجويز القول بأنه كان للجاهليين نثر فني بالمعنى الدقيق. ذلك أن أكثر ما نسب إلى النثر من كلامهم كان إما خطبة أو وصية أو مثلاً أو حكمة، وأنه لم يكن في الجاهلية كتابة فنية بالمعنى المعروف.

وإذا أمعنا النظر في نثر الجاهليين فإننا نجد إما مراسلاً أو مسجوعاً. هذا فيما يتعلق بالشكل.

أما من حيث المضمون، فقد كشف نثرهم عن جانب هام من جوانب حياتهم، ودل على وعيهم للأحداث، ومستوى تلقيهم لها وكيفية مواجهتهم للأمور، وطريقة إحساسهم بها. وإذا كان الشعر الجاهلي قد صور لنا واقع الحياة عند الجاهليين وطرق معيشتهم فإن النثر قد صور الجانب النفسي والعقلي لهذه الحياة وأصحابها. واليك نبذاً موجزة عن أهم ألوان النثر الجاهلي:

١ - الخطابة

كانت دواعيها كثيرة عندهم، فهم قبائل كثيرة متشعبة ومتنافسة أو متحاربة. وكان لابد للقبيلة من رئيس «شيخ» يكون رمز ثقافتها، وعنوان كرامتها، وكان لابد من توافر القدرة على القول، وامتلاك زمام الكلام عند من يتصدى لرئاسة القبيلة ويتطلع إلى زعامتها.

ومن هنا نشأت الخطابة التي أصبحت لازمة للرئيس وسليقة فيه. ولذا كانت منزلتها رفيعة وكانت الأمية الغالبة على الجاهليين سبباً قوياً من أسباب وجود الخطابة، فمن خلال الخطابة كانوا يحرضون على القتال، وشن الغارات، والأخذ بالثأر، وبث الحمية في

١ - المفضليات

وهي من جمع واختيار المفضل الضبي المتوفي سنة ١٧٥ هـ، وهي مائة وثلاثون قصيدة أملاها الضبي على تلميذه المهدي بن أبي جعفر المنصور. وأكثر هذه القصائد لشعراء جاهليين وبعضها لشعراء مخضرمين أو إسلاميين^(١).

٢ - الأصمعيات

وهي مجموعة من القصائد التي اختارها عبد الملك بن قريش المعروف بالأصمعي، و يبلغ عددها اثنتي عشرة قصيدة منها إحدى عشرة قصيدة مكررة في المفضليات^(٢).

٣ - جهرة أشعار العرب

وهي من جمع أبي زيد محمد بن أبي طالب الخطاب القرشي المتوفي سنة ٢٥٠ هـ على الأرجح. وقد قسمها إلى سبعة أقسام جمع فيها مختارات رائعة من الشعر الجاهلي والإسلامي^(٣).

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٤٧١ - ص ٤٧٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٥ - ص ٤٧٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٧٦ - ص ٤٨١.

الفصل الثالث

النثر الجاهلي

من التجويز القول بأنه كان للجاهليين نثر فني بالمعنى الدقيق. ذلك أن أكثر ما نسب إلى النثر من كلامهم كان إما خطبة أو وصية أو مثلاً أو حكمة، وأنه لم يكن في الجاهلية كتابة فنية بالمعنى المعروف.

وإذا أمعنا النظر في نثر الجاهليين فإننا نجد إما مراسلاً أو مسجوعاً. هذا فيما يتعلق بالشكل.

أما من حيث المضمون، فقد كشف نثرهم عن جانب هام من جوانب حياتهم، ودل على وعيهم للأحداث، ومستوى تلقيهم لها وكيفية مواجهتهم للأمور، وطريقة إحساسهم بها. وإذا كان الشعر الجاهلي قد صور لنا واقع الحياة عند الجاهليين وطرق معيشتهم فإن النثر قد صور الجانب النفسي والعقلي لهذه الحياة وأصحابها. واليك نبذة موجزة عن أهم ألوان النثر الجاهلي:

١ - الخطابة

كانت دواعيها كثيرة عندهم، فهم قبائل كثيرة متشعبة ومتنافسة أو متحاربة. وكان لابد للقبيلة من رئيس «شيخ» يكون رمز ثقافتها، وعنوان كرامتها، وكان لابد من توافر القدرة على القول، وامتلاك زمام الكلام عند من يتصدى لرئاسة القبيلة ويتطلع إلى زعامتها.

ومن هنا نشأت الخطابة التي أصبحت لازمة للرئيس وسليقة فيه. ولذا كانت منزلتها رفيعة وكانت الأمية الغالبة على الجاهليين سبباً قوياً من أسباب وجود الخطابة، فن خلال الخطابة كانوا يحرضون على القتال، وشن الغارات، والأخذ بالثأر، وبث الحمية في

النفوس، والدعوة إلى السلم، والتفاخر بالأنساب، والتباهي بالأعجاد في الأسواق الأدبية^(١) والمحاورة في الأيام^(٢) والمواسم والمجامع.

ومن أشهر خطبائهم: قس بن ساعدة الإيادي وأكثم بن صيفي، وهانيء بن قبيصة، وهاشم ابن عبد مناف، وحاجب بن زرارة التميمي، وعامر بن الظرب العدواني، وكعب بن لؤي، وعبد المطلب بن هاشم وسواهم.

نماذج من الخطابة الجاهلية

خطب هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذى قار يحرضهم على قتال الفرس: «يامعشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استد باره، الطعن في ثغر النحر أكرم منه في الأعجاز والظهور، يأكل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بُدْ».

أهم مصادر الخطابة الجاهلية

إن الكتب التي تخصصت في جمع الخطب الجاهلية وغيرها من خطب العرب في العصور الأخرى قليلة نادرة، ويأتي في مقدمتها:

كتاب «جمهرة خطب العرب» للأستاذ أحمد زكي صفوت. وفي هذا الكتاب غناء كبير لمن شاء أن يطلع على نماذج كثيرة من الخطب الجاهلية ويدرستها ويتعرف على خصائصها.

وفي كتب الأدب والتاريخ القديمة، وكتب التراجم والموسوعات بحر متلاطم من الخطب الجاهلية وغيرها. ومن أهم هذه الكتب:

البيان والتبيين للجاحظ، وبيتمة الدهر للشعالي، والأمالى لأبي علي القالي، ونهاية الأرب في فنون العرب للنويري، والسيرة لابن هشام، والكمال لابن الأثير، والكمال للمبرد، وصبح الأعشى للقلقشندي.

(١) الأسواق: أماكن كان يتبادل فيها الجاهليون البضائع. وقد استغلوها لنشر آدابهم، يلقي فيها الشاعر أو الخطيب إنتاجه لينبع في القبائل. ومن أشهرها سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذي المجاز.

(٢) أيام العرب: هي وقائعهم المشهورة التي ينتصر فيها بعضهم على بعض أو على غيرهم من الأمم. ومنها: يوم ذى قار الذي انتصر فيه العرب على الفرس. ويوم حليمة: وهو للغساسنة على المناذرة.

الوصايا

وهي تشبه الخطب إلا أن دائرتها أضيق، فالوصية لا تعدو قوماً مخصوصين في مسألة خاصة، كأن تصدر عن شيخ لقبيلته، أو أب لابنه، أو امرأة لابنتها.

ومن نماذجها: وصية أكثم بن صيفي لقومه بني تميم:

«يا بني تميم، لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع إلا أسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم: الهوى يقطان، والعقل ناثم، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفوس مهملة، والروية مقيدة. ولن يعدم المشاور سنداً، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمع سمع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع...».

الحكمة

هي قول رائع موجز يتضمن حكماً مسلماً به في العصر الذي قيلت فيه:

وكان في الجاهليين عقلاء سلمت فطرتهم، ورجحت عقولهم، وتفجرت ينابيع الحكمة على ألسنتهم كلاماً جميلاً موجزاً بليغاً. وقد جرت الحكمة على ألسنة الخطباء، حيث زينوا بها خطبهم.

ومن حكمهم المشهورة:

رُبَّ عجلة تهب ريشاً. لم يذهب من مالك ما وعظك. مقتل الرجل بين فكيه. ويل للشحى من الخلق. وهي من حكم أكثم بن صيفي. ومنها: من طلب شيئاً وجده. رُبَّ زارع لنفسه حاصد سواه. وهي من حكم عامر بن الظرب العدواني.

الأمثال

هو قول موجز ساثر يشبه مضر به بمورده، أو هو قول يشبه فيه حال المقول فيه ثانياً بحال المقول فيه أولاً. ويعرفه آخرون بأنه جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسله بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالمدلول، فتتنقل عما وردت عنه إلى كل ما يصح قصده منها من غير تغيير يلحقها في لفظها. وهذا الأخير يجمع بين الحكمة والمثل، وعليه يسير ابن رشيق،

والميداني، وأبو هلال العسكري وسواهم ممن ألفوا كتباً في الأمثال.

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها، و يصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير، وهي مرآة الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية.

ويعتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه، وإصابة الغرض المنشود منه.

ومن الأمثال ما هو فرضي يقال للحذر من الاستبداد والطفيان، وهو وسيلة للنقد والسخرية.

والأمثال تكسب الكلام سحراً وجمالاً، وتستثير النفوس والعواطف، وهي تسير سيرورة الشعر وتذيع ذبوعه.

ومن الصعوبة بمكان تمييز الأمثال الجاهلية من الإسلامية لاختلاطها عند الرواة والمؤلفين الذين اعتنوا بجمع الأمثال وتدوينها.

ولكن ما يشير إليه المثل من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية يساعد على معرفة الجاهلي منها وتمييزه من الإسلامي مثل: ما يوم حليلة بسر. وقد يدل على جاهلية المثل كونه مخالفاً لتعاليم الإسلام ومبادئه مثل: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. واليوم خر وغداً أمر. والأمثال أما حقيقية أو فرضية. فالحقيقية لها أصل وقائلها معروف غالباً. والفرضية: ما كانت من تخيل أديب يضعها على لسان طائر أو حيوان أو غير ذلك.

نماذج من الأمثال الجاهلية

من أقدم الأمثال العربية تلك التي تنسب للقمان الحكيم مثل: رب أخ لك لم تلده أمك. آخر الدواء الكي.

ومنها: سبق السيف العذل. إن البلاء موكل بالمنطق. إن العوان لا تعلم الخمرة. كالمستجير من الرمضاء بالنار. مكره أخاك لا بطل. إن البغاث بأرضنا يستنسر. كل فتاة بأبيها معجبة. من مأمته يؤق الحذر. رب رمية من غير رام. الخطأ زاد العجول. أنجز حرّ ما وعد. كلم اللسان أنكى من كلم السنان. من سلك الجدد أمن العثار. قطعت جهيزة قول كل خطيب. لا في العير ولا في النفير.

كتب الأمثال

عنى العرب بجمع الأمثال عناية كبيرة فآلفوا فيها الكتب. ومن أشهرها:

- ١ - كتاب المستقصى للزحشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، وهو ما يزال مخطوطاً.
- ٢ - مجمع الأمثال للميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ، وهو مجموع من نحو خمسين كتاباً في الأمثال، ومرتب على حروف المعجم.
- ٣ - جهرة الأمثال لأبي هلال العسكري. وقد طبع لأول مرة في الهند سنة ١٣٠٧ هـ.
- ٤ - أمثال العرب، للمفضل الضبي، وقد طبع لأول مرة في الآستانة سنة ١٣٠٠ هـ.

الباب الثاني

عصر صدر الاسلام

بقلم

الاستاذ عبد الرحمن سالم

الفصل الأول

السمات العامة لهذا العصر

جاء الإسلام فهذب طبائع العرب، وغير عاداتهم، ومحا ما كان فيهم من سوء، ودعا إلى الإخاء والوفاء، وعلمهم احترام العهود والمواثيق، وحرم عليهم الربا والزنى والميسر، والأنصاف والازلام، والتفاخر بالحسب والنسب، وسوى بين الناس، وجعل التقوى والصلاح ميزانا يعرف به قدر الإنسان.

وخلاصة القول أن الإسلام بدّل حياتهم وأخلاقهم المنحلة حياة شريفة طاهرة، وأخلاقاً سمحة مرضية، وحارب العقائد الباطلة، ودعا إلى التوحيد الخالص، والتفكير المستقل، وبتّ فيهم حب المعرفة وجمعهم في ظل دولة موحدة بعد أن كانوا قبائل متفرقة يضرب بعضها رقاب بعض.

وكان وسيلته إلى ذلك كله القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، بأسلوب بهر العرب رونقه، فخلب ألبابهم، وكان المعجزة الكبرى للرسول. (١) وكتاب هذا شأنه، لا بد وأن يؤثر في لغة العرب وآدابهم، كما أثر في حياتهم الاجتماعية والسياسية.

القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله الحكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(١) عصور الأدب العربي، د. رجا سميرين وشريكه ص ٢٨.

أنزله الله ليهدى به الناس إلى الحق والخير ويدلهم على الصلاح والرشد. وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين، فراع العرب سحره، وبهرهم رونقه، فتوهموه سحراً وما هو بالسحر، وظنوه شعراً وما هو بالشعر.

«وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. قل أنزلهُ الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً»^(١).

وكانت سورة العلق أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم وُسْتُه أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام، أى في السادس من أغسطس عام ٦١٠م. وقد نزل منجماً في ثلاثة عشر يوماً عاماً مابين بعثته إلى وفاته، كان منها ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر في المدينة.

وكانت آخر آية نزلت من القرآن الكريم قوله تعالى:

«اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام ديناً».

وقد نزلت في حجة الوداع، ونزل قبلها بقليل سورة براءة.

أما أول سورة أعلنها الرسول في مكة فكانت سورة النجم، وأول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة هي سورة «المطففين».

ومجموع سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، منها الطويل، ومنها القصير، ومنها مانزل في الموعظة والهداية، ومانزل في التوحيد ومحاربة الشرك، ومانزل في التشريع أو العبادات أو المعاملات وقوانين الأسرة والجماعة والحكومة الإسلامية، ومانزل في أمور الغيب والآخرة وشرح تطور الإنسانية وقصص الأمم الماضية وبغيا ومصيرها المحتوم، ومنه مانزل في بيان أسرار الوجود ومظاهر الغيب وأحوال الجنة والنار. وسور القرآن منها المكي ومنها المدني.

فالْمَكِّي: مانزل بمكة قبل الهجرة

والْمَدَنِي: مانزل بالمدينة أو في غيرها بعد الهجرة والسورة تعد مكية إذا كان أكثر آياتها قد نزل بمكة كالأنعام والشعراء، وتسمى مدنية إذا كان أكثر آياتها مدنية.

(١) سورة الفرقان الآيتان ٥، ٦.

موضوعات المكي والمدني

أظهر موضوعات السور المكية مايلي:

- ١ — الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان.
 - ٢ — تأييد رسالة الرسول وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة.
 - ٣ — إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر والرد على من ينكر ذلك.
 - ٤ — قصص الأمم القديمة وعنادها وتكذيبها للرسول ومآلها نتيجة لذلك.
 - ٥ — محاربة التقليد، ودعوة العقل البشرى إلى الاستقلال بالتفكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ونبد الأوهام والأساطير والخرافات والتفكير في نواميس الله في الكون.
- أما السور المدنية فإن أهم موضوعاتها مايلي:
- ١ — تشريع النظم والقوانين للفرد والأسرة والجماعة والأمة.
 - ٢ — الدعوة إلى الفضائل، ومحاربة الرذائل بكل وسيلة من الوسائل.
 - ٣ — تقرير وحدة الإنسانية والأخوة البشرية، وتعزيز الصلات بين أبناء الإنسانية وإلغاء الفروق بين الطبقات.
 - ٤ — وضع شرائع الحرب والسلام الصالحة لكل زمان ومكان.

مميزات الأسلوب القرآني

يرجع سمو القرآن وعظمته الأدبية، وقوته البيانية إلى أسرار كثيرة ومزايا عظيمة، لا يمكن الإحاطة بها وتعدادها. ولكننا نذكر منها مايلي:

- ١ — مافيه من قوة التصوير ودقته وإحكامه.
- ٢ — ماينبث في جوانبه ويسرى في تضاعيفه من مختلف الحكم التي تروى الأقدسة، والتي بلغت من الصدق والدقة مبلغاً لا ترقى إليه الحكم البشرية والأمثال الاجتماعية.
- ٣ — حسن موقع الإيجاز والإطناب وموافقتهما لمقتضى الحال.

أثر القرآن الكريم في اللغة

يمكننا أن نلخص أثر القرآن الكريم في اللغة العربية فيما يلي:

- ١ - وُحِدَ لهجات العرب المختلفة لنزوله بلهجة قريش التي أصبحت لها بفضله الغلبة والسيادة على سائر اللهجات.
- ٢ - عمل على انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة وصارت هي اللغة الرسمية في بلاد الشام ومصر والعراق وشمال إفريقيا، وأصبحت لغة الدين والسياسة والثقافة في هذه البلاد، بعد أن كانت محصورة في شبه الجزيرة العربية وماجاورها من تخوم بلاد الشام والعراق.
- ٣ - كره بعض الألفاظ فألغاهها، لعدم ملاءمتها للحياة الجديدة، فلم تلبث أن اندثرت. ومن هذه الألفاظ: عم صباحاً، وعم مساءً^(١). فقد أبدلها الإسلام بالسلام عليكم، ومنها: أبيت اللعن^(٢)، والمرباع^(٣)، والصفايا^(٤)، والنشيط^(٥)، والفضول^(٦).
- ٤ - أضاف إلى اللغة ألفاظاً جديدة أجبا، كالصلاة والصيام، والزكاة، والركوع والسجود، والمؤمن والكافر، والمنافق، والعدة، والنفقة، وغيرها.
- ٥ - حفظ اللغة من الانقراض والضياع، ولولاه لعفا الزمن على العربية كما عفا على كثير من اللغات^(٧).

أثر القرآن الكريم في الأدب

يتجلى أثر القرآن الكريم في الأدب العربي فيما يلي:

- ١ - احتذى الشعراء والخطباء والكتاب حذو القرآن فنهجوا نهجه، واهتدوا بطريقته في الأسلوب.
- ٢ - رفع القرآن من شأن التثريد أن كان المقام الأول للشعر في الجاهلية دون سائر الفنون.
- ٣ - أحيى فنوناً أدبية جديدة، كالقصص، وشعر الزهد، وأدب التاريخ.
- ٤ - أبطل فنوناً أدبية كانت معروفة لدى الجاهليين، كسجع الكهان، والهجاء الفاحش، والفخر الكاذب وسواها.
- ٥ - عكف الرواة بسببه على جمع اللغة وآدابها، فوضعت علوم النحو والنقد والبلاغة لمعرفة إعجازه.
- ٦ - ظهرت الدقة والعمق في معاني الأدب، والسهولة والعذوبة في أساليبه، وبطل الفجر في الأسلوب فصارعاً كريماً، وغلب الإيجاز على الموضوعات الأدبية لعدم فراغ المسلمين من أعباء الدعوة والفتوحات^(١).

الحديث النبوي الشريف

وأثره في اللغة والأدب

- كانت بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مضرب المثل، وحديث الناس، فكلامه أبلغ كلام بعد القرآن، وكان عليه الصلاة والسلام يعتز بذلك فيقول: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، ونشأت في سعد بن بكر».
- وسفارة بين الخالق والمخلوق لاشك تعتمد على البيان الخلاب، والتطق الجذاب، وأسلوب هذا شأنه، وهذه أهميته لا بد وأن يترك آثاراً ظاهرة في اللغة والأدب.
- أما آثاره في اللغة فتتجلى فيما يلي:
- ١ - أدخل ألفاظاً جديدة إلى اللغة، كلفظة الزمارة للزانية، وعمرم لصفر الأول.
 - ٢ - ساعد على توحيد لهجات اللغة العربية، فهو متمم للقرآن في هذا السبيل.

(١) عصور الأدب العربي ص ٢٩.

(١) كلامها تحية جاهلية.
(٢) دعاء كان يوجهه الجاهلي إلى أخيه، ومعناه: أبيت أن تأتي شيئاً تلعن بسببه.
(٣) هوربع الغنيمة يأخذها قائد الجيش قبل قسمة الغنائم.
(٤) ما يصطفيه القائد لنفسه قبل قسمة الغنيمة.
(٥) ما يأخذه الجيش في الطريق قبل أن يصل إلى قصده.
(٦) ما يفضل من الغنيمة مما لا يمكن قسمته. ويجمع ذلك قول الشاعر:
لك المرباع فبيننا والصفايا وحككك والنشيط والفضول
(٧) عصور الأدب العربي ص ٢٨.

أما أثره في الأدب فنوجزه فيما يلي:

- ١ - ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة والقضاء على الأساليب الوحشية الغربية المعقدة.
- ٢ - أصبح مورداً عذبا للمثقفين والدارسين على مر العصور، وغدا محورا لعلوم دينية وعربية كثيرة. وقد أكسب ذلك اللغة العربية ثروة كبيرة^(١) ويجمل القول أن أثر الحديث مكمل لأثر القرآن في اللغة والأدب.

طائفة من الأحاديث النبوية المختارة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- ١ - ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.
- ٢ - مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.
- ٣ - اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول.
- ٤ - الناس سواسية كأسنان المشط.
- ٥ - من يحرم الرفق يحرم الخير كله.
- ٦ - لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً والزكاة مغرماً.

(١) عصور الأدب العربي ص ٣٠.

الفصل الثاني

الشعر في صدر الإسلام

كان للشعر في نفوس الجاهليين مكانة لا تدانيها مكانة، فهو ديوان مآثرهم، وسجل مفآخرهم، فلما جاء الإسلام وأمات فيهم روح العصبية، وأخذ في نفوسهم حمية الجاهلية كان ذلك داعياً إلى ضعف الشعر في هذا العصر لأن أداة الشعروهي المبالغة في الوصف، والفحش في الكلام قد تعطلت فابتعد الشعراء عن كل معنى منافي للتعالم الإسلامية. ومن ظل من الشعراء على جاهليته لم يسلم من العقاب، كما حدث مع الخطيئة الذي حبسه عمر بن الخطاب حين أفحش في هجاء الزبرقان بن بدر وهدده بقطع لسانه.

أغراض الشعر الإسلامي

- هجر الشعراء الأغراض التي تتنافى والدين كالغزل الفاحش، والفخر الكاذب، والهجاء المقذع، واقتصر على نظمهم للشعر على الأغراض الآتية:
- ١ - الدعوة إلى الإسلام، ومناضلة خصومه.
 - ٢ - هجاء أعداء الدعوة في عصر النبوة.
 - ٣ - رثاء من استشهدوا في غزوات الرسول والفتوحات الإسلامية بعد ذلك.
 - ٤ - الفخر بالانتصار على جيوش الفرس والروم.
 - ٥ - وصف المعارك والحصون وآلات القتال التي لم يكونوا عرفوها، وأصناف الحيوان والجمال ومظاهر الطبيعة الأخرى في البلاد المفتوحة.
 - ٦ - الحكمة، وقد كثرت بتأثير القرآن والتجارب الكثيرة التي أفادوها في الحياة.
 - ٧ - مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء والصحابة وزعماء القبائل.
 - ٨ - الوعظ والتزهيد في الدنيا والدعوة إلى تقوى الله.

مميزات الشعر الإسلامي

غلب على معانيه العمق والاستقصاء والوضوح والبساطة. وبالنسبة لألفاظه فقد هجر الشعراء اللفظ الحوشي والمبتذل من المفردات، أكثروا من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف. أما أخيلته فكانت بسيطة قريبة غير محقة.

أشهر الشعراء الإسلاميين

عرف هذا العصر عدداً كبيراً من الشعراء أغلبهم من المخضرمين. وهم الذين عاشوا شطراً من حياتهم في الجاهلية، وشطراً منها في الإسلام. ومن هؤلاء: حسان بن ثابت الأنصاري، وكعب بن زهير، وأخوه بجير، والعباس بن مرداس السلمي، وأبو ذؤيب الهذلي، والحطيئة، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي، والخنساء، وقتيلة بنت الحارث، والنابغة الجعدي، وعبد الرحمن بن الحكم، والشماع بن ضرار، وعبد بن الحساس وسواهم.

نماذج من الشعر الإسلامي

قال حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول الله في انتصار المسلمين على المشركين في بدر.

عرفت ديار زينب بالكثيب
تداولها الرياح وكل جون
فأسمى رشمها خلقاً وأمست
فدع عنك التذكر كل يوم
وخبر بالذي لا عيب فيه
بما صنع المليك غداة بدر
غداة كأن جمهم جراء
بدت أركانه جنح الغروب

(١) الوحي: الكتابة - القشيب: الجديد.

(٢) الجون: السحاب الأسود المتراكم - الوسمي: أول المطر.

فلا قيناهم منا بجمع
أمام محمد قد وازروه
بأيديهم صوارم مرهفات
بنو الأوس الغطارف وازرتها
فغادرنا أبا جهل صريعاً
وشيبة قد تركنا في رجال
يناديهم رسول الله لتأ...
ألم تجدوا كلامي كان حقاً
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا

وكان النضر بن الحارث شديد العداوة لله ولرسوله وللمؤمنين، فلما أسريوم بدر، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فقتله على بن أبي طالب، فعرضت أخته قتيلة بنت الحارث للنبي فأشدته معاتبة راثية:

ياراكباً إن الأثيل مظنة
أبلغ به ميتاً بأن تحية
مني إليه وعبرة مسفوحة
هل يسمع النضر إن ناديت
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
من صبح خامسة وأنت موفق^(٥)
ما إن تزال بها النجائب تخفق^(٦)
جادت بواكفها وأخرى تخفق^(٧)
إن كان يشمع مئت لا يطق^(٨)
لله أرحام هناك تشقق^(٨)

(١) خافى الكموب: غليظها.

(٢) الغطارف: جمع غطريف وهو الشجاع - الصليب: القوى.

(٣) الجبوب: اسم موضع في بدر.

(٤) كباكب: جماعات - القليب: البئر.

(٥) الأثيل: واد بنواحي المدينة قرب بدر.

(٦) النجائب: النوق الكرمات - تخفق: تسرع.

(٧) واكفها: سائلها.

(٨) تنوشه: تتناولها.

قَسْرًا يُقَادُّ إِلَى الْمَثِيَةِ مُثْعَبًا رَسَفَ الْمُقَيَّدُ وَهُوَ عَانٌ مُوْتَقٌ (١)
أَعْمَدُهَا أَنْتَ ضَنْءٌ كَرِيمٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقٌ (٢)
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَتَّثَتْ وَرَبَا مَنُّ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْظُ الْمَحْنَقُ
فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مِنْ أَسْرَتِ قَرَابَةٍ وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عَتَقٌ يَعْتَقُ
لَوْ كُنْتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ لَفَدَيْتُهُ بِأَعَزِّ مَا يَغْلِي بِهِ مَنُّ يَنْفِقُ

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها ودمعت عيناه، وقال لأبي بكر:
لو كنت سمعت شعرها لمننت عليه (٣)
وقال الخطيب:

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرملة
بيداء لم يعرف لساكنها رسماً (٤)
أخى جفوة فيه من الإنس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعمى (٥)
وأفرد في شعب عجوزاً إزاءها
ثلاثة أشباح تخالهم بهما (٦)
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة
ولا عرفوا للبر مذك خلقوا طعماً (٧)
رأى شبحاً وسط الظلام فراعته
فلما رأى ضيفاً تشمر واهتما

(١) رسف المقيد: مشى المقيد - عان: أسير.

(٢) ضنء كريمة: نسل أم كريمة - فحل معرق: أب كرم الأصل.

(٣) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ٢٧٦.

(٤) طاوى ثلاث: مقيم على ثلاث ليال على الطوى وهو الجوع.
مرمل: نفذ زاده.

(٥) أخى جفوة: صاحب وحشة.

(٦) البهم: جمع بهمة وهو الصغير من أولاد الضأن أو الماعز.

(٧) الملة: الرماد الحار - البر: القمع.

فقال هيا رباه ضيف ولا قرى!
بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحم
فقال ابنه لما رآه بحيرة...

أيأبست اذبحني ويسر له طعماً
ولا تعبته بالعدم عل الذي طرا
يظن لنا مالا فيوسعنا ذماً (١)

فروى قليلاً ثم أحجم برهة
وإن هولم يذبح فتاة وقد هما (٢)
فبينما هما عنت على البعد عانة

قد انتظمت من خلف مسجلها نظماً (٣)
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروى عطاشها
فأرسل فيها من كنائنه سهما
فخرت نحوص ذات جحش سمينه

قد اكتنزت شحماً وقد طبقت لحماً (٤)
فيا بشره إذ جرهما نحو قومه
ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى (٥)

وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم
وما غرموا غرماء، وقد غنموا غنماً
وفي هذه القصيدة بذرة مبكرة من بذور الشعر القصصى كما ترى.

(١) عل الذي طرا: لعل الذي نزل بنا.

(٢) روى: تَهَلَّل - أحجم: امتنع.

(٣) عنت: ظهرت - العانة: القطيع من حر الوحش.

المسجل: الذكر من الحمر الوحشية.

(٤) خرت: سقطت - نحوص: أنان وحشية - اكتنزت: امتلأت.

(٥) البشر: الفرخ والسرور - كلمها: جرحها - يدمى: يقطر منه الدم.

الفصل الثالث النثر الفني في صدر الإسلام

انتزع النثر صولجان زعامة الأدب من الشعر في هذا العصر، فحمل أعباء الفكرة الإسلامية، ونهض غالباً بالدعوة الجديدة، يبين مزاياها، ويمجاد الناس بالتي هي أحسن، وبهذا عظمت رسالة النثر، فكان لسان الخلفاء والأمراء والولاة. ولما كان النثر الفني يتخذ مظاهر متعددة، فقد آثرنا أن نتحدث عن كل منها بشيء من التفصيل، ونبدأ ذلك بالحديث عن الخطابة.

١ - الخطابة الإسلامية

- كانت الخطابة الجاهلية ضيقة الحدود، فلما جاء الإسلام ارتفع شأنها، فكانت أداة الدعوة الأولى، ولسانها الناطق الفصيح. أما الأسباب التي هيأت لها هذه القوة فتوجزها فيما يلي^(١):
- ١ - الحرية التي أباحها الإسلام للجميع، فلم يكن أحد يسكت عما يظن أنه حق، فيخطب في ذلك ويتحدث ويمجاد.
 - ٢ - الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله وماتستلزمه من تحميس الناس وتحريضهم عليه.
 - ٣ - تأصل ملكة الخطابة في نفوس العرب، فهم بطبيعتهم أهل فصاحة، وأمة بيان.

موضوعاتها:

تتلخص الموضوعات التي طرقها خطباء عصر صدر الإسلام فيما يلي:

- ١ - دعوة الناس إلى الإسلام وتعاليمه.
- ٢ - الحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

(١) عصور الأدب العربي ص ٣١

٣ — شرح آداب الدين وفضائله، وما يهيم الناس من أمور حياتهم في خطب الجمعة والعيد.

٤ — الدفاع عن الآراء السياسية وغير ذلك مما استلزمه نظام الخلافة الجديد.

مميزاتها:

تنحصر مميزات الخطابة الإسلامية فيما يأتي:

١ — شدة التأثير في النفوس، وكثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، والحكم والأمثال.

٢ — كانت تبدأ بحمد الله وتوحيده والصلاة والسلام على رسوله وأتباعه أحياناً. وتنتهى بالسلام عليكم ورحمة الله.

٣ — وضوح اللفظ وسهولة الأسلوب، وتجنب السجع إلا ما جاء منه عفو الخاطر، والإيجاز فيما يستدعى الإيجاز، والإطناب في موضع الإطناب.

أشهر الخطباء:

الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، والخلفاء الراشدون، وعبد الله بن الزبير، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبد الله بن عباس، وعطار بن حاجب بن زرارة وعائشة بنت أبي بكر الصديق وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

نماذج من الخطابة الإسلامية

لما كانت أول جمعة للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، خطب المسلمين فقال: (١)
«الحمد لله، أحمد وأستعينه وأستغفره، وأشهد به وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل.
من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً.

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ٢٤٤.

وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم: أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً. وإن تقوى الله يوقى مقتته، ويوقى عقوبته، وإن تقوى الله يبيض الوجه، ويرضى الرب، ويرفع الدرجة. خذوا بخطكم، ولا تفرطوا في جنب الله. قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، جاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، فأكثرُوا من ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله».

وخطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن بايعه الناس بالخلافة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (١)

«أيها الناس، إني وُلِّيتُ عليكم، ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدوني.

أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له. وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه من آخر خطبة له في الناس قبل مصرعه: (٢)

«إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها. إن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية. فأثروا ما يبق على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله.

اتقوا الله عز وجل، فإن تقواه جنة من بأسه، ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغير، والزمو جماعةكم، لا تصيروا أحزاباً، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً».

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ٢٤٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٧.

٢ - الكتابة في عصر الإسلام

غلبت الأمية على العرب في الجاهلية، ولما جاء الإسلام لم يكن في مكة من يحسن الكتابة غير سبعة عشر نفرًا هم على وجه التحديد: عمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب، وأبو عبيدة، وطلحة، وأبو سفيان بن حرب، وابناه يزيد ومعاوية، وأبو حذيفة بن عتبة، وحاطب بن عمرو، وأبو سلمة المخزومي، وأبان بن سعيد بن العاص وأخوه خالد، وعبدالله ابن سعيد بن أبي السرح، وحويط بن عبد العزى العامري، وجهيم بن الصلت، وعثمان ابن عفان.

ومن النساء الكاتبات حفصة وأم كلثوم. وكانت عائشة وأم سلمة تقرأن المصحف ولا تكتبان.

وفي يثرب لم يكن عدد الذين يحسنون الكتابة يتجاوز الأحد عشر فرداً^(١) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب. وذلك في حد ذاته معجزة كبرى. وقد اتخذ له عددًا من كتاب الوحي يسجلون ما ينزل عليه من الآيات البينات. وكان من كتاب الوحي أبي بن كعب الأنصاري، وزيد بن ثابت الأنصاري، وعثمان بن عفان، وأبان بن سعيد، وخالد بن سعيد، والعلاء الحضرمي، ومعاوية بن أبي سفيان وحنظلة بن الربيع.

وكان بشر بن عبد الملك الكندي وهو أخو أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل أول من نقل الكتابة من الأنبار والحيرة إلى مكة وعلمها نفرًا من أهلها. ولما هاجر الرسول إلى المدينة ووقعت غزوة بدر وأسر المسلمون نحو سبعين رجلاً من قريش وغيرهم، جعل الرسول صلى الله عليه وسلم فداء كل من يعجز عن دفع المال تعليم الكتابة لعشرة من فتيان المدينة، فلا يطلق سراحه إلا بعد تعليمهم، فكثرت الكتابة في المدينة، وأخذت تنتشر في كل ناحية دخلها الإسلام في حياة الرسول وبعده.

وقد قيل إن عدد من كتبوا للرسول قد بلغ ثلاثة وأربعين كاتباً. وفي العهد النبوي كُتب القرآن الكريم، ورسائل النبي إلى الأقبال والأمراء والملوك، وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين. وكان له عليه الصلاة والسلام فئتان من الكتاب: كتاب وحي، وكتاب أعمال.

(١) مناهج التأليف عند العرب من ص ١٧ - ص ١٨ بتصرف.

ومن بين كتاب الأعمال: الزبير بن العوام، وجهل بن الصلت، والمغيرة بن شعبة، والحسين بن نمير، وحذيفة بن اليمان.

وباتساع الفتوحات كثرت الحاجة إلى الكتابة، فاستخدمها الخلفاء في كتابة رسائلهم إلى العمال والولاة والقواد، وفي وصاياهم إلى القضاة وأهل الأمصار، وفي كتابة الصلح، وتوجيهات الخلفاء في الحرب والسلم.

وكان الخليفة أو الوالي يكتب بيده، أو يملئ ما يريده على بعض الكتاب، لأن الكتابة لم تكن قد صارت بعد صناعة فنية كما حدث في عهد بني أمية وبني العباس^(١).

وقد امتازت الكتابة في هذا العصر بالسهولة والوضوح والقصد إلى الغرض بصورة مباشرة، والبعد عن التكلف والخلو من عبارات التفخيم والميل إلى الإيجاز.

نماذج من الكتابة

لما ادعى مسيلمة النبوة كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون». فكتب إليه صلى الله عليه وسلم يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»^(٢).

وكتب عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى عماله حين ولي الخلافة: أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جبابرة. وإن صدر هذه الأمة خلقت رعاة، ولم يخلقوا جبابرة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جبابرة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء.

الا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تعتنوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء»^(٣).

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ٢٥١.

(٢) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ٢٥٣.

(٣) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ٢٥٥.

الباب الثالث

العصر الأموي

بقلم

الاستاذ عبد الرحمن سالم

الفصل الأول

سمات هذا العصر ومميزاته

تكاثرت الأحداث على الأمة الإسلامية بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، واستمر النزاع بين علي ومعاوية إلى أن استتب الأمر لمعاوية في النهاية ونتيجة لذلك النزاع الطويل انقسم المسلمون إلى شيع وأحزاب مختلفة تتمثل في الآتي:

١ — جماعة الأمويين: وهم الذين ناصروا معاوية وأيدوه، وكانوا منبئين في بلاد الشام ومصر.

٢ — شيعة علي بن أبي طالب: وهم الذين أحبوه وناضلوا عن حقه في الخلافة، وكان أكثرهم في العراق، وقليل منهم في مصر.

٣ — الخوارج: وهم الذين خرجوا على علي وكفروه حين قبل التحكيم، وكانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادامت فيه كفاية للحكم، وكان فيهم عصبية طاغية لما يعتقدون.

٤ — جماعة الزبيريين: وهم الذين آزرُوا عبدالله بن الزبير، وكانوا في الحجاز. وقد حول معاوية بن أبي سفيان الخلافة إلى ملك عضوض، ولم يترك سبيلاً لتوطيد عرشه إلا سلكه، فقد تألف القلوب، وسكن الأحقاد بإغداق المال، وعمد إلى الشعراء فقرهم، وأغدق عليهم الهبات، وكان الأمويون يغضون عن زلات ولائهم، ويتغافلون عن هفواتهم، وقد شغلوا الناس بإثارة العصبية القبلية، وبعث الخزازات والخصومات الجاهلية التي كان الإسلام قد أماتها وأخذ ربحها.

والى جانب ذلك فإنهم لم يكونوا يترددون عن البطش بخصومهم والقضاء على منافسيهم.

وقد عُرِّبَت الدواوين في هذا العصر، وكانت تكتب في عصر صدر الإسلام بلغات أهل البلاد المفتوحة.

وفي هذا العصر شاع الاختلاط بين العرب وغيرهم، فتمكن الفساد من الألسنة،

وتسلل الضعف إلى ملكة الفصاحة ففشا اللحن وانتشر.

وقد عنى الخلفاء والأمراء بالأدب عناية شديدة، وكان كثير منهم أمراء بلاغة، وفرسان فصاحة ونقطة كلام.

وقد أصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية مركزاً هاماً من مراكز الأدب والعلم بالإضافة إلى المراكز التي ذاع صيتها في العصر السابق وهي، مكة والمدينة والبصرة والكوفة. وقد أصبحت مجالس الخلفاء في دمشق، وما يشيرون فيها من مناظرات، ومساجلات، وما يهيجون من نقد خير مكان يترعرع فيه الشعر والأدب، وتروج سوقه وتشرق ديباجته. وكان من أهم سمات هذا العصر حرص الأمويين على أن تظل دولتهم عربية خالصة، فقد عزفوا عن الاستعانة بالعناصر الأعجمية ولم يولوا أحداً منها عملاً جليلاً من أعمال الدولة، مما أدى إلى نقمة الأعاجم عليهم فيما بعد.

وقد اتبع خلفاء بني أمية سياسة محددة تجاه أبناء الصحابة فنعموهم من مغادرة الحجاز وأغدقوا عليهم من الأموال ما يسر لهم سبيل اللهو والعبث فانصرفوا إلى مجالس الغناء وتبغ النساء.

الفصل الثاني الشعري في عصر بني أمية

تنوعت صور الحياة في هذا العصر، وتشعبت مذاهب الجماعات، وتعددت ألوان الخصومات، وانقسم الناس إلى أحزاب، وصار لكل حزب شعراء يناضلون عن مبادئه، وينافحون خصومه، فكان جرير والفرزدق والأخطل من أنصار بني أمية وكان عبدالله بن قيس الرقيات يدافع عن عبدالله بن الزبير وحقه في الخلافة، وكان الكهيت الأسدي وكثير عزة يناصران شيعة علي، وكان للخوارج شعراء ناضلوا عن آرائهم بحماسة بالغة كقطري ابن الفجاء وعمران بن حطان.

وهكذا وُجدت دواعي الشعر وبواعثه، ووجدت الأسباب التي تهيج شياطينه، وتدعو إلى إجادته، حتى لقد نبغ في هذا العصر ما يزيد على مائة فحل من فحول الشعراء، ما بين مصور لمظاهر الملك ومؤيد لأصحابه، ومبغ عن أهواء النفوس، وخطرات الأفئدة، وناطق بما تتضح به العصبية والخلافات من نوازع ورغبات.

أغراض الشعر الأموي

طرق الشعراء في هذا العصر جميع الأغراض التي تناولها الشعراء في العصورين السابقين كالمدح والهجاء، والرثاء والغزل وغير ذلك من الأغراض العامة التي يتداولها الشعراء في كل عصر بيد أن هذه الأغراض قد تأثرت بما جد من مظاهر الحضارة وألوان الترف. وقد استجدت في هذا العصر أغراض لم تكن موجودة من قبل كالشعر السياسي والشعري والغزل العذري. وإليك نبأ هذه الأغراض الجديدة بالتفصيل.

١ - الشعر السياسي

وهو صدى لخصومات الأحزاب السياسية، إذ كان لكل حزب شاعر أو أكثر ينافح عن دعوته، ويناوي خصومه. وقد جاء هذا الشعري في صورة مدح مشوب بالتحريض، أو هجاء

توحى به الأحقاد، أو جدل حول فكرة سياسية، أو شرح لعقيدة دينية أو حزبية.

ومن نماذج هذا الشعر قول الكميت الأندلسي، وكان يتعصب لبني هاشم^(١):

طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب

ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب

ولم يلهني دار ولا رسم منزل

ولم يتطربني بنان^(٢) مخضب

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى

وخير بني حواء والخير يظل

إلى النفر البيض الذين يحبهم

الذي الله فيما نابني أتقرب

بني هاشم رهط النبي فإني

بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

فقل للذي في ظل عمياء جوة

تري الجور عدلاً، أين؟ لا أين تذهب

بأي كتاب أم بأية سئة

تري حبهم عاراً على وتحسب

ومنها في مناقشة خصوم آل البيت في أحقيتهم بالخلافة:

يقولون لم يورث ولولا ترائه

لقد شركت فيه بجيل وأرحب^(٣)

فإن هي لم تضلح حتى سواهم

أذن فذو القربى أحق وأقرب

وهذا عبد الله بن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير ويفخر بقريش ويندد بخصوم الزبيرين^(٣).

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين د. عبد الحميد المسلول وشريكاه ص ٨٩.

(٢) بجيل وأرحب: قبيلتان.

(٣) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ٩٠.

حبذا العيش حين قومي جميع
قبل أن تطمع القبائل في ملك
أيها المشتى فناء قريش
إن تودع من البلاد قريش
إنما مصعب شهاب من الله
ملكه ملك قوة ليس فيه
أنا عنكم بني أمية مزور
إن قتلي بالطف قد أوجعتي
لم تفرق أمورها الأهواء
قريش وتشمت الأعداء
بيد الله عمرها والفناء
لايكن بعدهم حتى بقاء
تجلت عن وجهه الظلماء
جبروت ولا به كبرياء
وأنتم في نفسي الأعداء
كان منكم لئن قتلت شفاء^(١)

٢ - الشعر الشعوني

وسبب نشوئه احتقار الأمويين لكل ما هو أعجمي، مما أدى إلى ظهور طائفة من الشعراء المولدين الذين ينتمون على العرب، ويتعصبون لأنهم.
ومن هؤلاء اسماعيل بن يسار وأخوه محمد وإبراهيم والحيقطان الحبشي وابن رباح الزنجي وغيرهم.

ومن الشعر الشعوني ما قاله اسماعيل بن يسار من قصيدة أنشدها في حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك، وفيها يفتخر بالفرس وأجنادهم وأحسابهم:

إني وجلتك ماعودي بلدى تحور

عند الحفاظ، ولا حوضي بمهدوم

أصلي كريم، ومجدي لا يقاس به

ولي لسان كحد السيف مسموم

أحصى به مجد أقوام ذوى حاسب

من كل قريم بتاج المملك معوم

(١) الطف: موضع قرب مكة دار فيه قتال بين الأمويين والزبيريين وقتل فيه عدد كبير من أنصار عبد الله بن الزبير.

(٢) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ٩٥.

من مثل كسرى وسابور الجنود معاً
والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أشد الكنائس يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلوا ملوك الترك والروم
هناك إن تسألني تنبئ بأن لنا
جرثومة قهرت كل الجرائم

وقد غضب عليه هشام وقال له: أعلني تفخر، وإيائي تشد قصيدة تمدح بها نفسك
وأعلاج قومك؟!
غطوه في الماء. فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج، ثم نفاه من وقته إلى الحجاز.

٣ - شعر الغزل

تنوعت أنواع الغزل في هذا العصر، وتشعبت فنونه، فأصبح مستقلاً لا يشركه غرض آخر
في القصيدة الغزلية. وقد ظهر شعراء وقفوا حياتهم وفنهم على هذا اللون من الشعر، لا يتركونه
إلى غيره، ولا يطرقون باباً سواه.
وقد تفرع الغزل الأموي إلى ثلاثة فروع:

الأول: الغزل التقليدي:

وهو ما يفتح به الشاعر قصيدته من وصف المرأة، أو الحنين إليها، أو ما يكون له معها
من وصل وصدأ وحديث، وإن لم تملك قلبه عاطفة الحب الصادق، أو تضنيه صباة العشق
الصحيح. ثم لا يلبث الشاعر أن يتركه إلى ما يقصد من أغراض يهدف إليها في قصيدته:
وهذا النوع ليس جديداً، وإنما هو تقليد للقدماء ومعظمه مصطنع لا أثر فيه لعاطفة أو
شعور صادق. ومن شعراء هذا اللون جرير والفرزدق والأخطل.
ومنه قول جرير:

بنفسي من تجنّب عزيزي عليّ ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبغ لا أراه ويطرئني إذا هجع النيام

الثاني: الغزل العايب:

انغمس فريق من شعراء هذا العصر في اللهو والمجون، فراحوا يتتبعون الحسن في كل
واد، لا يحول بينهم وبين ذلك دين أو خوف من سلطان، أو حياء من الناس.
ثم أخذ هؤلاء يقصون في شعرهم ما كان بينهم وبين أولئك النسوة في قصائد رائعة،
تزخر باللذة، وتثير الفتنة، وتوقظ الشهوة.
وقد شاع هذا اللون من الغزل في الحجاز، لأن الأمويين حدوا إقامة أبناء قريش فيه
ومنعوهم من مغادرته، حتى لا ينازعوهم الملك، أو يؤلبوا عليهم الناس فانصرف هؤلاء إلى
مجالس الغناء، وتتبع النساء كما ذكرنا آنفاً.
والشاعر الإباحي لا يتعلق قلبه بامرأة واحدة، وإنما ينتقل من امرأة إلى أخرى كما تنتقل
النحلة من زهرة إلى زهرة.

وزعيم هذه الطائفة من الشعراء دون منازع هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي.

ومن شعره العايب قوله:

هيج القلب مغان وصير	دارسات قد علاهن الشجر
ورياح الصيف قد أزلت بها	تنسج الترب فنوناً والمطر
ظلت فيها ذات يوم واقفاً	أسأل المنزل هل فيه خبر؟
لتي قالت لأترب لها	قطف فيهن أنس وخفر
إذ تمشيتن بجو مونق	نير النبات تغشاؤه الزهر
بدماء سهلة زيتها	يوم غيم لم يخالطه قتر
قد خلونا فتمنين بنا	إدخلونا اليوم نبدي ما نسير
فعرفن الشوق في مقلتها	وحباب الشوق يبدية النظر
قلن يسترضينها: منيتنا	لو أتانا اليوم في سر عمر
بينما يذكرني أبصرني	دون قيد الميل يعدوني الأغر
قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟	قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها	قد عرفناه وهل يخفى القمر؟!

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٤١.

وهذا اللون من الغزل القصصي وإن اتكأ على دعامة من شعر أمري القيس في الجاهلية إلا أنه في هذا العصر قد استكمل عناصر القصص الشعرية، وحبك أطرافها واستوفى شخصها، ورسم لها الألوان والظلال التي تستثير المشاعر، وتهيج العواطف.

الثالث: الغزل العذري:

وهو ما يصدر عن عاطفة صادقة وحب عميق، يملك على الشاعر جميع مشاعره، فيصرفه عن الحياة وشهواتها، فيقف نفسه وفنه على التعبير عن عاطفته نحو المرأة التي تعلقها قلبه، وملكت عليه أقطار نفسه، وجعلته يعتقد أن ليس في الحياة أجل منها، وإن لم تكن أجل النساء.

وأهم مميزات هذا اللون: الصدق في العاطفة، والعفة في القول، والتفاني في المحبوب، فهو يعتمد على المعاني الروحية، ولا يتناول مفاتن الجسم، ومحاسن الأعضاء. يشكوفيه الشاعر ما يكابد من ألم الفراق وقسوة الحرمان وتجهم الزمان. وربما قنع أحدهم من حبيبته بالنظرة العجلى والوعد المكذوب كما يقول جميل بثينة: (١)

وإني لأرضى من بثينة بالذي
لو أبصره الواشي لقررت بلأبله
بلا وبالأأ أستطيع، وبألمني
وبالأمل المرجو قد خاب آملته
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى

وأخبره لا نلتقي وأواثله
وقد سمى هذا اللون بالعذري نسبة إلى بني عُذرة وهم بطن من قضاة اشتهر شبابها بالحب البرئ الصادق.

وهذا الفن جديد كل الجدة، لم يكن له وجود قبل هذا العصر. ومن أشهر شعرائه: قيس ابن الملوح صاحب ليلي العامرية، وقيس بن ذريح صاحب لبنى، وجميل بن معمر صاحب بثينة، وكثير عزة على المشهور.

وهاك نموذجاً من هذا اللون لكثير عزة: (٢)

(١) ديوان جميل بن معمر ص ٨٨.

(٢) ديوان كثير عزة ص ٥٠.

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجهات القلب حتى تَوَلَّتْ
فقلت لها ياعز كل مصيبة
إذا وُظِنَتْ يوماً لها النفس ذَلَّتْ
ولم يَلْقَ إنساك من الحب مَيِّقَة
تَعُمُّ ولا غَمَاءَ إلا تجلَّتْ
يُكَلِّفُهَا الغيران شَتَّى ومأبها
هو أنى ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مرثياً غير داء مخامر
لعزة من أعراضنا ما استحلَّتْ
أسيئى بنا أو أخشى لا ملومة
لدينا ولا مقلية إن تقلَّتْ
فلا يحسب الواشون أن صباقي
بعزة كانت غمرة فتجلَّتْ
فوالله ثم الله ما حل قبلها
ولا بعدها من خلوة حيث حَلَّتْ

مميزات الشعر الأموي

تهذبت ألفاظ الشعر وأساليبه وترققت حواشيه وصفت ديباجته تأثراً بمدارسة الشعراء للقرآن الكريم وأساليبه الرائعة، وتأثراً بالحضارة وخصارتها ولكن شعراء البادية ظلوا متأثرين بخشونة الصحراء وشظفها فكانوا بداءة في تفكيرهم ومنطقهم وأساليب شعرهم. وقد كثرت الأراجيز في هذا العصر، وهى من نتاج شعراء البادية ومنهم: رؤبة بن العجاج والأغلب العجلى وغيرهما.

وقد غلبت على معاني الشعر الدقة والعمق وترتيب الأفكار وكثرت فيه الحكم والأمثال، وتنوعت التشبيهات، وسمت الأخيلة، وبدت صبغة الجدة واضحة في كثير من أغراضه ومناحيه.

أشهر الشعراء الأمويين

أشتهر من الشعراء غير من ذكرنا من شعراء الغزل نصيب والأحوص، ومن شعراء السياسة الراعي النخعي والبعيث، ومن شعراء البادية: ذو الرمة، والرماح بن ميادة، ومن شعراء الأمصار والموالي: زياد الأعجم وموسى شهوات وأبو نخله ووضاح اليمن والناطقة الشيباني، وأعشى ربيعة، ومالك بن أسماء، والطرماح بن حكيم، وسعد بن ناشب، وكعب الغنوي وأبو العباس الأعمى، وأبو صخر الهذلي، وأبو قطيفة، وثابت قطن، والعرجي، وابن ميادة، وليل الأخيلية، وتوبة بن الحمير، وغيرهم كثير.

الفصل الثالث النثر في العصر الأموي

١ - الكتابة

زادت العناية بالكتابة في هذا العصر لتتسع أعمال الخلفاء وتعدد الدواوين، فقد زاد معاوية على ما كان منها في عهد الخلفاء الراشدين ديوان الخاتم. ومهمة هذا الديوان: أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر عنه مخطوماً لا يدري حامله ما فيه، ولا يستطيع أن يغيره. وكان الخليفة هو الذي يملئ الرسائل بنفسه على الكتاب حتى عهد هشام بن عبد الملك الذي كان كثيراً ما ينيب عنه كاتبه سالماً في كتابة الرسائل. وقد مرت الكتابة في هذا العصر بطورين:

الطور الأول: ويبدأ من قيام الدولة سنة ٤١ هـ ويستمر حتى زمن الوليد بن عبد الملك، وكانت الكتابة في هذا الطور لا تختلف عنها في صدر الإسلام.

الطور الثاني: من أيام الوليد إلى آخر الدولة سنة ١٣٢ هـ، وقد أخذت الكتابة فيه تتدرج في التأنق والصنعة والإطناب، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها. وكان زمامها بأيدي الموالى المثقفين بثقافة عربية واسعة بالإضافة إلى ثقافة أمهم التي ينتمون إليها. ومن هؤلاء: سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وعبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

وقد امتازت طريقة عبد الحميد الكاتب في الكتابة بما يلي:

- ١ - الانحياز في غير إخلال والإطالة في غير إملال.
- ٢ - الإكثار من الرسائل الإخوانية، وكانت قليلة من قبل.
- ٣ - الإطالة في الفواتح والخواتم.

نماذج من الكتابة الأموية

١ — كتب عبد الحميد الكاتب إلى عامل أهدي مروان بن محمد عبداً أسود:

«لو وجدت لوناً شراً من السواد، وعدداً أقل من الواحد لأهديته».

٢ — وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان: (١)

أما بعد، فإن الله — تعالى — جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بناها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفوايق استحليناها، ثم جمحت بنا نافرة، ورحمتنا مولية، فلح عذبتها، وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت الأيام تزيدينا منكم بعداً وإليكم وجداً، فإن تم البلية إلى آخر مدتها يكن آخر العهد بكم وبناء، وإن يلحقنا ظفر جارج من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسمار، والذل شرجار.

نسأل الله الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفه جامعة في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

٢ — التوقيعات

التوقيع: هو الكتابة على حواشي الرسائل التي ترفع إلى ذوي الشأن بما يفيد العلم بها وإبداء الرأي فيها.

وتمتاز التوقيعات بالإيجاز. وقد يكون التوقيع آية مقتبسة أو حديثاً مروياً أو مثلاً سائراً أو حكمة صائبة، أو بيتاً من الشعر.

وقد بدأ ظهور التوقيعات أيام عمر بن الخطاب إلا أنها كثرت وأصبحت فناً في هذا العصر.

ومن أمثلة ذلك: ما وقع عمر بن عبد العزيز على كتاب عامل له يستأذنه في تجديد بناء مدينة:

«ابنها بالعدل، ونقّ طرقها من الظلم».

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ٧٨.

وقع سليمان بن عبد الملك على كتاب لقتيبة بن مسلم حين كتب إليه يتهدده بالخلع: زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً
أبشر بطول سلامة يامربع

٣ — الخطابة الأموية

استجذت في هذا العصر عوامل كثيرة ساعدت على رقي الخطابة وازدهارها، وتنوع أغراضها، ونضج أساليبها. فبالإضافة إلى ما فطر عليه العرب من قوة الملكات انقسمت الأمة إلى أحزاب تتقارع بالكلام وتترشق بالتهم. كما توافر للجميع من الحرية ما كان له أثر بالغ في نهوض الخطابة وتقدمها.

وكان تعصب الحزبيين لعقائدهم يجعلهم يستميتون في الدفاع عنها وإعلانها. وقد عمد كثير من الناس إلى تعهد أبنائهم وتربيتهم على بلاغة الكلام ومواقف الخطابة.

موضوعاتها

استعملت في الدعاية السياسية عند الأحزاب، وفي الجدل الديني عند الخوارج والشيعة، وفي المناقضات والمفاخرات والمحاورات والوعد والوعيد والإنذار، هذا إلى جانب أغراضها القديمة من وصية ونصيحة وتحريض على القتال وتهنئة بنصر، كما ظلت مظهراً دينياً يتجلى في خطب الجمعة والعيد ومناسم الحج.

خصائص الخطابة الأموية

سادت الخطابة في هذا العصر نزعتان:

١ — النزعة السياسية: وخطباء هذا اللون من الحكام ويغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية ويكثر فيها الاستشهاد بالشعر، ويقل الاقتباس من القرآن والحديث، ويغلب عليها فخامة اللفظ والعنف والمبالغة في التهديد، والإسراف في السب والشتم.

٢ — النزعة الدينية: وخطباء هذا اللون من الجماعات المناوئة للخلفاء، وتمتاز خطابهم بالالتزام الحمد في أولها والصلاة على النبي، وكثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والاقتباس منها. ويشيع فيها التحذير من الدنيا وغرورها، والتخويف من الآخرة وأهوالها.

وهذه الخطب في الواقع سياسية تهدف إلى تغيير الأوضاع، ولكنها تتشع ببرة الدين للتأثير في النفوس.

أشهر الخطباء الأمويين

من الخلفاء: معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز.
ومن الولاة: الحجاج بن يوسف الثقفي، وزياد بن أبيه.
ومن العلويين: الحسين بن علي وحفيده زيد.
ومن الخوارج: قطري بن الفجاءة، وعمران بن حطان.
ومن الزبيريين: عبدالله بن الزبير وأخوه مصعب.
ومن زعماء القبائل: سحبان بن وائل.

نماذج من الخطابة الأموية

خطب معاوية بن أبي سفيان في المدينة عام الجماعة فقال: (١)

«أما بعد، فإنني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضى لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على سنيات عثمان، فأبت عليّ فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مؤاكلة حسنة، ومشاركة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإنني خير لكم ولاية.

والله لا أحمل السيف على من لا سيف له... وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذن، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحققكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أناكم مني خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاد أثرى، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة.

وخطب عبد الملك بن مروان لما دخل الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير (٢)

«أيها الناس، إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبنتنا الحرب

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٥٤.

وَزَبَنَّاها، فَعَرَفْنَاهَا وَأَلْفَنَاهَا، فَنَحْنُ بَنُوها، وَهِيَ أَمْنًا.

أيها الناس، فاستقيموا على سبيل الهدى، ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين. ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين، وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً، ولن نزداد بعد الأعداء إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فن شاء أن يعود بعد مثلها فليعد، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه الأنصاري:

مَنْ يَضِلَّ نَارِي بِلا ذَنْبٍ وَلَا تِزَّةٍ

يَضِلُّ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَارٍ

أنا النذير لكم مني مجاهرة

كفى لا ألام على نهبي وإنذار

فإن عصيتكم مقالي اليوم فاعترفوا

أن سوف تلقون خزيّاً ظاهر العار

مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوْجَاءٌ يَطْلُبُهَا

عندي فإنني له رهقٌ بإصهار (١)

وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه

عندي وإنني لمدرك لأوتار

(١) رهن بإصهار: أي لا استترعنه ولا أمتنع في الأماكن الحصينة وهو من قولهم: أصحرا القوم: أي برزوا إلى الصحراء.

الترجمة والتدوين والتأليف

في هذا العصر

العصر الأموي فاتحة عصور التمدن الإسلامي، فيه بدأت حركة الترجمة، وفيه بدأ تكون أكثر علوم المدنية الإسلامية.

وقد أصبحت البصرة والكوفة بؤرة العلم والأدب وملتقى العلماء والأدباء والشعراء. وقد بدأ نقل بعض العلوم الدخيلة إلى العربية في هذا العثر، فقد نقل رجل يدعى «أسطفان القديم» كتاباً في الكيمياء إلى العربية بأمر من خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ. وكانت هذه أول عملية ترجمة تتم في العصر الأموي.

وفي عهد مروان بن الحكم نقل الطبيب اليهودي «ماسرجويه» كتاباً في الطب إلى اللغة العربية كما نقل «سالم مولى هشام بن عبد الملك» وكتابه رسائل أرسطو إلى الإسكندر المقدوني.

ولكن لم يصلنا شيء من هذه المنقولات.

أما العلوم العربية والإسلامية فقد نشأت كلها لخدمة القرآن الكريم، ولعل أول علم تسبب القرآن في ظهوره هو علم القراءات. وقد مات اثنان من علماء القراءات في العصر الأموي دون أن يختلفوا كتباً مدونة في هذا العلم. وهذان العالمان هما: عبدالله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠هـ، وعاصم بن أبي النجود المتوفى سنة ١٢٧هـ. وقد نقلت قراءة هذين العالمين كما نقلت قراءة غيرهما بالرواية والإسناد ودونت بعد وفاتها في المصنفات التي وضعها العلماء في العصر العباسي.

أما علم التفسير فقد قيل إن أول كتاب وضع فيه دونه مجاهد المتوفى سنة ١٠٤هـ، ولكن كتابه هذا لم يصل إلينا.

وقد عثر في دار الكتب المصرية على نسخة من كتاب في التفسير منسوب إلى ابن عباس ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام، ويؤخذ من مقدمته أنه قد نقل عنه بالرواية، وأنه لم يُدَوَّن في أيام صاحبه. وقد يكون هذا هو تفسير مجاهد الذي اشرنا إليه.

وللشيعنة تفسير قديم ينسبونه إلى محمد الباقر بن علي بن الحسين.

وأما بالنسبة لعلم الحديث، فعلى الرغم من أن العصر الأموي قد عرف عدداً لا يستهان به من رواة الحديث الثقات فإن أحداً منهم لم يُدَوَّن كتاباً فيه، كما لم يختلف علماء الفقه

آثاراً مكتوبة في هذا العلم في هذا العصر.

وقد قيل إن عبيد بن شربة وأبا مخنف الأزدي وهما من علماء التاريخ في هذا العصر قد دونا كتابين في التاريخ الأجنبي وتراجم بعض المشاهير من المسلمين ولكن شيئاً من ذلك لم يصل إلينا.

ومن العلوم التاريخية التي ولدت في هذا العصر علم الأنساب الذي قيل إن زياد بن أبيه قد وضع كتاباً فيه ثم دفعه إلى ولده. وقد عرف العصر الأموي عدداً آخر من النسابين مثل: دغفل، والحجر بن الحارث، والبكري، ولسان الحمرة، ولكنهم لم يتركوا كتباً في هذا الفن.^(١)

«نشأة علم النحو»

كان انتشار اللحن هو الدافع الرئيسي لظهور هذا العلم، وقد كثرت اللحن على ألسنة الناس بعد أن اشتد اختلاط العرب بالعجم، حيث أدى ذلك إلى فساد الألسن وضعف الملكات. وقد بدأت بوادر اللحن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى أن رجلاً لحن في حضرته فقال لأصحابه: «أرشدوا أخاكم فقد ضلّ» وكان العرب يكرهون الوقوع في اللحن. فقد روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: «لأن أقرأ فأسقط أحب إليّ أن أقرأ فألحن».

ولسنا من الذين يميلون إلى أن حادثة من حوادث اللحن بعينها كانت سبباً في وضع هذا العلم، ولكن تفشى اللحن وشيوعه هو الذي حفز علماء العربية إلى وضعه. أما واضعه أو مدونه فهو بالإجماع أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩هـ، وكان من سادات التابعين، وقد صحب على بن أبي طالب، وكان مقيماً في البصرة. ويبدو أنه قد اطلع على نحو السريان فنسج على منواله، على أن ما وضعه أبو الأسود من قواعد النحو لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة، فعمد إلى ضبطها بعلامات هي علامات الضم والفتح والكسر، فكان يضع نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة، ونقطة بين يدي الحرف للدلالة على الضمة، ونقطة تحت الحرف للدلالة على الكسرة.

(١) لمزيد من التفاصيل راجع تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ لجرجي زيدان من ص ٢٣٨ إلى ص ٢٦٠.

وتعد البصرة الموطن الذي ولد فيه علم النحو وترعرع ومعظم علمائه الأوائل بصريون، ثم لم تلبث أن نشأت بعد ذلك المدرسة الكوفية في النحو. وقد مر علم النحو في أربع مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة البدء وهي مرحلة أبي الأسود وتلاميذه. وكان أبو الأسود أول من اتجه بالدراسة اللغوية إلى الاستقراء والاستنباط، وكانت قبله تقوم على الاختلاط بالأعراب وعماكانهم. ومن أهم تلاميذ أبي الأسود: نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الأقرن. وقد ابتكر نصر ويحيى حروف الإعجام التي تتميز بها الحروف المتشابهة، كالباء والتاء والثاء، والسين والشين.

المرحلة الثانية: مرحلة وضع القواعد واستقلال النحو. ومن أشهر علماء هذه المرحلة ابن اسحق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧هـ، وعيسى بن عمر، وأبو عمر بن العلاء. وقد استخدم هؤلاء الرأي والاجتهاد في دراساتهم مستفيدين من مناهج علم الفقه الاسلامي. وفي هذه المرحلة بدأ وضع الكتب فألف عيسى بن عمر كتابيه «الجامع والإكمال».

المرحلة الثالثة: مرحلة النضج. ومن أشهر علمائها يونس بن حبيب والخليل بن أحمد، وقد عاصرهما في الكوفة أبو جعفر الرؤاس مؤسس مدرسة الكوفة. وقد ألف يونس بن حبيب كتاب «القياس في النحو» وقد ألم العلماء في هذه المرحلة بدقائق علم النحو وتفصيلاته.

المرحلة الرابعة: مرحلة الكمال... وهي مرحلة سيبويه، ومن أهم ما يميز هذه المرحلة هو ظهور «الكتاب» لسيبويه. وقد جمع فيه أقوال العلماء كالأخفش ويونس والخليل وأبي عمرو بن العلاء. وكان سيبويه يذكر الآراء المختلفة ويوازن بينها ويرجح ما يراه. ومن معاصري سيبويه في الكوفة: الكسائي ومعاذ الهراء ناشر المذهب الكوفي في النحو. وقد بلغت الشواهد من القرآن في الكتاب ثلاثمائة آية، ومن الشعر ألفاً وخمسين بيتاً غير أنه يؤخذ عليه عدم نسبة بعض الآيات إلى قائلها مما يجعلها قليلة القيمة في الاستشهاد بها.

الباب الرابع

الأدب في العصر العباسي

بقلم

الدكتور رجا سمرين

تمهيد

كان اضطهاد الأمويين للعلويين والعباسيين وتشريدهم وحبسهم والتنكيل بهم في كل مكان، وإحياء العصبية القبلية، وتحكيم الخلفاء الأمويين أهواءهم في التعامل مع قوادهم ورجال دولتهم، وانشقاق البيت الأموي على نفسه بسبب الصراع على ولاية العهد وتعصبهم للعرب، واحتقارهم العناصر الأعجمية وحرمانهم من المشاركة في الحكم وتولي المناصب الرفيعة، في مقدمة الأسباب التي أدت إلى تقويض ملك بني أمية، وانتزاع مقاليد الخلافة الإسلامية من أيديهم وانتقالها إلى أبناء عمومتهم من بني العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه.

وفي يوم الخميس لثلاث عشرة خلون من ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ، الموافق للثلاثين من أكتوبر ٧٤٩ م بويع السفاح بالخلافة.

وراحت جيوشه تلاحق الأمويين في كل مكان حتى استأصل شأفتهم وقضى على مناصريهم وأتباعهم.

واتخذ السفاح من الكوفة عاصمة له، ثم تحول عنها إلى الأنبار وجعلها عاصمة للكل، وظلت كذلك إلى أن شيد خليفته أبو جعفر المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٥ فأصبحت حاضرة لأعظم إمبراطورية إسلامية عرفها التاريخ.

وبانتقال الخلافة من الشام إلى العراق حدثت تحولات جذرية عميقة في الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي إذ كانت الدولة الأموية عربية خالصة، فأصبحت دولة بني العباس دينية جامعة قربت الأعاجم وحكمتهم في أمور الدولة ورقاب الناس، وازدهرت الحضارة وانتشر الترف والنعيم، وإن كانت بعض الطبقات الاجتماعية قد ظلت بعيدة عن بلهنية العيش ورغد الحياة.

وقد ساد الدولة العباسية تياران متصارعان:

الأول: علوى يناصره الشيعة من الفرس وعرب اليمن.

والثاني: عباسي يعاضده أهل السنة والجماعة وجماهير الدولة الإسلامية في أمصارها المختلفة (١).

والعصر العباسي هو عصر الإسلام الذهبي، فيه بلغت الحضارة الإسلامية غاية مجدها وقمة ازدهارها. ويعا عصر هارون الرشيد ذروة القوة السياسية للعرب والمسلمين، وازدهى ماوصلوا إليه عبر عصورهم في العمران والحضارة والعلوم والآداب.

ونظراً لطول العصر العباسي وكثرة التقلبات السياسية والاجتماعية فيه فقد قسمه المؤرخون إلى أربعة عصور: ١

العصر الأول: عصر نفوذ الخلفاء. من ظهور الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ إلى بداية خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ.

العصر الثاني: عصر النفوذ التركي. من خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ إلى قيام الدولة البويهية في بغداد سنة ٣٣٤ هـ.

العصر الثالث: عصر الدولة البويهية. من سنة ٣٣٤ هـ إلى دخول السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ هـ. وقد سيطر البويهيون وهم من الفرس على مقاليد الحكم في هذا العصر.

العصر الرابع: عصر الدولة السلجوقية: من دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ إلى سقوطها في أيدي المغول الذين قضوا على الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٦ هـ (٢).
واليك نبأ الحياة العلمية والأدبية في كل عصر من هذه العصور.

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الحفص - الجزء الثاني ص ٢٢١ وما بعدها.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الثاني - ص ١١ - جرجي زيدان.

الفصل الأول

١ - عصر نفوذ الخلفاء

١٣٢ هـ - ٢٣٣ هـ

كان النفوذ في هذا العصر خالصاً للخلفاء العباسيين على الرغم من تقريرهم الفرس وتعيينهم في المناصب الكبرى في الدولة.

وكان للخلفاء ولاية في كل إقليم، وحكام في كل قطري نشرون الأمن والعدل والعلم، ويجبون الزكاة والخراج والجزية والمكوس باسم أمير المؤمنين الذي كانت له الكلمة الأولى والأخيرة في كل أمر.

وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخليفة، فأقبل الناس عليها يتعلمونها من كل لون وجنس، ولم تلبث أن أصبحت لغة الشعوب الإسلامية في كل مكان.

وفي هذا العصر نبغت الفنون الإسلامية وترجمت الثقافات الأجنبية وازدهرت الآداب العربية، وقامت المدارس والجامعات في كل مكان تؤدي رسالتها في تثقيف العقول وتهذيب النفوس، وفيه عاش أئمة العلم والأدب والدين والفكر يبنون لأمتهم مكانتها الرفيعة ومنزلتها السامية بين أمم الأرض.

وقد تولى عرش الخلافة في هذا العصر عشر خلفاء، دانت لهم الدنيا وخضعت لسلطانهم الأمم.

كان أول هؤلاء الخلفاء السفاح الذي انشغل عن العناية بالعلم والأدب بتوطيد أركان الدولة والقضاء على مناهضيها. ثم تلاه أخوه المنصور فحكم عشرين سنة عنى فيها بالعلوم وبتريجة آثار الأمم العريقة. وفي عهده قوى نفوذ الفرس حتى اضطبغت الدولة بصيغتهم وتولى بعده ابنه المهدي فحكم إحدى عشرة سنة، وكان جواداً كريماً وقد تقدمت العلوم والفنون والآداب في عهده، وعاش في رعايته كثير من العلماء والشعراء والمفكرين.

أما ابنه الهادي فلم يملك في الحكم غير سنة واحدة، ثم خلفه أخوه هارون الرشيد الذي سار على سننه جده المنصور في السياسة وعلى خطا والده المهدي في العناية بالعلم

والأدب ورعاية العلماء والأدباء.

ولما تجاوز نفوذ الفرس حده على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم، ونكبهم نكبة هزت النفوذ الفارسي، وزعزعت أركانه.

ومات الرشيد سنة ١٩٣ هـ فتولى الخلافة بعده ابنه الأمين الذي لم يحكم سوى خمس سنوات قضاهما في صراع مع أخيه المأمون وأتباعه من الفرس. وقد انتهى ذلك الصراع بانتصار المأمون فحكم عشرين سنة أشرقت في خلالها شمس العلوم، ونبغ في أثنائها عدد كبير من فحول المفكرين من الفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء، وزهت حركة الترجمة واسترد الفرس نفوذهم الذي خسروه في أيام الرشيد.

وجاء بعده المعتصم وكان عسكري النشأة قليل الحظ من العلم والثقافة فلم يكن له أثر يذكر في تشجيع الحركة العلمية والأدبية وقد قرب إليه أخواله الأتراك ليحتمى بهم من نفوذ الفرس، وبنى لهم مدينة «سامراء» وجعلها عاصمة لدولته سنة ٢٢١ هـ. واستمرت النهضة في عهده سائرة في طريقها السوي بحكم قوة الاندفاع الذاتي. ثم تولى بعده الخلافة ابنه الواثق ثم ابنه المتوكل الذي امتاز عهده باتساع نفوذ الأتراك وقد اضطهد المعتزلة، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت أيامه من أزهى أيام العلم والأدب. وقد وثب عليه الأتراك وقتلوه سنة ٢٤٧ هـ فانهى بنهايته عصر نفوذ الخلفاء. يقول البحتري واصفاً قصر المتوكل بعد مقتله^(١):

تغيّر حسن الجعفرى وأنسه وقوّض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دور ومقابره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
وإذ صيخ فيه بالرحيل فهتكت على عجل أسناره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يُقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طليقة بشاشتها والملك يُشرق زاهره
فأين الخجائب الصعب حين تمتعت بهيبته أبوابه ومقاصره
وأين عميد الناس في كل نوبة تتوب؟ وناهى الدهر فيهم وأمره

(١) ديوان البحتري - المجلد الأول ص ٥٤ ط دار صادر - بيروت.

ولعلّ بن الجهم في مصرع المتوكل قوله: (١)

عبيد أمير المؤمنين قتلته
وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبراً لكل مصيبة
سيبلى على وجه الزمان جديدها

وبعد، ارتكزت سياسة الدولة العباسية في هذا العصر على ركائز ثلاث:

الركيزة الأولى: نشر الثقافة والحضارة في أرجاء الدولة الواسعة والعناية بترجمة العلوم والآداب.

الركيزة الثانية: الاهتمام بأمر الموالى وتقريبهم والإغداق عليهم، وكان أوفرهم حظاً عند الخلفاء الفرس ثم الأتراك.

الركيزة الثالثة: العناية بالمظهر الدينى الذى أقاموا عليه دولتهم وشيدوا على أساسه صرح حضارتهم. لذلك كان الخلفاء يخرجون إلى الصلوات الجامعة في مواكب مهيبه، وكانوا يؤمون الناس ويخطبونهم ويعظونهم وعليهم بردة النبي صلى الله عليه وسلم، وبين أيديهم الأئمة من رجال العلم والدين.

وقد صور البحتري خروج المتوكل على الله لأداء الصلاة في عيد الفطر تصويراً رائعاً فقال: (٢)

بالر ضمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضوية تفتطر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه يوم أغر من الزمان مشهور
أظهرت عز الملك فيه بحفلي لجب يحاط الدين فيه وينصر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتنن فيك الناظرون فإصبغ يوماً اليك بها، وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعم الله التي لا تكفر

(١) الأدب العربى في ظلال الأمويين والعباسيين ط ١٩٥٢ ص ١٣٦

(٢) ديوان البحتري - المجلد الأول ص ٢٣.

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
 حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً
 ومشيت مشية خاشع متواضع
 فلو أنّ مشتاقاً تكلفت فوق ما
 ووقفت في برد النبي مذكراً
 صلوا وراءك آخذين بعصمة
 لما طلعت من الصفوف وكبروا
 نور الهدى، يبدو عليك ويظهر
 لله لا يُزهى ولا يتكبر
 في وسعي لسعي إليك المنبر
 بالله تنذر تارة وتبشّر
 من رهم وبذمة لا تُخفّر

أبرز معالم هذا العصر

تتلخص أبرز معالم هذا العصر في اضمحلال النفوذ العربي، ويزوغ فجر النفوذ الأعجمي واستفحال خطره، وامتزاج العرب بأبناء الأمم الأخرى بالزواج والتسرى والمجاورة والتأثر الفكري والاجتماعي، وازدهار حركة الترجمة وتطورها، وتولد العامية واختلافها باختلاف الأقاليم، واستشراء خطر الشعوبية وتطور النقد الأدبي، وانتشار الفناء وكثرة المغنين، واتساع حركة التدوين والتأليف.
 ولما كان لكل ظاهرة من هذه الظواهر أثرها الخاص في اللغة وآدابها فقد رأينا أن نفرّد لكل منها نبذة خاصة تجلّو غموضها وتوضح سماتها وتكشف عن آثارها.

اتساع النفوذ الأعجمي وضمحلال النفوذ العربي

اضطهد الأمويين الموالي عامة، ولم يستعينوا في دولتهم بأحد منهم، وكان الحجاج واليهيم على العراق يأمر ألا يؤم الناس بالكوفة إلا عربي، وكانت فرق الفرس في جيوش بني أمية تتألف من العرب، أما الموالي فلم يكن يسمح لهم إلا بالانخراط في فرق المشاة. وقد منع الأمويون زواج الموالي من العربيات، وأبطلوا ما وقع من أمثال ذلك الزواج.
 من أجل ذلك حقد الموالي وخاصة الفرس على الأمويين وناصروا العباسيين وكانت لهم اليد الطولى في قيام دولتهم.

ومما ساعد على اضمحلال النفوذ العربي ماثارين القبائل العربية من تعصب وخصومات نفخ الأمويون في نارها وزادوا من حدتها كى يستتب لهم الأمر ولا ينازعهم

أحد في الخلافة، ومادروا أنهم بهذه السياسة الحمقاء إنما يحفرون قبر دولتهم بأيديهم وينسجون أكفانها بأنوالهم.
 وبسبب ذلك لم يجد أبو مسلم الخراساني صعوبة في التغلب على العرب في خراسان بعد أن أوجع نيران الخصومات بين القبائل العربية وجعلهم يفنون أنفسهم بأيديهم.
 وكان الشعراء يؤججون نار الانتقام في نفوس العباسيين، دخل «سديف» الشاعر مولى بني العباس على السفاح وسليمان بن هشام الأموي مطمئن في مجلس الخليفة الذي منحه الأمان، فأنشد:

لا تَغُرَّكَ مَاتَرَى مِنْ رَجَالٍ (١)
 إن بين الضلوع داءً دويلاً
 فضع السيف، وارفع السوط حتى
 لا ترى فوق ظهرها أموياً
 فنكت السفاح بعنقه، وأمر من فوره بقتل سليمان.
 ودخل «شبل بن عبد الله» وهو من موالى بني هاشم على السفاح أو على عمه وعنده من بني أمية نحو المائة فأنشد: (٢)

أصبح الملك ثابت الأساس
 طلبوا وتر هاشم فشفوها
 بعد مئيل من الزمان وياس
 لا تقيلن عبد شمس عثاراً
 واقطعن كل رقلة وغراس
 ذلها أظهر التودد منها
 وها منكم كحز المواسي
 ولقد ساءني وساء قبيلي
 قرهم من غارق وكراسي
 أنزلوها بحيث أنزلها الله
 بدار الهوان والإنفاس

فأمرهم جميعاً فقتلوا. وهكذا خلاص الملك لبني العباس، وإلى هذا الحد وصل تأثير الموالي على ملوكهم وأمرائهم، فسبحان الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ١٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٩.

امتزاج العرب بالعجم وآثاره

فتح المسلمون الأرض، وورثوا ملك كسرى وقيصر، فأقامت جيوشهم في البلاد المفتوحة، وهاجرت إليها قبائلهم، واختلطوا بسكانها الأصليين وعاشروهم. ودخل كثير من أهل هذه البلاد في الإسلام، وتعلموا اللغة العربية، واتصلوا بالعرب في السكنى والمعيشة والتجارة وسائر شؤون الحياة وتزوج العرب منهم فنشأ جيل من المولدين.

وبعد أن كان العرب في العصور السابقة هم السادة والحكام، عمد الخلفاء في هذا العصر إلى الأعاجم فقرّبوهم ووضعوا في أيديهم مقاليد الأمور.

ومجمل القول أن سياسة العباسيين هذه أدت إلى امتزاج العرب بالعجم امتزاجاً شديداً ترك آثاره البعيدة في السياسة والاجتماع والأدب.

أثر الامتزاج في الحياة السياسية:

أصبح للفرس حظوة كبيرة في قصور الخلفاء فقد كان الخليفة عربياً هاشمياً ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسين، يزد يد سلطانهم ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالى في الدولة حتى كان أكثر من تولى الأعمال في زمن المنصور منهم.

وفي عصر الرشيد جاوز نفوذ الفرس الحد حين سيطر البرامكة على كل شأن من شؤون الدولة، وكل مرفق من مرافقها مما أدى إلى تنبه الخليفة فعمد إلى التنكيل بهم والقضاء على سلطانهم سنة ١٨٧ هـ.

وكان المأمون محباً للفرس لأنهم أخواله وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة وانتزاعها من يد أخيه الأمين.

وكان نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد مظهراً من مظاهر النفوذ الفارسي. وقد نقل الخلفاء النظام الكسروي إلى دواوين الدولة والجيش والقصور.

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة في عهد المعتصم كرههم وأبعدهم وقرب إليه أخواله الأتراك، وجعل منهم قواد جيشه وحجابه ومكّن لهم في الدولة وبنى لهم مدينة «سامراء» ولم يمض وقت قليل حتى صار لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة في عهد المتوكل. وقد ثاروا عليه وقتلوه وقتلوا معه وزيره «الفتح بن خاقان».

وقد صور الشعراء في هذا العصر قوة نفوذ الخلفاء وسعة سلطانهم فيما دجّوه فيهم من قصائد المديح.

يقول عمرو بن سلم الخاسر في المهدي وسياسته: (١)

إنَّ الخلافَةَ لم تكن بخلافَةٍ حتى استقرت في بني العباسِ
شُدَّت مناكِبُ ملكهم بخليفةٍ كالدهر يخلط لينه بشماسِ

ولروان بن أبي حفصة في تصوير عظمة الرشيد ومنزلته: (٢)

وُسِّدَتْ بهارون الشغور فأخكِمتَ به من أمور المسلمين المرائرُ
وكلُّ ملوكِ الروم أعطاهُ جزيةً على الرغم قسراً عن يدٍ وهو صاغِرُ
ترى حوله الأملاكُ من آل هاشمٍ كما حَفَّت البدرَ النجومُ الزواهرُ

وكان الخلفاء يؤثرون الشعراء وخاصة الموالى منهم، فكانوا يقبلون شفاعتهم، ويتقبلون إساءتهم، ويغضّون أنظارهم عن أذاهم، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من هجاء، ولقد قيل إن «دعبلًا» الشاعر هجا المأمون وفخر عليه بقوله: (٣)

ايسومني المأمون خطة عاجزٍ أوما رأى بالأمس رأسَ مُحَمِّدٍ
إني من القوم الذين سيوفُهم قتلت أخاك وشرفتكَ بمقعدي
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الأوهدي

وقد دخل أبو سعد الخزومي على المأمون وأنشده هذا الهجاء، وقال له: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيبك برأسه، فقال له: لا، هذا رجلٌ فخر علينا، فافخر أنت عليه، فأما قتله بلا حجة فلا. وأضاف المأمون قائلاً: «قاتل الله دعبلًا، متى كنت خاملاً وفي حجر الخلافة ولدت، ويدرّها غذيت، وفي مهدها ربيت».

(١) الأدب العربي ظلال الأمويين والعباسيين ص ٢٣٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣٥.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٣٩.

أثر الامتزاج في الحياة الاجتماعية:

اقتبس العرب العادات الفارسية في كل ناحية من نواحي العيش. وقد كثرت الجوارى والقيان وازداد عدد الغلمان في قصور الخلفاء والكبراء. وفي عهد المعتصم شطبت أسماء العرب من ديوان الجند فاندمجوا في غمار العامة، وتكسبوا بالزراعة وبغيرها من الحرف، وضعفت فيهم الروح العربية، وتقاربت ميولهم ونزعاتهم مع ميول ونزعات غيرهم من الشعوب. وتشابهت الأخلاق والعقائد وأنماط التفكير والعادات، وقويت وشائج المودة والمحبة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وتوثقت عرى التعاون والإخاء بينهم. وقد انتشرت العادات الفارسية في الطعام والشراب والسكنى وفي اللهو والغناء والاحتفال بالأعياد الفارسية، وذاع اللعب بالشطرنج والنرد، والخروج إلى المنتزهات، ومحاكاة الفرس في مآذهم وتزيينها بالزهور والرياحين وفي تنسيق البيوت وإعداد الحجرات، وانتشرت الأزياء الفارسية، وكثر الترف والإقبال على الملذات، وأولع الناس بالغناء وتفننوا فيه وأبدعوا في ألحانه، وجددوا في آلاته، واكثروا في مجالسه من الملح والعبث والشراب.

وقد غصت بغداد بأصحاب الثراء حتى قال فيها بعض الشعراء:

أعانيبت في طول من الأرض والعرض كبغداد داراً؟ إنها جنة الأرض
صفا العيش في بغداد واخضر عودُهُ وعيشٌ سواها غير صاف ولا غصَّ
تطول بها الأعمار، إن غداها مريء، وبعض الأرض أمراً من بعض
أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيّقون بها ذرعاً لما يلاقون من شظف العيش وقسوة الحياة، حتى قال فيها شاعرهم:

تصلح للموسر لا لامرئ يبيت في فقر وإفلاس
لوحلها قارون ربّ الغنى أصبح ذا همٍّ ووسواس

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ١٤٣.

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٣.

وكان التباين بين طبقتي الخاصة والعامة شديداً جداً، فالنفوذ والثراء وحياة اللذة والنعم حظ المترفين، ولغيرهم الشقاء الدائم والهم المقيم.

وقد صور أبو العتاهية غلاء الأسعار في بغداد تصويراً رائعاً في قوله:

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِ الإِمَامِ نصائحاً متواليّة
إني أرى الأسعـمـارَ أسعار الرعيّة غاليّة
وأرى المكاسب نـزـرة وأرى الضرورة فاشيّة
وأرى غـمـوم الدهـر رائحة تُـمـرّ وغـاديّة
مَنْ لِلْبَطُونِ الجائعات وللجـسـوم العـاريّة؟!
يا ابنَ الخـلائف لافـقـدت ولا عـدمت العـافيّة
ألقيتُ أخـباراً إليـك عن الرعيّة شافيّة

ونتيجة للامتزاج اكتسب العربي بسطة في الجسم وسلامة في البدن، فنشأ جيل من المولدين يحمل طابع العرب وخصائص العجم، ويمتاز أبنائه بوفرة الجمال وتنوع المواهب. وبفضل هذا الامتزاج اتسعت الثقافة وتضج التفكير، ودقت الأقفام، ومال الناس إلى الفنون والآداب والعلوم وازدادت العناية بالترجمة، وأخذ العرب ينشئون المدارس وخزائن الكتب، ودور الحكمة.

وإلى جانب هذه الآثار الإيجابية ظهرت في المجتمع الإسلامي آثار سلبية كالعبث والمجون الفساد والإلحاد والزندقة التي حارها كل من المهدي والرشيدي حرباً لا هوادة فيها ولا مهادنة.

وقد أقبل الناس على مجالس اللهو والشراب والغزل بالمذكر، وانتشرت الرشوة والخلاعة، وكان للجوارى والقيان أثرهن الواضح في هذا المجال. وقد تخلص العرب من عنجهية البداوة، وحمية العصبية، وخشونة الطباع، وأصبح العربي لين العريكة، دمث الأخلاق، موطأ الأكناف.

وخلاصة القول أن هذه الظواهر العديدة الناشئة عن الامتزاج أدت إلى تنوع الحياة الاجتماعية واصطبغها بصبغة الحضارة والمدنية والتجديد.

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ١٤٣.

أثر الامتزاج في الحياة الأدبية:

أدى امتزاج العرب بالعجم إلى تهذيب الأفكار، وصقل الأخيلة ونضج الثقافة وتجويد ألوان الكلام شعره ونثره.

وقد نشأت فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة، وأغرق الشعراء في وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر. وقد تطور الوصف ونما نمواً واضحاً وتقن في الشعراء حتى أتوا بكل ما يبعث على الدهشة والإعجاب.

هذا هو البحرى يصف الربيع وصفاً رائعاً فيقول^١:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبتة النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوماً
يفتقها برد الندى فكأنه يبت حديثاً كان قبل مكنما
فن شجرة الربيع لباسه عليه كما نشرت شيئاً منمنا
أحل فابدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الرياح حتى حسبه يجيء بأنفاس الأحبة نغما

وقد ورث العرب في هذا العصر غزارة المعنى ودقته، وعمق الفكرة وتسلسلها وحسن الاستقصاء وكثرة الاستطراد وبراعة التحليل وقد طالت القصائد العربية ولجأ الشعراء والأدباء إلى المبالغة والتهيل والغلو الشديد في إيراد المعاني واختراعها، كما كثرت الحكم والأمثال والتعليقات العقلية في الشعر والنثر، واستحدثت ألفاظ جديدة في اللغة.

وقد أحدث هذا الامتزاج أثراً سلبية أيضاً حيث شاع اللحن، وتفشت العجمة، وأصبحت الألسن باللكنة مما أدى إلى امتناع النحاة واللغويين عن الاستشهاد بشعر الشعراء في هذا العصر.

الترجمة في عصر نفوذ الخلفاء

لم يترجم العرب قبل العصر الأموي شيئاً من كتب الأمم الأخرى، وفي العصر الأموي ترجم «ماسرجويه» اليهودى طيب مروان بن الحكم كتاباً في الطب، وقد ترجم خالد بن

(١) ديوان البحرى - المجلد الأول ص ١٤٥.

يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٩ هـ بعض كتب الطب والكيمياء والنجوم. وفيما عدا ذلك لم يترجم في العصر الأموي من كتب الأقدمين شيء ذو بال.

وفي العصر العباسى نشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع الخلفاء وإغداقهم العطايا على المترجمين حتى أصبحت من أعظم الأحداث الفكرية في تاريخ الأمة الإسلامية وكان لها أكبر الأثر في مسيرة الحضارتين الإسلامية والإنسانية. وإذا شئنا أن نبحث عن العوامل التي أدت إلى ازدهار حركة الترجمة فإننا سنجد أنها تلتخص فيما يلي:

أولاً: اتساع الحضارة والمدنية مما استوجب تشجيع العلوم والآداب والاهتمام بها من قبل الحكام والمسؤولين.

ثانياً: رغبة العلماء المسلمين في استخدام الفلسفة والمنطق للدفاع عن الدين الإسلامى بعد ظهور البدع والزندقة والفرق الإسلامية المتعددة.

ثالثاً: الإحساس بضرورة نقل هذه العلوم إلى اللغة العربية التي أصبحت اللغة السائدة في جميع الأمصار الإسلامية.

وقد مرت الترجمة في هذا العصر في ثلاثة أطوار هي:

الطور الأول: من خلافة المنصور سنة ١٣٦ هـ إلى نهاية عهد الرشيد سنة ١٩٣ هـ، فقد عنى المنصور بترجمة العلوم عناية فائقة وخاصة كتب الطب والهندسة والنجوم. ومن أشهر مترجميه نوبخت الفارسي وأولاده، وإبراهيم الغزاري، وجورجيوس بن بختيشوع السرياني وعبدالله بن المقفع.

وقد توقفت حركة الترجمة مدة لا تقل عن اثني عشر عاماً هي عهد الخليفة «المهدى والهادى» اللذين شغلا عنها بمحاربة الزنادقة وأهل البدع والإلحاد.

فلما ولي الرشيد استأنف عنايته بالترجمة، واتخذ له ترجمة من السريان كآل بختيشوع وآل ماسويه.

وقد ترجم في عهده كثير من كتب الطب والنجوم والكيمياء وعلوم النبات والحيوان والخيال والفلسفة والأخلاق.

وقد أنشأ الرشيد دار الحكمة التي ضمت كثيراً من الكتب النفيسة في مختلف اللغات.

وقد أعيد في عهده ترجمة الكتب التي كانت قد ترجمت في عهد المنصور.

ومن أهم الكتب المترجمة في هذا الطور: كتاب «كليلة ودمنة» وكتاب «السند هند»، وبعض كتب أرسطو في المنطق، وكتاب «المجسطى» في الفلك.

الطور الثاني: ويبدأ من حكم المأمون سنة ١٩٨ هـ وينتهي سنة ٢١٨ هـ. وكان المأمون عالماً واسع الثقافة كثير الاطلاع، فاهتم بالترجمة اهتماماً عظيماً وأوفد في سبيل ذلك الرسل إلى ملوك الروم ليأتوه بعلوم اليونان، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمة. ويقال إنه كان يعطى وزن ما يترجم إليه من كتب ذهباً. وقد نحا الأمراء والوزراء منحى خليفتهم في تشجيع الترجمة والمترجمين فوفد على بغداد عدد كبير منهم.

وقد بلغ من عناية المأمون بالترجمة أن جعل من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل له هذا مجموعة من الكتب النادرة.

الطور الثالث: ويبدأ من خلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ وينتهي بمصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ.

وفي عهد المعتصم فترت حركة الترجمة إذ لم يكن لهذا الخليفة نصيب يذكر من العلم أو رغبة في المشاركة فيه. وجاء بعده الواثق، فعادت الحياة إلى الترجمة، وإن كان أكثر ما ترجم في عهده هو كتب السحر والخرافات. وفي عهد المتوكل تمت ترجمة كثير من العلوم النافعة كالطب والنجوم والنبات. وكان المتوكل رحمه الله آخر من أزر حركة الترجمة وشجع عليها من الخلفاء.

أشهر المترجمين في هذا العصر

عرف هذا العصر عدداً كبيراً من المترجمين الذين نقلوا عن اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والهندية، والعبرية والكلدانية وغيرها. ومن أشهر المترجمين عن اليونانية: الحجاج بن يوسف بن مطر وقسطا بن لوقا البعلبكي، وموسى بن شاكر وأولاده الثلاثة محمد وأحمد والحسن. ومنهم آل حنين وأولهم حنين بن اسحق العبادي، وهو من نصارى الحيرة وابنه اسحق. ومنهم جبيش الدمشقي وآل بختيشوع وهم سريانيون.

ومن أشهر الكتب التي ترجموها: كتاب السياسة وكتاب الأخلاق لأرسطو، وكتب جالينوس وإقليدس وأصول الهندسة وفلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس. أما أشهر من ترجم عن الفارسية فهم: عبدالله بن المقفع وآل نوبخت والحسن بن سهل وجبله بن سالم واسحق بن يزيد وهشام بن القاسم وسواهم. وأشهر ما ترجموا من كتب عن هذه اللغة، كليلة ودمنة وكتاب خدينامة، وهو في سير ملوك الفرس، وكتاب الأدب الكبير، وكتاب الأدب الصغير، والدرة اليتيمة، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان. وكلها من ترجمة عبدالله بن المقفع. ومنها: عهد اردشیر، وتوقيعات كسرى، وهزار أفسانه وهو أحد أصول كتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب أدب الحرب وغير ذلك من نفائس المؤلفات الفارسية. وأما أشهر المترجمين عن الهندية فهو صالح بن بهلة الهندي، وقد ترجم إلى العربية كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب بيدبا في الحكمة. أما كتاب السندهند وهو في الفلك فقد نقله عن الهندية محمد ابراهيم الفزاري.

العزوف عن ترجمة الأدب اليوناني وأسبابه

أقبل العرب على ترجمة فلسفة اليونان وحكمتهم، ولكنهم عزفوا عن ترجمة آدابهم على الرغم من أن الأدب اليوناني حافل بنفائس المصنفات في الأساطير والملاحم والتثيليات. ولعل هذا العزوف راجع لسببين: الأول: اعتزاز العرب بآدابهم واحتقارهم آداب اليونان إيماناً منهم بأنهم أوفر الأمم حظاً وأعلامهم شأناً في مجال الأدب. الثاني: امتلاء الأدب اليوناني بالحديث عن آلهتهم الوثنية ووصفها وكرهية العرب للوثنية ولكل ما يذكركهم بجاهليتهم بعد أن أعزهم الله بالإسلام.

موقف العرب من الأدب الفارسي

وقف العرب من الأدب الفارسي موقفاً مغايراً لموقفهم تجاه الأدب اليوناني فقد أقبلوا على ألوان من الأدب اليوناني وترجموها وذلك لسببين:

الأول: قرب الأدب الفارسي من الذوق العربي لأن ما بين العرب والفرس من صلات وجوار كان أكثر وأوثق من تلك التي كانت بينهم وبين اليونان.

الثاني: براءة الأدب الفارسي من ذكر الآلهة الوثنية، بخلاف الأدب اليوناني الذي حفل بذلك.

أثر الترجمة في لغة العرب

كانت الترجمة وسيلة لنماء ثروة اللغة العربية في الألفاظ والأساليب. فقد عرب المترجمون كثيراً من الأسماء الأعجمية لتنهض اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة. ووضع المترجمون كثيراً من المصطلحات الجديدة لقواعد العلوم، كما توسعوا في مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية وما شاكلها.

وفما يتعلق بالأساليب فقد هذبت العلوم المترجمة كالمنطق والفلسفة أفكار الكتاب والشعراء ومعانيهم، وغيّرت نظرهم إلى الأشياء، فظهر العمق والترتيب العقلي، وقل الوقوع في الأخطاء الفكرية، وأصبح في إمكان الأدباء أن ينتقلوا من المقدمات إلى النتائج بطريقة صحيحة، فضلاً عن نشوء علوم جديدة كان لها أبعاد الأثر في إمداد اللغة والأدب بمعين ثمر من مفردات اللغة وأساليبها.

وقد تركت حركة الترجمة بعض الآثار السلبية في اللغة والأدب، حيث كثر استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة الذين يبالغون في استخدام أفعال الكون، والأفعال المبنية للمجهول، والمصادر الصناعية، كالكيفية والذاتية والعرضية والماهية والحيوانية والإنسانية ونحوها. كما أكثروا من الفصل بضمير الغائب في الجمل، وقد أدى ذلك إلى صيغ الأساليب العربية بصيغة أعجمية غير مستساغة.

وقد شاعت الأساليب العلمية، وأصبح لكل علم لغة تأليفية لها رموزها ومعانيها وألفاظها ومصطلحاتها. وقد أدى ذلك فيما بعد إلى وضع معاجم خاصة ببعض العلوم مثل: كليات أبي البقاء، وكشاف اصطلاحات الفنون وكتاب التعريفات للجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ. (١)

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ١٦٤، ص ١٦٥.

تولد العامية وتعددتها

كان اللحن حتى نهاية العصر الأموي قليلاً محدوداً لسلامة الملكات، وعناية الخلفاء والأمراء بمقاومته والعمل على وضع الإعجام والشكل وأصول النحو (١) وفي العصر العباسي زاد انتشار اللحن لكثرة المولدين، وعظمت بلواه بانتشار الحواضن والمربيات والخدم والجواري الأعجميات في البيوت والقصور. واضطر الخلفاء إلى تأديب أولادهم على أيدي شيوخ اللغة وأئمتها وفحولها، ومع ذلك فلم يكذب يسلم أحد من اللحن.

وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بُذلت لصدد تيار اللحن الجارف، فقد تولدت نتيجة له لغة استخدمها العامة للتفاهم والتخاطب بها، ثم تابعهم عليها الخاصة. وقد استفحل خطر العامية في أقاليم الدولة الإسلامية واشتد، حتى أصبح لكل قطر إسلامي عاميته الخاصة به.

ويرجع السبب في اختلاف اللغات العامية وتعددتها إلى مايلي:

أولاً: اختلاف الشعوب التي امتزج بها العرب في الأقطار الإسلامية، فكان لكل شعب منها لغته الوطنية التي يتكلم بها قبل أن يتعلم الحديث بالعربية، فلما تعلمها سرى إليها كثير من ألفاظ لغته القديمة وأساليبها.

ثانياً: تفاوت درجة اختلاط هذه الشعوب بالعرب، فكلما قل الاختلاط بعدت العامية عن اللغة العربية، وكلما قوى زادت المداخلة بين اللغتين.

ثالثاً: تفاوت المسافة بين الأقاليم المفتوحة وشبه الجزيرة العربية — موطن الفصحى الأول — حيث كان خطر العامية في الأقاليم القريبة منها أقل منه في الأقاليم البعيدة عنها.

رابعاً: مجاورة العرب للأعاجم، والمجاورة تفسد الملكة، وتجور على الألسنة فعامية العراق تأثرت إلى حد كبير بالفارسية، وهى في الشام أكثر تأثراً بالرومية، وفي بلاد المغرب بالبربرية وهكذا...

وقد بقيت الفصحى لغة التخاطب في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية حتى أواسط القرن الرابع الهجري، حيث بدأ الفساد يدب إلى ألسنة أهلها كما دب إلى ألسنة إخوانهم في سائر الأمصار الإسلامية (٢)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الأول - جرجي زيدان ص ٢٥٠ - ص ٢٥٦.

(٢) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ١٨٠ - ص ١٨٤.

مجالس الشعر والأدب

ورث العباسيون حب الشعر عن أسلافهم، فأجلوا الشعراء ومجدوهم، وأحلوهم من أنفسهم منزلة تليق بهم وبفهم الرفيع. ولم يكتفوا بسد حاجتهم، بل غمروهم بالعطايا والهبات، وأغرقوهم في الترف والنعم.

وكان للخلفاء والأمراء والوزراء ولغيرهم من رجال الفن والأدب مجالس يتجادلون فيها أطراف الحديث. وكان الشعراء والأدباء زينة هذه المجالس، وكان الشعر الجيد، والقول البليغ والطرائف الحسنة والنوادر الممتعة والزوايا الغريبة هي البضاعة التي يتداولونها في هذه المجالس.

وكان الذين يغشون هذه المجالس ويدامون على حضورها يعلقون على ما يسمعون وينقدونه، فيستجيدون جيده، ويستهجنون رديئه، فكانت مجالسهم هذه متعة للنفوس والأرواح، وغذاء للعقول والمشاعر.

واليك أمثلة لما كان يدور في بعض هذه المجالس في هذا العصر:

عقد المهدي يوماً مجلساً لمروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس. وكان مروان ممن انقطعوا لمدح العباسيين ومناصرتهم.

فلما اكتمل عقدهم طلب إليهم أن ينشدوا من شعره فأنشده قوله:

كان أمير المؤمنين محمداً لرافته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم سقت به الموت الحتوف الرواصد
فأشار إليه الخليفة أن حشبك، فأمسك، وقال المهدي مخاطباً وجوه قومه: «يا بني العباس، هذا شاعركم المنقطع إليكم، المعادي فيكم، فأتوه مايسره» فأعطاه موسى الهادي ابنه خمسة آلاف درهم، وأعطاه هارون الرشيد مثلها، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله، وأعطاه الخليفة ثلاثين ألف درهم، ثم قال له، وسيأتيك مني ما يؤدبك إلى الغنى، فقال مروان: قد رأيت من قبلك وبشرك وسرورك بما سمعت مني ما سأزداد به شعرا.

ودخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يضاحك المأمون فقال «اللهم زده وبسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه مقصراً عن غده» فقال الرشيد: يأسهل، من روى من الشعر أحسنه وأجوده، ومن الحديث أصحّه وأبلغه، ومن البيان

أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لم يعجزه.. قال سهل: يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمني إلى هذا المعنى. فقال الرشيد: بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتُك أمس خير بني لؤي وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس
 واجتمع الشعراء في مجلس المعتصم فقال لهم من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النيرى في الرشيد:

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأة فالله رافعه ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس بالصلوات الخمس ينتفع
فليقل. فقال محمد بن وهيب الحميري: فينا من يقول خيراً منه، وأنشد:

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الإشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدري يحكيه في الظلماء منبلجاً إذا استنارت لياليه به الغرر
فهش له وبالغ في جائزته.

الشعبية وأثرها في الشعر

الشعبوية نزعة عنصرية ذرت بقرنها في العصر الأموي نتيجة لتعصب الأمويين لكل ماهو عربي، واحتقارهم لكل ماهو أعجمي.

وقد أدى ذلك إلى ظهور جماعة من شعراء الموالى أضرموا العداوة للعرب فابتدعوا غرضاً جديداً من أغراض الشعر، قوامه الطعن على العرب والاعتزاز بالأعاجم وخاصة الفرس، والإشادة بمحضارتهم.

وقد استفحل خطر هذه النزعة في العصر العباسي، وجاهر شعراء الموالى بعدائهم للعرب محتمين بتقريب الخلفاء لهم وبإحساسهم بأن هؤلاء الخلفاء مدينون لهم بإقامة دولتهم. وقد أفاد هؤلاء الشعراء من صلة النسب أو صلة الرحم التي كانت تربط بعض الخلفاء بالأعاجم فبالغوا في إبداء العداوة للعرب وهجائهم. وأصبح الشعراء يقولون في هجاء العرب ما يشاءون غير مبالين بقوه، أو خائفين من سطوة.

وقد أطلق لفظ الشعوبية في بادئ الأمر على المساواة بين الشعوب، ثم لم يلبث أن أطلق على تفضيل العجم على العرب والتعصب عليهم.

وقد عرّف بعضهم الشعوبية بأنها نزعة تغلّغت في صدور جماعة من الموالى الذين دخلوا في الإسلام، وخضعوا لسلطان العرب قوامها اعتقادهم بأنهم أركى من العرب نسباً، وأطيب منهم عنصراً، وأعرق منهم حضارة ومدنية.

ومن الشعر الشعوبى قول أبى نواس في السخرية من العرب ومن تقاليدهم الشعرية واحتقاره لهم: (١)

عاج الشقى على رسم يُسائله وعجبتُ أشألُ عن خمارِ البلد
يبكى على ظلال الماضين من أسدٍ لا دُرَّ دُرَّكُ قُلْ لى: مَنْ بنو أسد؟
وَمَنْ تميم؟ وَمَنْ قيسٌ وَلَقُهما؟ ليس الأعرابُ عندَ الله مِنْ أَحَدٍ
ومنه قول أبى إسحق المتوكلى يتشقى من بنى هاشم ويُعيرُهم ويتوعدهم ويفخر بالعجم وبانتمائه إليهم: (٢)

أنا ابنُ الأكارم من نسلِ جَمٍّ وحائزُ إرثِ ملوكِ العَجَمِ
ومُحيى الذى باد من عِزِّهم وَعَفَى عليه طوالِ القَدَمِ
وطالبُ أوتارهم جَهْرَةً فَمَنْ نام عن حقهم لم أنم
فُقل لبنى هاشمٍ أجمعينَ هَلُّمُوا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوةً بالرِّماح طعنأً وضرباً بسيفِ خذم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضبابِ ورعى الغَنَمِ
وقد كانت هذه القصيدة سبباً في غضب الخليفة المعتمد عليه وقتله.

النقد الأدبي

بدأ النقد في الجاهلية في صورة أحكام عامة يضمنها الناقد استحسانه للبيت، أو استهجان له. ولم يكن النقد في ذلك العصر قادرين على الإمعان في بيان العلل وذكر الأسباب، ولا أن يسهبوا في شرح المآخذ وتعليل العيوب، وإنما هي لمحات منبعثة عن غريزة الرضى أو السخط يضمنونها هذه الأحكام.

(١) ديوان أبى نواس ص ٥٧ - دار مكتبة الثقافة العربية - بغداد.

(٢) الأدب العربى في ظلال الأمويين والعباسيين ص ٣١١.

وفي عصر صدر الإسلام صار النقد يقدمون الموضوع أو يؤخرونه على مقدار جلاله أو ضعته، أو جده أو هزله، أو صدقه أو كذبه.

وفي العصر الأموى اتجه النقد إلى الدقة والتحليل والاستقصاء فتناول أوزان الشعر ومعانيه وألفاظه وأخيلته.

وفي العصر العباسى شرع النقد يقدمون نقداً يتصل بكل ناحية من نواحي الشعر، فقد نقدوا ضبط الشعر وبنية الكلمات وإعرابها وقوافي الشعر وأعارىضه ومعانيه وأخيلته، ومدى ارتباطه بمن نسب إليه ومعرفة صحيحه من منحوله.

وقد أستهجن بعض النقاد طرائف الأقدمين من الشعراء وسخروا من أساليبهم وصورهم، ووجدت طائفة أخرى من النقاد جعلت همها لمز المحدثين فأخذوا يعيبون أشعارهم لالشيء إلا لحداثتهم، وراحوا يفضلون عليهم المتقدمين لالمزية سوى قدمهم وسبقهم الزمنى.

ثم ظهرت طائفة أخرى عمدت إلى نقد الشعراء في مجموع أشعارهم وجملة أوصافهم ومذاهبهم وتاريخهم وبيان مزالقيهم، ووضعهم من ثم في طبقات. وقد ألفت في ذلك مجموعة من الكتب مثل: الشعر والشعراء لأبى عبيدة، وطبقات الشعراء لابن سلام الجهمى، والشعر والشعراء لابن قتيبة.

وظهرت كتب استجاد أصحابها قصائد ذات طابع خاص مثل: المفضليات للضبي، والحماسة لابی تمام.

وفي القرن الرابع الهجرى ظهرت كتب في الموازنة بين الشعراء مثل: الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى، والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، والعمدة لابن رشيق وغير ذلك من الكتب التي لازالت تحظى بتقدير المحدثين من دارسى الأدب وأساتذته ومحبيه.

الرواية والرواة

اعتمد العرب في حفظ أشعارهم وخطبهم وأنسابهم وألوان معارفهم الأخرى على الذاكرة. وكان لهم عناية خاصة برواية الشعر لأنه سجل مفاخرهم وديوان مآثرهم ومجمع أحداثهم ووقائعهم وعلومهم. وكان لكل شاعر راية يلازمه ويحفظ شعره ويتكفل بإذاعته بين الناس.

ولما جاء الإسلام شغل العرب عن الرواية بالغزوات والفتوحات ونشر الدعوة. وفي العصر الأموي نشطت الرواية من جديد وانتعش رجالها بفضل تشجيع الخلفاء والولاة، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية الذين أخذوا يرحلون إلى البادية يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب، وينقلون عنهم ما ورثوا من تراثهم المجيد. وقد أحجم الرواة عن الأخذ عن القبائل التي كانت مجاورة للفرس والروم لاعتقادهم بعدم صفاء عربيتها لشدة اختلاطهم بالأعاجم.

وقد غنى بعض الرواة بحفظ الحديث الشريف وجمعه، ونقل قراءات القرآن وما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته في تفسير بعض آياته الكريمة.

واستمرت العناية بالرواية في العصر العباسي. ولما رأى الرواة مارأوه من تشجيع الخلفاء وجزيل العطاء تحرك الطمع في نفوسهم وقل اعتصامهم بالأمانة وتحري الدقة في الرواية والحرص على الصدق فيها فبدأوا يضيفون إلى الحق باطلاً وإلى الواقع خيلاً، وإلى الحادثة الواحدة أحداثاً وأحداثاً.

وإذا تحررنا الأسباب التي دفعت الرواة إلى الكذب والانتحال وجدناها منحصرة فيما يلي

- ١ - اتخاذ الرواية وسيلة للكسب مما دعا كثيراً من الأعراب إلى أن يفدوا على الحواضر يروجون فيها بضاعتهم، فكانوا إذا نفذ حفظهم عمدوا إلى الوضع والاختراع.
- ٢ - حرص الرواة على إرضاء أصحاب الجاه والسلطان دفعهم إلى اختراع ما يرضى غرورهم و يلامس أوتار العصبية في نفوسهم.
- ٣ - فسق بعض الرواة وفساد مروءتهم وجهم للكذب والاختلاق إما لشهوة في نفوسهم أو شفاء لداء يتغلغل في صدورهم، أو رغبة في إظهار السبق والتفوق.
- ٤ - اختلاط الأمر على بعض الرواة لكثرة ما يحفظون من الأشعار المتشابهة في الموضوعات والأوزان والقوافي.

وقد كثر الرواة في هذا العصر كثرة عظيمة، وكان من أشهرهم «حماد» الراوية وخلف الأحر، وأبو عمرو الشيباني، وأبو عمرو بن العلاء، والأصمعي، وأبو عبيدة معمر بن المثنى. وفي مقدمة من وسم بالكذب منهم «حماد» الراوية الذي أقر بحضرة المهدي وهو ولي

للعهد بما زاد من عنده في شعر زهير بن أبي سلمى، حتى أمر حاجبه بأن ينادى في الناس بإبطال رواية حماد.

ومما زاد في خطورة حماد قدرته العجيبة على تقليد أساليب الشعراء لعلمه بلغات العرب وتمكنه منها مما يجعل التمييز بين الصحيح مما يرويه وبين المتحول أمراً متعذراً. ومن الرواة الذين عرفوا بالكذب «خلف الأحمر» وقد اعترف بذلك بعد أن تنسك فلم يصدقه أهل الكوفة.

الغناء العربي وأثره في الشعر

لعل من العبث البحث عن أول من غنى في العرب من المغنين. ولم يكن الجاهليون يعرفون من الأدوات الموسيقية غير الدف والمزمار، وكان الغناء في البادية حذاء للإبل لا تصحبه أداة.

ولما جاء الإسلام حمل الناس على الجد والجهاد فقلت الدواعي للغناء وفترت الرغبة فيه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستحسن الغناء العف، قيل إنه مَرَّ بجارية وهي تتغنى في ظل فارع بقولها:

هَلْ عَلَيَّ وَحْكُمُ إِنَّ هَوْتُ مِنْ حَرْجٍ
فقال: لا حرج إن شاء الله.

وفي العصر الأموي ازدهر الغناء، وانتعشت سوقه، وراجت بضاعته، وكثر عشاقه، ووجد من أسباب النماء واللون التشجيع ماهياً له القوة والذبوع والتطور والانتشار. وكان الحجاز يبيته المحببة، ثم انتقل منها إلى حواضر الدولة الأخرى فاستمع الخلفاء والأمراء إلى المغنين والمغنيات.

وبدأ الغناء العربي في هذا العصر يتأثر بالألحان الفارسية والروحية فازداد جمالاً وتأثيراً في النفوس.

وفي العصر العباسي ارتقى الغناء وتغلغل في جميع الأوساط والبيئات حتى شغف به جميع الناس.

وقد بلغ من عناية العباسيين به أن أقبل بعض الخلفاء والأمراء على تعلمه وإجادته، ومن هؤلاء: إبراهيم بن المهدي وأبو عيسى بن الرشيد، وعبد الله بن الهادي، وعبد الله بن الأمين.

وقد أبدع المغنون في هذا العصر كثيراً من الألحان وانقسموا إلى فئتين، فئة تناصر القديم وتتعصب له، وأخرى تشايح الجديد وتدعو إليه. ولا شك أن هذه العناية بالغناء قد عادت على الشعر بالرواج والذيع والتعذيب والصقل، وأكسبته عذوبة في اللفظ ورقة في الأسلوب وروعة في المعنى، وصار الشعراء يتنافسون في تجويد الشعر حتى يتداوله المغنون ويقبلوا عليه. ومن أشهر المغنين في هذا العصر: إبراهيم الموصلي وابنه اسحق، وكانا على رأس المناصرين للمدرسة القديمة في الغناء. ومنهم: إبراهيم بن المهدي وأخته عليه واسماعيل بن جامع وهم من مؤيدي المدرسة الحديثة فيه.

الفنون الشعرية في عصر نفوذ الخلفاء

الشعر صورة المجتمع في كل بيئة، ومرآة الحياة في كل عصر، وسجل الأحداث في كل زمان. وإذا كان الشعر العربي في الجاهلية أنغام صبي وحماة فتوة وعواطف أثره، وفي الإسلام أناشيد جهاد وثوران عصبية وأطماع حياة، فقد اكتمل شبابه في صدر الدولة العباسية فأصبح عبث شباب وأغاني طرب ومظاهر ترف... (١) وقد تهيأ للشعر العربي في عصر نفوذ الخلفاء من أسباب الرقي والتطور والازدهار ما أثر في أغراضه وأساليبه وأوزانه ومعانيه وإليك نبأ هذا التأثير في كل عنصر من هذه العناصر.

أغراض الشعر

نظر شعراء العصر العباسي حولهم فوجدوا أن كثيراً من الأغراض الشعرية القديمة لم تعد ملائمة لأذواقهم ولا تتفق ومظاهر مدنياتهم وحضارتهم فهجروها ونبدوها، ولم يعودوا ينظمون فيها إلا على سبيل السخرية والاستهزاء. ومن هذه الأغراض: بكاء الديار ومناجاة الأطلال، وتتبع الآثار ونعت الناقة ووصف الصحراء ونحو ذلك مما يتعلق بحياة البادية. ولا يقدح في ذلك إخلاص بعض شعراء البادية للقديم واستمرارهم في النظم في هذه الموضوعات وفاء منهم للتراث العربي ومحافظة على عمود الشعر، أو إقدام بعض المنادين

(١) تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات - ط ٣٥ ص ٢٤٥.

بالتجديد على النظم فيها مجبرين كما فعل أبو نواس حين قال: (١)
أعز شعرك الأطلال والمنزل القفرا
فقد طالما أرى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مُسَلِّط
تضييق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة
وإن كنت قد جشمتني مَرَكِباً وعرا
وإلى جانب ذلك أكثر الشعراء من النظم في الأغراض التقليدية كالمديح والهجاء والغزل والرثاء والوصف والفخر والسياسة والزهد والحكمة ونحوها. وقد توسعوا في هذه الأبواب وطبعوها بطابع عصرهم. وبالإضافة إلى ماتقدم ظهر في هذا العصر فنون شعرية جديدة لم تكن موجودة من قبل.

منها:

١- الخمريات: لم يكن وصف الخمر وتحسينها والدعوة إلى معاقبتها بالشئ الجديد في هذا العصر، فقد تغنى الشعراء بها وبما تفعله في رءوس شاربها منذ أن وجد الشعر، وإنما الجديد فيه هو الإغراق في وصفها، والمبالغة في نعتها، والإسراف في تجميل صورتها والدعوة إليها، واستقلال القصيدة بها، أو استهلاكها بإطرائها بدلاً من ابتدائها بالوقوف على الدمن والبكاء على الأطلال، يتجلى ذلك كله في مثل قول أبي نواس: (٢)

ودار ندامي عطلوها وأدجوا
مساحب من جر الزقاق على الثرى
حَبَسْتُ بها صبحي فجددت عهدهم
وإني على أمثال تلك لحابس
أقنا بها يوماً ويومين بعده
ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية
حبها بأنواع التصاوير فارس
قرارثها كسرى، وفي جنباتها
مها تدرها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلائس

(١) ديوان أبي نواس ص ٨٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٢٤.

٢ - الهجاء والمجون: انساق الشعراء في هذا العصر في ميدان الهجاء كغيرهم فظهر في شعرهم السياسي، وتحلى في تعصبهم القبلي، وأعلنوا عنه في أحقادهم الشعبية، وأضافوا إلى ذلك كله لوناً لم يدع إليه سبب، وإنما كان السبب في ظهوره مجرد الرغبة في السخرية والتنزدر والتهكم، إزجاء للفراغ، وإظهاراً للبراعة في التقييد وتوليد المعاني فيه. وهو أثر من آثار المدنية التي أدت إلى انتشار المفاصد، وذيوع المثالب، وكثرة الفجور، وضعف الوازع الديني، فوجد الشعراء في ذلك معيناً لا ينضب يستمدون منه ما يتندرون به في مجالسهم ويتفكهون به في منتدياتهم.

وقد شاع المجون، وانتشرت سمومه حتى تناول بعض الشعراء على مقام الخليفة. يقول بشار بن برد يهجو المهدي ويشير إلى تفرد وزيره يعقوب بن داود بتدبير الأمور: (١) بنى أمية هبوا طال نومكم ضاعت خلافتكم يا قوم فاتمسوا خليفة الله بين الزق والعود ويقول ابن الرومي في هجاء رجل أصلع يكنى أبا حفص: (٢)

ياصلعة لأبي حفص ممردة كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكناف بغداد
٣ - الزهد: وهورد فعل طبيعي للمجون والإباحية والزندقة، فن المعروف أن المغالاة في أمر تؤدى إلى ظهور أمر آخر مناقض له، وهذا ما حدث في العصر العباسي، فقد ظهرت طائفة من الشعراء الذين حملوا على الفساد، وشهروا بأصحابه، ودعوا إلى الاعتدال والزهد، والابتعاد عن الملذات، وحذروا من الدنيا وغرورها وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

وكان في طليعة هؤلاء أبو العتاهية وصالح بن عبد القدوس وأبان بن عبد الحميد وغيرهم. بل لقد أخذ الزهد يشق طريقه إلى قلوب الشعراء حتى رأينا يقتحم قلب شاعر خليج كأبي نواس الذي يقول مذكراً بالموت: (٣)

أخى ماباك قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقاً
ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله مابادوا لتبقى

(١) ديوان بشار بن برد ج ٣ ص ٩٣.

(٢) الأدب العربي في ظلال الامويين والعباسيين ص ٣٠٣.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٤.

ومالك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالاً ورزقا
ومالك غير ما قدمت زائد إذا جمعت إلى اللهوات ترق

ألفاظ الشعر وأساليبه

غمرت الحضارة الناس بزخارفها وزينت في هذا العصر حتى رأيناهم يتأنقون في كل شيء، وكان لابد للأدب عامة وللشعر خاصة أن يتأثر بهذه المدنية، وتلك الزينة، ولهذا رقت ألفاظه ولانت تراكيبه، وهجر الشعراء المفردات الغريبة، وخلت أساليبه من الابتداء بذكر الأطلال، وبكاء الديار، وبدأ الشعراء يعنون بالصناعة الشعرية، وأقبلوا على استخدام المحسنات البديعية، وشاعت في الشعر ألفاظ فارسية، كما شاعت فيه الاصطلاحات العلمية التي كانت تجرى على ألسنة العلماء.

أوزانه وقوافيه

أرجع الخليل بن أحمد أوزان الشعر العربي إلى خمسة عشر بحراً، وجعلها تلميذه الأخفش ستة عشر بعد أن أضاف إليها المتدارك، وراح الشعراء في هذا العصر يروجون الأوزان التي تناسب الغناء ومجزوءات البحور الطويلة. ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يخترعون أوزاناً جديدة أوحى بها اليهم مزاجهم أودعوا إليها فن الغناء. ومن هذه الأوزان قول مسلم بن الوليد: (١)

يا أيها المحمود قد شفقك الصدود
فأنت مستهائم حالفك السهو

وقول سلم الخاسر من أرجوزة يمدح بها موسى الهادي:
موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر
وقول أبي العتاهية:

للمننون دوائر يُبدرن صرفها
ثم ينتقينا واحداً فواحداً
وقوله في حبيبته عتب:

(١) الأدب العربي في ظلال الامويين والعباسيين ص ٢٦٠.

عُثِبُ مَالِ الْخِيَالِ خَبِيرِي وَمَالِي
لَا أَرَاهُ أَتَانِي زَائِرًا مُذْ لِيَالٍ
وقد روجع أبو العتاهية في ذلك وقيل له: إن ذلك مخالف للعروض، فقال: أنا أكبر من
العروض.

وقد زعم أبو العلاء المعري في كتابه «الفصول والغايات» أن شعراء هذا العصر قد
استحدثوا المقتضب والمضارع، وأن الخليل قد سجلها وليس لها أصل في الشعر العربي.
وقد استحدث الشعراء كذلك بحوراً أخرى استنبطوها من دوائر البحور المعروفة، وهذه
الأوزان هي: المستطيل والممتد والمتوافر والمتنث والمسرود والمطرود.
وقد أخذوا أوزاناً جديدة عن الفرس كالسلسلة والدوبيت كما اخترع البغداديون القوما
والموالي والكان كان، واخترع الأندلسيون الموشحات.

معاني الشعر وأخيلته

تنوعت معاني الشعراء في هذا العصر، واتسعت أفكارهم، وانفسح مجال أخيلتهم،
وجادت تشبيهاتهم واستعاراتهم، ولا غرابة في ذلك فقد كانوا يعيشون في مدن تحفل بمظاهر
الأبهة والترف، وتزخر بمختلف المشاهد والصور، فكان لا بد أن ينطبع شعرهم بطابعها، فقد
جددوا المعاني القديمة، وابتكروا المعاني الجديدة التي لم يسبقهم إليها أحد، وعمدوا إلى
الاستقصاء والتحليل وأبدعوا في التصوير والتحليق في الخيال، وظهر أثر الفلسفة والثقافات
المختلفة بجلاء في معاني الشعر ولجأوا إلى البراهين العقلية وحسن التعليل، وكثرت المبالغة
والتحويل والحكم والأمثال في قصائد الشعراء التي خلت من الاقتضاب والاضطراب في
السياق.

أشهر الشعراء في هذا العصر

١ - بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ^(١)

فارسي الأصل، ولد في البصرة، ونشأ فيها، ثم قدم بغداد بعد أن بناها المنصور. ولد
بشار أعمى جاحظ العينين يغشاها لحم أحمر، وكان طويلاً ضخماً، عظيم الجثة، أجدر

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان ج ٢ ص ٦٣.

الوجه، وكان أطبع شعراء عصره. وهو من أكثر الشعراء القدامى شعراً، ولكن لم يصلنا من
شعره إلا ديوان طبع في ثلاثة أجزاء. كان علوى الاتجاه على الرغم من مدحه للعباسيين.
وكان المهدي يظهر له فتوراً، فهجاه بشار بيتين هما:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزرق والعود
فبعث إليه المهدي صاحب الزنادقة فضربه حتى مات. ولم يش في جنازته أحد لأنه
مات والخليفة خصمه.

ومن شعره قوله في الحكم:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه
فعرش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة وبجانبة
إذا أنت لم تشرب مراراً على القدي ظئمت وأى الناس تصفو مشاربه

٢ - السيد الحميري

المتوفى سنة ١٧٣هـ^(١)

شاعر حميري الأصل، علوى الاتجاه، نزل البصرة وأقام فيها، يعلّمه المؤرخون في طبقة
بشار، امتاز عن شعراء عصره برفضه التكسب بالشعر. وقد نظم في ذلك أبياتاً يقول فيها:
أيها المادح العباد لتعطى إن الله مابأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارح نفع المقسم العواد
لا تقل في الجواد مالميس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

٣ - أبو نواس المتوفى ١٩٩هـ^(٢)

هو الحسن بن هانئ، ولد في الأهواز سنة ١٤٥هـ من أم فارسية، وأب دمشقي كان
جندياً في جيش مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. نقلته أمه إلى البصرة بعد وفاة أبيه
ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد وتوفى فيها. أسلمته أمه إلى عطار بالبصرة يشتغل عنده، ولكنه

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ص ٦٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨.

شغف بالعلم والشعر فكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء والأدباء ويحضر حوار الشعراء. صاحب والبة بن الحباب وعليه تخرج في الشعر. قدم بغداد وهو في الثلاثين، ومدح الرشيد ونال عنده حظوة. كان يقصد عمال الولايات فيمدحهم، ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر. وقد نادى الأمين ومدحه، وقد ثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة، ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة ١٩٩ ببغداد.

كان أبو نواس جميل الصورة خفيف الروح، حلوا الحديث حاضر البديهة، فصيح اللسان، ماجناً مدمناً للخمر، ونوادره في المجون مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه، إلا أن أكثرها ممدسوس عليه. كان يهوى جارية تسمى «جنان» وقد قال فيها الشعر، وله معها أخبار كثيرة.

كان ضليعاً في اللغة، راوية للشعر والأخبار، حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعريتين امرأة خلاف الرجال. وقد قال فيه الجاحظ: «مارأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس، ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه» ولج أبواب الشعر كلها، إلا أنه امتاز عن الشعراء بفحش مجونه، وصدقه في تصوير انفعالاته وبيئته، وقد أبدع في وصف الخمر، وأقل شعره منزلة مدائح. وقد قرنه الجاحظ ببيشار في المنزلة والطريقة فقال: «بيشار وأبو نواس معناهما واحد، والعدّة اثنان».

وكان أبو نواس ينقح شعره ويجوده، وهو على رقة شعره ومجونه جزل الألفاظ، فخم الأسلوب، كثير الغريب^(١) قال في عاقبة الجهالة والمجون:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا غصارة كل ذاك أقام
وقال في وصف الدنيا:
ألا كل حتى هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبیب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
ولأبي نواس أبيات جرت مجرى الأمثال، منها:

(١) تاريخ الأدب العربي - الزيات ص ٢٧٢ - ص ٢٧٦ بتصرف.

لا أذود الطير عن شجير قد بلوت المر من ثمرة
وقوله:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

٤ - مسلم بن الوليد^(١)
توفي سنة ٢٠٩ هـ

و يعرف بصريع الغواني، وهو من أبناء الأنصار، كان مداحاً محسناً، ومعظم مدائحه في يزيد بن يزيد وداود بن يزيد المهلبى، والبرامكة. ولاه المأمون بر يد جرجان، فلم يزل بها حتى مات. قيل إنه صاحب المدرسة الشعرية التي عول عليها أبو نواس وأبو تمام من بعده. وله ديوان مطبوع، وأخباره منبثة في الأغاني والعقد الفريد. ومن لطيف غزله قوله:

إذا التقينا منعنا النوم أعيننا
ولا نلائم نوماً حين نفترق
أقرب بالذنب منى لست أعرفه
كما أقول كما قالت فنتفق
وله في وصف الخمر من مطلع قصيدة يصف بها البحر والسفين:

أديرى على الراح ساقية الخمر ولا تسألني وأسأل الكأس عن أمرى
كأنك بي قد أظهرت مضمراً الحشا لك الكأس حتى أطلعك على سرى
وقد كنت أقل الراح أن يستفزني فتنتطق كأس عن لساني ولا أدري
ولكنني أعطيت مقودى الصبا فقاد بنات اللهو مغلوعة العذر
إذا شئت غاداني صبح من الهوى وإن شئت ماساني غبوق من الخمر

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٧٢ و ص ٧٣ بتصرف.

٥ - أبو العتاهية (١)

المتوفى سنة ٢١١ هـ

هو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ وهي قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة، كان يصنع جرار الفخار ويحملها في قفص على ظهره وبيعها في شوارع الكوفة، قال الشعر على سجيته، وقد روى عنه أنه قال: «لوشئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت»^(١).

وقد نقله شعره من بين الطين والماء والجرار إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء. وقد إلى بغداد في أول خلافة المهدي فحظي لديه، واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عتبة، وأكثر فيها الغزل، حتى همّ المهدي أن يهبها له لولا ضراعتها وكرهاتها له، فألهاه عن ذكرها بالمال الكثير، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرها في شعره. وبعد وفاة المهدي تغيرت أخلاق الشاعر فتزهد وتخشّن، وقد ألق عن قول الغزل في عهد الرشيد وقصر شعره على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت. ثم عرض له ما جعله يضرب عن قول الشعر البتة. فاراد الرشيد أن يكرهه على ذلك فأبى، فضربه ستين عصاً وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر. وكان بعد ذلك لا يفارقه. وقد تغنى المغنون بكثير من شعر أبي العتاهية وقد مات في أيام المأمون سنة ٢١١ هـ.

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له هيئة حسنة، وكان لبقاً، مذبذب الرأي، مقترأ على نفسه وأهله على الرغم من وفرة ماله وحسن حاله. وكان غزير الشعر، لطيف المعاني، سهل الألفاظ، مشرق الديباجة، قليل التكلف. وفي شعره كثير من الساقط المبتذل. وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال. وهو في الطبقة الأولى من المولدين.

له أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف بيت في الأمثال، وخير غزله ما قاله في عتبة، وأحسن مدائحه ما قالها في المهدي والرشيد. قال يتغزل في عتبة: (٢)

(١) تاريخ الأدب العربي للزيات ص ٢٦٨ - ص ٢٧٦ بتصرف.

(٢) ديوان أبي العتاهية ص ٣٨٦.

عيني على عتبة منهلة
كأنها من حسنها درة
كأن في فيها وفي طرفها
بسطت كفى نحوكم سائلاً
يامن رأى قبلي قتيلاً بكى
ومن قوله يعظ الرشيد: (١)

لا تأمن الموت في طرّف ولا نفيس
ولو تستترت بالأبواب والحرس
وأعلم بأن سهام الموت قاصده
لكل مُدّرع منا ومُتّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليابس
ومن لطيف معانيه قوله: (٢)

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكة
ألا إنما مالى الذي أنا منفق وليس لى المال الذي أنا تاركة

٦ - أبو تمام (٣)

توفى سنة ٢٣٢ هـ

هو عربي من طي^١، واسمه حبيب بن أوس الطائي. ولد بقرية جاسم من أعمال دمشق، ولما ترعرع غادرها إلى مصر، فكان يسقى الماء بجامع عمرو بالفسطاط ويستقي من أدب أدبائه وعلم علمائه. ولم يزل يحفظ الأشعار ويحاكي الشعراء حتى بلغ في الشعر منزلة لم يزاها فيها أحد من معاصريه. وقد اتصل بالمعتصم ومدحه فأجازه بتعيينه مسؤولاً عن يريد

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٣١٧.

(٣) يرى بعض المؤرخين أنه رومي الأصل وأنه طائي بالولاء. انظر «تاريخ الأدب العربي» لعمر فروخ ص ٢٥١

- ص ٢٦٨.

الموصل فوليه عامين، ثم انتقل إلى جوار ربه وقد نيف قليلاً على الأربعين. وكان أبو تمام اسمر اللون، طويل القامة، فصيحاً، حلو الحديث، وكان ذكي الطبع، حاضر البديهة، قوى الذاكرة. قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة عدا القصائد والمقطوعات. ولعل كتابيه: ديوان الحماسة وفحول الشعراء شاهدان على ذلك. يعده المؤرخون رأس الطبقة الثانية من شعراء المولدين. وقد عني في شعره بالمعنى أكثر من عنايته بالأسلوب، فكان أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكنائيات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد، وقد أكثر من استخدام الجناس والمطابقة، وقد غلبت الحكمة على شعره لتأثره بالفلسفة.

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً. وله غير ذلك كتابان هما: ديوان الحماسة وفحول الشعراء. وقد جمع فيها عيون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام. وقد أحسن الاختيار حتى قيل عنه: إنه في اختياره أبلغ منه في شعره. ومن بديع شعره قوله في الحب:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يعشقه الفقى
وحنيئاً أبدأ لأول منزل
ومن فرائده في الحكمة قوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيها جاورت
ما كان يعرف طيب عَرَفَ العود
وقوله:

ينال الفقى من عيشه وهو جاهل
ويكدى الفقى في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحصى
هلكن إذن من جهلهن البهائم
ومن روائعه في الوصف قصيدته في فتح عمورية. ومطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
وهي في نيف وسبعين بيتاً والاختيار منها يفسدها فليرجع إليها في الديوان.

وقد عرف عصر نفوذ الخلفاء عدداً كبيراً من الشعراء الذين لا يتسع المجال للترجمة لهم جميعاً ومن هؤلاء: دعلج الخزاعي وأبو دلامة، وحماد عجرد، ومروان بن أبي حفصة، وسلم الخاسر، ومنصور النمرى، وعلى بن الجهم، وحسين بن الضحاك، وأبان بن عبد الحميد، وابن منذر، والرقاشى، وأشجع السلمى، وديك الجن، ومطيع بن إياس، وأبو الشيص، والعكوك وصالح بن عبد القدوس، والعباس بن الأحنف، ومحمد بن بشير الرياشى، وكلثوم بن عمر العتابة وربيعه الرقى وغيرهم.

النثر في عصر نفوذ الخلفاء

نهض النثر الفنى في هذا العصر نهضة لم يسبق لها مثيل من قبل بسبب ما تهيأ له من حضارة ومدنية وتعدد في صور الحياة ومظاهر العيش وألوان الثقافة وغير ذلك من الدوافع والأسباب.

وقد انحصرت ألوان النثر الفنى في هذا العصر في الخطابة والكتابة الإنشائية والتوقيعات والروايات والقصص والمقامات. واليك نبذة موجزة عن كل لوم من هذه الألوان.

الخطابة

وهي من أقدم الفنون النثرية عند العرب، وقد واصلت مسيرتها الظافرة في هذا العصر، فتعددت أسباب نهوضها، وتنوعت مظاهرها، وكثرت ألوانها، فقد كانت الحاجة ماسة إليها في تثبيت أركان الدولة، وإقناع الناس بأحقية العباسيين في الخلافة ومجادلة الخصوم، وتهديد المعارضين، والتنديد بعهد بنى أمية الغابر وسياساتهم، وتحسيس الجند وتحريضهم على القتال، والتبشير بالفتوحات، والتهنئة بالانتصارات كما ظلت أداة للوعظ والإرشاد في أيام الجمع والأعياد. وكانت بالإضافة الى ذلك كله لسان الوفود التي ترد على دار الخلافة من سائر الأمصار.

خصائصها: امتازت بجمال الأسلوب، وفخامة اللفظ، والبعد عن الغرابة والإسفاف، وقوة التأثير، وروعة التصوير، والاعتماد على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والاقتياس منها، وقد امتلأت بأساليب الحجاج ومعاني الوعد والوعيد والتسفيه والتهديد.

أشهر الخطباء: من الخلفاء: السفاح، والمنصور، والمهدي، والرشيد والأمين، والمأمون. ومن رجال الدولة: جعفر الصادق، والفضل بن سهل، وجعفر البرمكي، وسهيل بن هارون، وطاهر بن الحسين وخالد بن صفوان وغيرهم.

من نماذجها: خطب أبو جعفر المنصور بالمداين بعد قتل أبي مسلم الخراساني، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (١):

«أيها الناس، لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تسروا غش الأئمة، فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثاره، وقللت لسانه، وصفحات وجهه، وأبداه الله لإمامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه.

إننا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه عليكم. إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبيئ هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا، وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحد عليه.

الكتابة الإنشائية

تنوعت الكتابة الإنشائية في هذا العصر، وتعددت موضوعاتها فمنها: (٢)

- ١ - الرسائل الإخوانية: وهي التي يتبادلها الأصدقاء في المناسبات الاجتماعية المختلفة كالتهنئة أو التعزية أو الشكر أو الشفاعة أو العتاب وما إلى ذلك من المناسبات.
- ٢ - الرسائل الأدبية: وهي رسائل مطولة يكتبها البلغاء ويسجلون فيها خواطرهم وآراءهم في شئون الحياة والاجتماع والفكر والأدب ونحو ذلك.
- ٣ - الرسائل الديوانية: وهي التي تصدر عن ديوان الرسائل في شأن من شئون الدولة، ويعتمد هذا النوع من الرسائل على التأنيق في العبارة وجمال الأسلوب، والبراعة في إظهار المعنى في صورة واضحة مقبولة.

(١) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ١٩٥ - ص ٢٠٠.

(٢) الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين ص ٢١١.

٤ - الكتابة العلمية أو «كتابة التدوين والتأليف» وهي تحفل بالاصطلاحات، وتعنى بدقة الفكر وترتيب المقدمات التي تؤدي إلى النتائج المطلوبة، وتعتمد على الحقائق، وتنأى عن التحويل والانطلاق مع الخيال والانسحاق وراء العاطفة. ومن أشهر كتّاب الألوان الثلاثة الأولى من الكتابة في هذا العصر: عبدالله بن المقفع، ويعقوب بن داود، وجعفر بن يحيى البرمكي، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة وسهل ابن هارون، والحسن بن وهب، وسواهم.

نماذج من الكتابة الفنية

من الرسائل الإخوانية:

كتب عبدالله بن المقفع يصف أحد أصدقائه، ويحث صديقاً آخر له على التحلي بأخلاقه والافتداء به:

«إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ماعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه. كان خارجاً من لسان بطنه، فلا يتشهى مالا يجده، ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطانه فرجه، فلا يدعو إلى ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدنأً، وكان لا يشر عند نعمه، ولا يستكين عند مصيبة. وكان لا يخرج من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يمارى فيما علم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً فإذا نطق نذ القائلين، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً، وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مرء، ولا يدل بحجة حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً..

وكان لا ينقم على الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها - ولن تطيق - ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع».

الرسائل الأدبية:

يمتاز هذا النوع من الرسائل بطوله ومن الأمثلة عليها: رسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

الرسائل الديوانية: من نماذجها: ما كتبه أبو اسحاق الصولي على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين على طاعته، وهي من الرسائل التي أغنت عن الجيوش، حيث عاد أهل حمص إلى طاعة الخليفة بعد وصولها إليهم.

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود، وعدل به من زيغ، ولم به من نشر، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض: أولاً: ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف، ثم التي لا يقع بحسم الداء غيرها.

أناء فإن لم تُغن عَقَبَ بعدها وعيداً فإن لم يُغن أغنت عزائمه أما كتابة التدوين والتأليف فإننا سنتحدث عنها وعن كتابها بشيء من الإسهاب والتفصيل، وذلك بعد حديثنا عن التوقيعات ثم القصص والحكايات.

التوقيعات

والتوقيع: عبارة موجزة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتاب الوارد إليه، يضمه رأيه فيما يرفع إليه من شكوى أو ما يقدم إليه من رجاء، أو يستشار فيه من أمر. وهو من الفنون القديمة في الأدب الفارسي، وظهر في الأدب العربي منذ عصر صدر الإسلام، وقد زعموا أن أول من وقع من الخلفاء هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد قوى هذا الفن ونضج في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين، ونبت فيه عدد من أعلام الكتاب وفحول البلغاء. ويتسم التوقيع بالإيجاز وقوة التعبير وجمال التصوير ولطف الإشارة، وشدة التأثير. وقد يكون التوقيع مثلاً مناسباً أو حكمة صائبة، أو آية قرآنية أو حديثاً شريفاً أو بيتاً من الشعر.

نماذج التوقيعات

وقع المنصور لوالى مصر حين كتب يذكره بنقصان النيل: «طهر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القيادة». ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان يأمره بالقضاء على بعض الخارجين عليه: «داو جرحك لا يتسع»

ووقع في نكبة جعفر البرمكي:

«أنبتته الطاعة، وحصدته المعصية».

ووقع المأمون في كتاب إلى عامل من عماله:

«قد كثرت شاكوكك، وقل شاركوك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت».

القصص والحكايات

في هذا العصر سارع المولدون من الأدباء إلى ترجمة كثير من تراث الأمم الأخرى القصص وحكاياتهم، كما فعل ابن المقفع في ترجمته لكتاب كليله ودمنة، وكما فعل غيره ممن لم يحفظ التاريخ لنا أسماءهم في ترجمة مجموعة من حكايات «هزار أفسانه» التي يعتقد بأنها الأصل لكتاب «ألف ليلة وليلة».

وقد طغى ما أضافه العرب إلى هذا الكتاب من الحكايات على ما نقلوه منها عن الفرس حتى بذوهم في روعة نسج الحكايات وتديبها. وقد عنى الفرنجة بهذا الكتاب وترجموه إلى معظم لغاتهم.

أما القسم الذي أضافه المؤلفون العرب إلى هذا الكتاب فيدور حول أخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجنود في الجاهلية والإسلام وأقاصيص الجان ومخاطر الشجعان، ونجوى الهواتف وأعمال السحرة التي تستهوى القلب وتشد الحاطر وتغضب الخيال.

حركة التدوين والتأليف

في عصر نفوذ الخلفاء - تدوين القرآن الكريم

كان تدوين القرآن الكريم البداية الفعلية لعلم التدوين عند المسلمين، فقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم كتاب وخي تنحصر مهمتهم في تسجيل ما ينزل من الآيات القرآنية على الرقاع والأضلاع وسعف النخل والحجارة وغير ذلك.

ثم أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق بعد أن تولى الخلافة بجمع القرآن من صدور الحفاظ وسائر المصادر، وبذلك بدأت أول عملية تدوين كبرى في تاريخ الإسلام. وفي أيام عثمان بن عفان أشار كبار الصحابة عليه باستنساخ عدة نسخ من مصحف أبي بكر، فأمر بنسخ ستة نسخ منه، وبعث بواحدة منها إلى كل من مكة والبصرة والكوفة

وبلاد الشام. وأبقى لنفسه واحدة، وأخرى لأهل المدينة، ثم أمر بجمع ما كان قبل ذلك من مصاحف وصحف لدى الأفراد وأمر بإحراقه ليجتمع المسلمون على قرآن واحد. وقد عُرف هذا المصحف باسم «مصحف عثمان». وكان ذلك سنة ٣٠هـ^(١)؛

وقد أقبل المسلمون بعد ذلك في كل مصر إسلامي على استنساخ تلك المصاحف، فنسخوا منها أعداداً كبيرة، وليس أول على ذلك من أن المطالبين بتحكيم المصحف في وقعة صفين قد رفعوا على رماحهم نحواً من خمسمائة مصحف كما يقول المسعودي^(٢)؛

ونتيجة لعناية المسلمين بحفظ القرآن الكريم ودراسته نشأت علوم شرعية إسلامية متعددة. وكان أول علم شرعي إسلامي نشأ في ظلال القرآن الكريم هو علم القراءات، وقد اشتهر منها سبع قراءات تواتر نقلها بأدائها.

وقد كان معظم أصحاب هذه القراءات من الموالى. وقد توفي ثلاثة منهم في العصر الأموي وهم: عبدالله بن كثير وعاصم بن أبي النجود وعبدالله بن عامر اليحصبي.

أما الأربعة الآخرون وهم: علي بن حمزة الكسائي، وحمزة بن حبيب الزيات، وأبو عمرو بن العلاء التميمي، ونافع بن أبي نعيم فقد أدركوا العصر العباسي، وماتوا جميعاً في عصر نفوذ الخلفاء.

ولم يقول المسلمون على القراءات الشاذة بل حاربوها لأن بعض الفرق الإسلامية حاولت استغلالها لتعميق الخلافات المذهبية بين المسلمين.

أما القراءات المشهورة فقد تناقلها المسلمون بالإسناد، وألف فيها كثيرون، ومن أشهر ما وصلنا من المصنفات في علم القراءات هو:

كتاب الإيضاح في الوقف والابتداء لمحمد بن قاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ. ومنها كتاب: التيسير في القراءات السبع لابن الصيرفي المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

شعر المسلمون بحاجتهم إلى فهم معاني كثير من آيات القرآن الكريم التي تحتاج إلى تفسير، فكان لابد من وجود المفسرين. وقد نهض الصفوة من الصحابة بهذه المهمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، كل على قدر استعداده واستطاعته. ومن أشهر هؤلاء على بن أبي طالب وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب.

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٤.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٢٠.

ثم جاء جيل التابعين الذين أخذوا عن الصحابة علوم الدين ومنها التفسير، ثم خلفهم جيل آخر عُرف بتابعي التابعين. ومع كل جيل من هذه الأجيال كانت آفاق المعرفة تتسع وتتنامي. وعلى الرغم من تفرق هؤلاء في الأمصار فقد حافظوا على ما في صدورهم من علم موروث بالرواية والدراية إلى أن بدأت التفاسير المكتوبة في الظهور.

وقد اعتمد المفسرون فيها على مؤهلات المفسر وفي مقدمتها الرواية الموروثة المتسلسلة عن الصحابة والتابعين. وقد عرف هذا النوع من التفسير باسم: «التفسير بالمأثور» ثم لم يلبث أن ظهر اتجاه آخر في هذا العلم يعرف «بالتفسير بالرأى» وكان المفسرون الذين سلكوا هذا النهج يعتمدون على عقولهم بالإضافة إلى إتقانهم اللغة العربية وعلومها وحفظهم الحديث الشريف وأحكامه، مع عدم خروجهم عن روح التفسير بالمأثور^(١).

ولعل يحيى بن زائدة المشهور بالفراء والمتوفى سنة ٢٠٧هـ أول من فسر القرآن تفسيراً أميناً. وقد عرف تفسيره باسم «معاني القرآن».

ثم تتابع المفسرون بعد ذلك بمدارسهم العديدة ومناهجهم المتباينة، فكان من أشهر مفسري المأثور ابن جرير الطبري، وعبد الحق بن عطية الأندلسي، والقرطبي.

ومن أشهر المفسرين بالرأى مفسرو المعتزلة ويمثلهم الزنجشري، ومفسرو الشيعة ويمثلهم الطبرسي^(٢).

تدوين الحديث الشريف

الحديث الشريف هو المصدر الثاني للعقيدة الإسلامية بعد القرآن الكريم، وتدوينه أمر من الأهمية بمكان.

وقد فطن بعض الصحابة إلى ذلك، فأخذوا يدونونه من تلقاء أنفسهم، وكان على رأس هؤلاء عبدالله بن عمرو بن العاص.

وقد أتاح عدم تدوين الحديث على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الفرصة لبعض الأفراد والفئات من الذين لم يحسن إسلامهم كي يضعوا أحاديث يخدمون بها بعض الأفكار الأجنبية أو المذاهب السياسية، أو يقصدون من وضعها إفساد الدين. وكان بعض هؤلاء

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٣٩ د. مصطفى الشكعة.

(٢) مناهج التأليف عند العرب د. مصطفى الشكعة ص ٤٠.

يتظاهرون بالإسلام، وبيطنون الزندقة، ومنهم: عبد الكريم بن أبي العوجاء المتهم بالمانوية، وهي نخلة من نخل الفرس ومذهب من مذاهبهم الفاسدة، فقد اعترف هذا الرجل قبل أن تضرب عنقه بأنه وضع أربعة آلاف حديث حلل فيها ماشاء، وحرّم فيها ماشاء.

ومن الوضاعين فئة أخرى زيفت أحاديث تحضّ على العبادات وفعل الخير ظناً منهم أنهم يخدمون الدين والأخلاق بهذا المسلك. وهؤلاء وإن كان خطرهم أقل من خطر أمثال ابن أبي العوجاء فهم يعدون مزيفون كاذبون.

وقد همّ عمر بن الخطاب بتدوين الحديث ثم عدل عن ذلك، ثم راودت الفكرة نفسها حفيده عمر بن عبد العزيز ولكن المنية عاجلته قبل أن يضعها موضع التنفيذ.

ولعل أول محاولة ناجحة لتدوين الحديث قد تمّت على يد محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ، ثم ظهر كتاب «الموطأ» للإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ، ثم ظهرت كتب أخرى لابن جريج والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم.

ومن أشهر كتب الحديث كتاب «المسند» للإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ وقد ضمّ ثلاثين ألف حديث.

وقد لمع بعد ابن حنبل الإمام محمد بن اسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ، والامام مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١هـ. وقد دون كل منهما كتاباً أسماه «صحيح الحديث» وهما أكثر كتب الأحاديث النبوية الشريفة ثقةً عند جمهور المسلمين.

ثم اتسعت بعد ذلك دائرة جمع الأحاديث وتحقيقها فظهرت كتب أربعة كبيرة لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ وأبي داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥هـ وأبي عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٨٧هـ، وأحمد بن علي النسائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ، وهي من كتب الحديث الموثوق بها لدى جمهرة المسلمين^(١).

تدوين العلوم والمعارف

بدأ تدوين النصوص الأدبية، وأخبار ملوك العرب والعجم وأسباب تبليبل الألسنة، وتفرق الناس في البلاد، والأمثال والأنساب منذ منتصف القرن الأول الهجري، ولم يبدأ

(١) مناهج التأليف عند العرب. د. مصطفى الشكعة ص ٤٠ - ٥٠ بتصرف.

في العصر العباسي، كما زعم بعض الدارسين.

وكل ما في الأمر أن دائرة التدوين قد اتسعت في العصر العباسي، وأن أصوله قد تفرّعت وآتت أكلها فيه.

ويجب ألا يعزب عن الأذهان أن الفضل في نمو حركة التدوين والتأليف لا يرجع للعرب أو الفرس أو لغيرهما من العناصر التي أظلتها دوحة الإسلام الوارفة العظيمة، وإنما يرجع إلى تلك العقيدة السماحية التي حثت الجميع على طلب العلم، ودفعت بهم إلى الأخذ بأسباب المعرفة، فكان التدوين أولاً والتأليف فيما بعد ثمرتين لجهود هؤلاء الذين آمنوا بالإسلام.

وبازدهار مدرسة عبد الحميد بن يحيى الكاتب في الكتابة — في أواخر العصر الأموي — اكتملت للمؤلف العربي عدته، واستوت الأساليب العربية الكتابية على أعوادها، وأصبحت وسيلة صالحة للتأليف في مختلف فنون المعرفة، وأداة للتصنيف في شتى أبواب العلم والأدب. وهكذا بدأت موجات التأليف تتلاحق موجة إثر موجة، وبدأ منبعها الثر يفيض بأروع الثمار وأوفر الحصاد^(١).

مصادر النثر العربي

يجدر بنا قبل أن نخوض في حديث الكتب وتأليفها ومؤلفيها أن نشير إلى مصادر النثر العربي من حيث كونه لوناً بارعاً من الكتابة الفنية. وبتتبعنا لهذه المصادر نجد أنها منحصرة في ستة مصادر هي:

المصدر الأول: رسائل الكتاب المرموقين كالجاحظ وابن العميد والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي وبيديع الزمان الهمداني والشريف الرضي وأبي العلاء المعري وإخوان الصفا وسواهم.

المصدر الثاني: رسائل مجموعة أخرى من الكتاب وصلت إلينا متفرقة في بطون الكتب ومنها: رسائل عبد الحميد الكاتب وعمرو بن مسعدة والقاضي الفاضل وغيرهم.

(١) مناهج التأليف عند العرب. د. مصطفى الشكعة ص ٧٦.

المصدر الثالث: القصص وما في حكمها كالمقامات والروايات.

وقد وصل بعضها كاملاً كمقامات بريح الزمان، والحريري، ووصل بعضها متفرقاً في ثنايا الكتب كصبح الأعشى والبيان والتبيين ويتمية الدهر والعقد الفريد والأمل ونهاية الأدب والإمتاع والمؤانسة والبغلاء والأغاني وسواها من الكتب الأدبية.

المصدر الرابع: كتب التراجم، وفيها نماذج نثرية مختارة من كتابة وخطابة لمن ترجم لهم المؤلفون ومن أهمها: تاريخ بغداد ومعجم الأدباء، ووفيات الأعيان، والوفاء بالوفيات، وفوات الوفيات وما شابهها من الكتب.

المصدر الخامس: كتب التاريخ ومن أهمها: سيرة ابن هشام وتاريخ الرسل والملوك، ومروج الذهب، وتجارب الأمم، والكامل لابن الأثير وغيرها.

المصدر السادس: الكتب الأندلسية التي ضمت نثر كتاب الأندلس، ومنها نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وقلائد العقيان، وأعمال الأعلام، والمغرب في حلى المغرب وسواها.

المصدر السابع: الكتب المعاصرة مثل جبهة رسائل العرب وجبهة خطب العرب للأستاذ أحمد زكي صفوت، وغيره من البحوث والدراسات التي تناولت النثر الفنى وألوانه المتعددة بالبحث والدراسة والتحليل والتحقيق^(١).

(١) مناهج التأليف عند العرب من ص ٩١ - ص ٩٥.

رواد التأليف ومؤلفاتهم في عصر نفوذ الخلفاء

عبدالله بن المقفع
المتوفى سنة ١٤٢هـ

اسمه الحقيقي روزبه بن دازويه، تسمى بعبدالله بعد إسلامه، نشأ في البصرة، وخالط الأعراب، وأخذ عنهم الفصاحة، اتصل بعمال بني أمية، ثم بعمال العباسيين، وعاش حتى زمن المنصور الذي أمر بقتله سنة ١٤٢هـ لأسباب تختلف حولها المؤرخون. وهو من رواد الترجمة والتأليف. كان صديقاً حميماً لعبد الحميد الكاتب. وقد ترك لنا ثلاثة أعمال أدبية مؤلفة، وعملاً رابعاً مترجماً. فأما أعماله الأدبية المؤلفة فهي:

- ١ - كتاب الأدب الصغير، وهو في الحكمة وتهذيب النفس.
- ٢ - الأدب الكبير أو الدرة اليتيمة: وهو مزيج من أمثال وأقوال وثقافات الفرس واليونان والمسلمين.
- ٣ - رسالة الصحابة: ويقصد بالصحابة في هذا الكتاب بطانة السلطان، وهي رسالة في نقد نظم الحكم وتوجيه له. وقد زعم بعض المؤرخين أن تأليف ابن المقفع لهذه الرسالة كان في مقدمة الأسباب التي أدت إلى قتله.
- ٤ - كلیلة ودمنة: وهو كتاب هندي نقل إلى اللغة البهلوية بأمر من كسرى أنوشروان، ثم نقله عنها إلى العربية عبدالله بن المقفع. وهو من قبيل الأدب الرمزي، ويدور حول إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس ووعظ السلطان. وضعه فيلسوف هندي يدعى بيدبا ملك من ملوك الهند يسمى دشليم. وكان ملكاً ظالماً حكم الهند بعد الاسكندر المقدوني، فأراد بيدبا إصلاحه، فألف هذا الكتاب وجعله قصصاً يدور فيها النصيح

والإرشاد على ألسنة البهائم والطيور. وقد نقل إلى كثير من اللغات العالمية. وقد كتب ابن المقفع له مقدمة سماها «عرض الكتاب» وصف فيها الكتاب، وحث على مطالعته. وقد تعدلت ترجمة الكتاب بتوالي الأيام بين تنقيح وتصدير وتذييل فبلغت أبوابه واحداً وعشرين باباً، بعضها هندي الأصل والآخر فارسي والآخر عرني. ويقال إن أبوابه الهندية الأصلية لا تتجاوز الإثني عشر باباً. والطريف أن الأصل الهندي لهذا الكتاب قد فقد، كما فقدت ترجمته الفارسية، ولهذا فإن الفضل في بقاءه وخلوده إنما يرجع إلى بقاء النسخة العربية، ولولاها لما قدر للإنسانية أن تستمتع بالاطلاع على هذا المصنف النفيس^(١).

التأليف الأدبي غير المتخصص ورواده

بعد مرحلة السماع والتدوين بدأت مرحلة التأليف. وقد بدأ التأليف في الأدب مشتبكاً مع علوم اللغة من نحو وصرف ورواية وأخبار وأنساب ونوادس غير أن ذلك لم يمنع من ظهور التأليف الأدبي الدقيق ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة على يد الجاحظ وابن قتيبة الدينوري والمبرد وابن طيفور وثلعب وأبي بكر الصولي وأحمد بن عبدربه وأبي الفرج الأصفهاني وأبي منصور الثعالبي وأضرابهم. وإلى جانب هؤلاء أسهم في التأليف الأدبي عدد من العلماء وفقاً لمفهوم التأليف القديم، ومفهومهم هم للأدب آنذاك. ومن هؤلاء الفضل الضبّي والخليل بن أحمد وأبو عبيدة والأصمعي ويونس بن حبيب والنضر بن شميل وهشام بن الكلبي والمدائني وابن الأعرابي وسواهم. وقد قدم هؤلاء للأجيال من عصارة أفكارهم ما يدعو إلى الإعجاب والتقدير. وقد تراوحت مؤلفات بعضهم بين المائة والمائتي كتاب، وزادت مصنفات بعضهم على الثلاثمائة مصنف.

وإذا شئنا التعرف على الأسباب التي مكنت هؤلاء العلماء من تقديم هذا العلم الوفير

(١) مناهج التأليف عند العرب. د. مصطفى الشكعة ص ٧٩ - ص ٨٠.

المتنوع وجدناها تتلخص فيما يلي^(١):

- ١ - ظهور هذا الرعيل من الفحول في فترة التفجر العقلي والسمو الفكري التي تم بها التفاعل بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات.
- ٢ - إخلاص العلماء للعلم والأدب وعدم اشتغالهم بغير ذلك من شئون الحياة.
- ٣ - تشجيع الخلفاء والوزراء وغيرهم من أصحاب النفوذ والسلطان للعلماء والأدباء وأمنهم من العدوان على حرية الفكر ومصادرته.
- ٤ - طول الأجل الذي منحه الله للغالبية العظمى من هؤلاء العلماء الأفاضل، حيث تراوح متوسط أعمارهم بين الثمانين والمائة عام. وعلى سبيل المثال فقد عاش كل من الأصمعي والكلبي والجاحظ أكثر من مائة عام، ونيف كل من أبي عبيدة والهيثم بن عدي والمدائني وثلعب على التسعين، كما تراوحت أعمار كل من يونس بن حبيب وابن الأعرابي والمرزباني والثعالبي بين الثمانين والثمانين عاماً. أما أقصر هؤلاء العلماء أجالاً وهم ابن طيفور وابن قتيبة الدينوري، والخليل بن أحمد، وأبو محمد اليزيدي فقد تراوحت أعمارهم بين الثالثة والستين والسادسة والسبعين. وفيما يلي تعريف موجز ببعض هؤلاء وأشهر ما تركوا لنا من آثار.

١ - الفضل الضبّي

المتوفى سنة ١٧٥هـ

من الرواد الأوائل في رواية الشعر والأدب وأيام العرب والقراءات والحديث. ولد في الكوفة، وكان ذا خلق ودين، أدرك عهد الرشيد وله معه أخبار طريفة. له مجموعة من الكتب هي: المفضليات، والأمثال، ومعاني الشعر، والألفاظ، والعروض. وأشهر هذه الكتب على الإطلاق هو كتاب: المفضليات: ويضم أقدم مجموعة من القصائد التي قام باختيارها مؤلف واحد وعنى بتسجيلها على الورق.

وكان الهدف من تخييرها هو تعليمها للمهدي بن أبي جعفر المنصور وقد أملاها عليه

(١) مناهج التأليف عند العرب. د. مصطفى الشكعة ص ١٠١ - ص ١٠٤.

المفضل وهو يقوم بمهمة تأديبه.

ويضم هذا الكتاب مائة وثلاثين قصيدة جاهلية وغضرمة وإسلامية. وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الاستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون^(١)

٢ - النضر بن شميل

المتوفى سنة ٢٠٤ هـ

من علماء البصرة، وقد غادرها بسبب الفقر إلى خراسان، وأقام في مرو فصلحت حاله. وكان صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب وروايه الحديث. كان يجالس المأمون، وله معه نوادر طريفه أكسبته كثيراً من عطاياه. من مؤلفاته:

كتاب الصفات، وهو في خمسة أجزاء، وكتاب السلاح، وكتاب خلق الفرس وكتاب الأنواء، وكتاب المعاني، وكتاب غريب الحديث، وكتاب المدخل إلى كتاب العين للخليل بن أحمد^(٢)

٣ - ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ

وهو من أشهر النسابين، ومن أكثر المؤلفين كتباً وتنوعاً في التأليف. كوفي المولد والإقامة والوفاة، من أسرة اشتهرت بالعلم والأدب، كان سريع الحفظ، سريع النسيان. زار بغداد، وأقام فيها فترة قصيرة يروي الحديث. ولكنه لم يكن موثق الرواية. له مائة وخمسون كتاباً ذكرها ابن النديم في كتابه الفهرست. وأشهر كتبه: الجماهر، وهو في معرفة الأنساب. ومن كتبه: كتاب الأصنام وكتاب نسب الخيل وهما مطبوعان. ومما يدعو إلى الأسف، أنه لم تصل إلينا جميع كتب هذا العالم، ولم وصلت إلينا كلها لأسهمت في إثراء العقل العربي المعاصر ولوضحت جوانب عديدة من الحضارة العربية قبل الإسلام وبعده^(٣)

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ١٠٧.

(٢) مناهج التأليف عند العرب. د. مصطفى الشكعة ص ١١٣.

(٣) المصدر نفسه ص ١١٩.

٤ - الهيثم بن عدي

١١٤ - ٢٠٧ هـ

ولد في الكوفة وعاش فيها. كان صاحب علم وفضل، وقد جالس أربعة من الخلفاء هم: المنصور والمهدي والهادي والرشيد. اتهم بالميل إلى الخوارج، وامتنح بالسجن وبهجو أبي نواس له. ومما قاله فيه:

يا هيثم بن عدي لست للعرب
ولست من طيئتي إلا على شغب
إذا نسبت عدياً في بني ثعل
فقدم الدال قبل العين في النسب
وكان هذا الهجاء سبباً في إرغامه على تطليق زوجته من بني الحارث.

ويروى ابن النديم في الفهرست أن للهيثم واحداً وخمسين كتاباً أكثرها في التاريخ، وعدد منها في الإنسان وعدد آخر في الطبقات والباقي في صنوف المعرفة المختلفة والآداب. من كتبه: خطط الكوفة، فخر أهل الكوفة على البصرة، نسب طي، كتاب نزول العرب بخراسان، كتاب أخبار زياد بن أبيه، طبقات الفقهاء والمحدثين، كتاب النساء، وكتاب النوادر وغيرها^(١)

٥ - أبو عبيدة معمر بن المثنى

١١٠ - ٢٠٩ هـ

ولد بالبصرة، وكان أعجمياً لا يحسن نطق بيت واحد من الشعر، وكان يلحن في القرآن، وكان شعوبياً يكره العرب ويطعن في أنسابهم. له كتاب في فضائل الفرس، وآخر في مثالب أهل البصرة. وقد ألف في الأدب والشعر واللغة والنحو وعلوم القرآن والحديث والأنساب والقبائل وأيام العرب ومآثرهم ومثالبهم. والف كذلك في تاريخ الجاهلية والإسلام والفتوحات والحيوان والطير والهوام والزروع. ومن كتبه المطبوعة: نقائض جرير والفرزدق، وكتاب الخيل^(٢)

(١) مناهج التأليف عند العرب. د. مصطفى الشكعة ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٧.

٦ - الأصمعي ١١٢ - ٢١٦ هـ

هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي. من ألمع علماء العربية وأكثرهم شهرة، بصرى المولد والوفاء له مع أعلام عصره من خلفاء ووزراء وقواد طرائف كثيرة. كان مستقيم العقيدة صحيح الدين.

ذكر صاحب الفهرست أن للأصمعي سبعة وأربعين كتاباً في اللغة وما يتصل بها من أدب ونحو وصرف وشعر ورجز وفي الإنسان وخلق، والحيوان والنبات، وجزيرة العرب، ونوادير الأعراب وأخبارهم.

وقد طبع من مؤلفاته سبعة كتب هي: خلق الإنسان، وكتاب الفرق أي «الفرق بين أسماء الأعضاء في الإنسان والحيوان» والخيل، والشاء، والدارات، والنبات والشجر، والنخل والكرم^(١).

٧ - المدائني ١٣٢ - ٢٢٥ هـ

هو أبو الحسن علي بن محمد المدائني، بصرى المولد والنشأة أقام في المدائن فترة فنسب إليها. اتخذ من بغداد دار إقامة، وعاصر ثمانية من الخلفاء. توثقت صلته بالمأمون ولازم اسحق الموصلي حتى قيل إنه مات في بيته.

كان مرجعاً في أخبار الإسلام، وكان تقياً كثير الصيام، ويزعم ابن النديم أن كتبه قد بلغت مائتين وثلاثة وثلاثين كتاباً منها أربعة وعشرون في أخبار النبي وخطبه، ومغازيه وأزواجه، والوفود التي وفدت عليه. ومنها تسعة وعشرون في نسب قریش وأخبارها، واثنان وعشرون كتاباً في مناقح الأشراف وأخبار النساء، وسبعة كتب في أخبار الخلفاء، وخمسة وعشرون كتاباً في الأحداث التي تلت مصرع الخليفة عثمان بن عفان، وسبعة وثلاثون كتاباً في الفتوح، وعشرة في أخبار العرب، واثنان وثلاثون في أخبار الشعراء، وخمسة وأربعون في موضوعات متنوعة^(٢).

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ١٣١.

(٢) مناهج التأليف عند العرب. د. مصطفى الشكعة ص ١٥٣.

الفصل الثاني العصر العباسي الثاني من ٢٣٣ هـ - ٣٣٤ هـ

يبدأ هذا العصر بخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ وينتهي بظهور الدولة البويهية سنة ٣٣٤ هـ، ويعرف بالعصر التركي لتسلط الأتراك فيه على أمور الدولة وحلولهم في تولي مناصبها الكبرى محل الفرس. وكان المعتصم أول من استكثر من الموالى الأتراك وقدمهم على سواهم. وقد بدأ استبدادهم بأمور الدولة، واستفحل خطرهم في نهاية عهده حين وثبوا عليه وقتلوه بمساعدة ولده المنتصر الذي لم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر مات بعدها تحت وطأة الشعور بالذنب.

وقد تولى العرش في هذا العصر اثنا عشر خليفة، قتل الأتراك منهم اثنين، وخلعوا خمسة، وتعاملوا مع الخمسة الباقين كما يتعامل الأطفال مع دُمَاهِم.

وخلاصة القول أن نفوذ الخلفاء قد ضعف في هذا العصر، فظهر نتيجة لذلك عدد من الدويلات التي استقل ولاتها بالحكم عن الخلافة في بغداد ومن هذه الدول:

الدولة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد استمرت نحو قرن كامل. والدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر، ودولة القرامطة بالبحرين، والدولة الصفارية بسجستان وفارس وكرمان وخراسان، والدولة الطولونية بمصر وبرقة وشرق بلاد الشام، ودولة الأغالبة بإفريقية والمغرب، ودولة الأدارسة في بلاد المغرب الأقصى، والدولة العلوية التي ورثت دولة الأدارسة، والدولة الحمدانية في بلاد الشام والموصل، والدولة الإخشيدية في مصر^(١).

وفي هذا العصر عظم نفوذ الخدم الذين نبغ عدد منهم وتولوا أرفع المناصب ومنهم الخادم مؤنس الذي تولى في أيام الخليفة المقتدر رئاسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت المال، واستبد

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ للشيخ الخضرى.

في كل شيء. وقد حدث بينه وبين الخليفة خلاف أدى الى صراع دموى انتهى بقتل المقتدر.

وفي هذا العصر كثر الفساد، وعمت الرشوة والمصادرة والفتك، فصار الناس لا يأمنون على أرواحهم وأموالهم.

سمات هذا العصر ومميزاته

في هذا العصر استقر الخط العربي على الصورة التي نعرفها عليه الآن. وقد وضع أصوله وقواعده الخطاط ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

وفيه ظهر أثر الانقلاب الأدبي في ألفاظ اللغة العربية التي أصبح لكثير منها دلالات خرجت بها عما وضعت له في المعاجم اللغوية.

وفيه تمت ترجمة التوراة على يد سعيد الفيومي المتوفى سنة ٢٨٢هـ، وهو جبر من أحبار الطائفة الربانية اليهودية في مصر. وكان ذلك في عهد خارويه بن أحمد بن طولون^(١).

وفي هذا العصر بدأ الأدب في الاستقلال عن علوم اللغة في مجال التأليف، كما ظهر علماء اشتغلوا بتعريف الألفاظ واشتقاقها ومعانيها وترتيبها ترتيباً أبجدياً مما مهّد لوضع المعاجم في العصر الثالث.

وفي هذا العصر ضعفت المنافسة بين علماء البصرة والكوفة، وارتفعت المكانة العلمية لبغداد، وخاصة بعد أن سطا الزنج على البصرة وخربوها.

وقد بدأ المؤلفون في التمييز بين الروايات وتمحيصها، واهتموا بنشر الحكم وأخبار الزهد والزهاد وأقوال الحكماء، وسير رجال العدل والخدم وحث الناس على الاقتداء بهم لرد الناس عن غيهم وردعهم عن التماهى في الفساد.

وأخذ العلماء يجمعون شتات الأخبار الخاصة بالعرب في كتب موحدة أو متعددة الأجزاء كالמושى والعقد الفريد.

وقد أصبح التأليف في هذا العصر صناعة علمية تستهدف طلب الرزق والحصول على الجوائز السنوية من الخلفاء والوزراء والولاة.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ جرجى زيدان ص ١٨٠.

وقد عرف هذا العصر عدداً كبيراً من العلماء الأجلاء كالجاحظ والسكري، وابن قتيبة الدينوري، وابن أبي الدنيا، وقدامة ابن جعفر والوشاء وابن عبدربه، وابوبكر الصولي، والمازني، وشعلب، والزجاج، وابن الأنباري، وأبو جعفر النحاس، والزجاجي، والهروي والسجستاني، والمبرد، والمفضل بن سلمة، وابن دريد، والهمداني، ومحمد بن حبيب، والزبير بن بكار، وعمرو بن شيبة، والأزرق، وابن طيفور، واليعقوبي، وأبو حنيفة الدينوري، وابن جرير الطبري، وأبو زيد البلخي، وابن البطريق، وابن الفقيه، وابن فضال، والبخاري، ومسلم القشيري، وابن ماجه، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والطبري، والكندي، والفارابي، وابن ماسويه، وابن سهل، والرازي وغيرهم.

الشعر في العصر العباسي الثاني

في هذا العصر ظهرت شكوى الشعراء من ذهاب دولة الشعر وانقضاء عهد تأثيره الكبير في النفوس، وذلك بذهاب قوة الخلفاء وانقضاء زمن الذين يعرفون منزلة الشعر والشعراء. وقد عبر عن ذلك ابن الرومي بقوله:

ذهب الذين تهزمهم مُدّاخهم هزّ الكُماة عوالي المُرّان
كانوا إذا امتدحوا رأوا مافيهُم فالأريحية منهم هم كان

وفي هذا العصر كثرت المعاني الفلسفية في الشعر، وتفتت تعبيراتها، وظهرت فيه ألوان البديع، وكانت قليلة قبل ذلك، لا ترد على السنة الشعراء إلا عفواً الخاطر.

وفي هذا العصر نبغت طبقة من نقاد الشعر ورواياته بعد أن كانوا ينقلونها في العصر السابق بلا تمحيص، وأصبح النقاد في هذا العصر يتدبرون معاني الشعر وأساليبه، ولا سيما بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله أبو بشر بن المعتمر عن السريانية إلى العربية.

وقد خطا الشعر في هذا العصر خطوة أخرى واتسعت دائرة أغراضه بما استحدث فيه من «الزهرات» والتغزل بها، كقول ابن المعتز يصف قضيياً من الریحان:

قضيبت من الریحان شابة لونه إذا ما بدا للعين لون الزمرد
وشبهته لما تأملت حسنه عذاراً تدلى في عوارض أثمره
ولم ينبغ في هذا العصر من الشعراء إلا تلك الطائفة التي امتاز أصحابها بقوة الشاعرية
من أمثال ابن الرومي والبحترى وابن المعتز وسواهم (١)

أشهر شعراء هذا العصر ١ - ابن الرومي ٢٢١ - ٢٨٣ هـ

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج أو «جورجوس» وهو رجل رومي «يوناني»
أسلم على يد عبيد الله بن عيسى بن جعفر بن الخليفة المنصور. أما أمه فامرأة فارسية من
سجستان. ولد في بغداد، وتزوج مرتين، ورزق من كلتا زوجتيه بأولاد، وقد فقد أمه
واحدى زوجتيه ومعظم أولاده، وأخاه الذي كان يعينه على الحياة فأورثه ذلك تشاؤماً
ونقمة. وكان يخشى الأسفار وتجنب الأخطار، وكان شديد الهجاء. وكان هجاءه سبباً في
موته، حيث دس له وزير الخليفة المعتضد القاسم بن عبيد الله السم بعد أن أفحش في
هجائه. وكانت وفاته في بغداد سنة ٢٨٣ هـ.

وابن الرومي شاعر مطبوع لا يتكلف ولا يتصنع، ويمتاز شعره بطول النفس حتى بلغت
بعض قصائده ثلاثمائة بيت. وقد عني ابن الرومي بمعاني شعره أكثر من عنايته بالفاظه.
وقد خاض ابن الرومي عباب معظم أغراض الشعر المعروفة في زمنه، ففي شعره مدح
وهجاء وفخر وعتب ووصف وحكمة وغزل ونسيب ورثاء. وكانت له قدرة عجيبة على
التشخيص والتصوير:

وديان ابن الرومي مطبوع مشهور، وقد عني كثير من الأدباء بنشره وتحقيقه ودراسته.
ومن شعره قوله في الرد على المتنطعين الذين كانوا يعيبون نسبه، ويعرضون بقدرته
الأدبية:

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العريب
يامنكر الفضل فيهم أليس منهم صهييب

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ - جرجي زيدان ص ١٨١.

ومنه وصفه لصانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خباز مررت به
ما بين رؤيتها في كفه كرة
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
ومن شعره في حب الوطن والتعلق به:

ولى وطن آليت ألا أبيع
عهدت به شرح الشباب ونعمة
وحبب أوطان الرجال اليهم
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
وقال يهجو عيسى بن منصور ويصمه بالبخل:

بقتر عيسى على نفسه
فلو يستطيع لتقتير
ومن شعر الوجداني الخالص قوله في المغنية «وحيد» وكانت لا تعبأ به (١):

يا خليلي تيمني وحيد
غادة زانها من الغصن قد
وزهاها من فرعها ومن الخدين
أوقد الحسن ناره في وحيد
مالما تصطليه من وجنتها

وغرير بحسنا قال صفها
يسهل القول إنها أحسن الأشياء
شمس دجن كلا المنيرين من
تتجلى للنظارين إليها
ظبية تسكن القلوب وترعاها

يدحو الرقاقة مثل اللحم بالبصر
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وألأ أرى غيرى له الدهر مالكا
كعنة قوم أصبحوا في ظلالكا
مآرب قضأها الشباب هنالكا
عهود الصبا فيها فحتوا لذلكا

وليس بباقي ولا خالد
تنقش من منخر واحد
ومن شعر الوجداني الخالص قوله في المغنية «وحيد» وكانت لا تعبأ به (١):

ففؤادى بها مبعثي عميد
ومن الظبي مقلتان وحيد
ذاك السواد والتوريد
فوق خد ماشانه تخديد
غير ترشاف ريقها تبريد

قلت أمان هين وشديد
طرأ، ويصعب التحديد
شمس وبد من نورها يستفيد
فشقي بحسنا وسعيد
وقمزية لها تغريد

(١) تاريخ الأدب العربي - عمرفوخ ص ٣٤٩.

مد في شأو صوتها نفس كاف كأنفاس عاشقها مديد
في هوى مثلها يخفق حليم راجح حلمه، ويغوى رشيد
عيها أنها إذا غتت الأحرار ظلوا وهم لديها عبيد
حظ غيرى من وصلكم قرّة العين، وحظى البكاء والتسهيّد

البحترى

٢٠٦ - ٢٨٦هـ

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في مدينة منبج سنة ٢٠٦هـ ونشأ في باديتها بين قبائل بني طيء، فهو عربي خالص العروبة، كان يتكسب بالشعر بمدحه الأشخاص العاديين. ثم رحل إلى العراق واتصل بالفتح بن خاقان والخليفة المتوكل وانقطع لمدحهما ونال عندهما حظوة، فلما قتل قفل عائداً إلى الشام، ثم لم يلبث أن عاوده الحنين إلى التكسب فرجع مرة أخرى إلى بغداد ومدح عدداً من الخلفاء ولكنه لم ينل عندهم من المنزلة مثل ماناله عند المتوكل. فرجع إلى بلده واعتزل فيها حتى مات بالسكتة القلبية سنة ٢٨٦هـ.

والبحترى شاعر مطبوع، متمسك بعمود الشعر العربي، كان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام أكثر من المديح، وأجاد العتاب، واعتذار ياته التي رفعها إلى الفتح بن خاقان ترد في الجودة بعد اعتذارات النابغة إلى النعمان، وفخره جيد قليل، أما رثاؤه وهجاؤه فدون ذلك، وغزله عذب رقيق، أما وصفه فقد بدّ فيه أقرانه من الشعراء. وديوان البحتري مطبوع في جزئين، وفي بعض نسخه قصائد زعم بعض الباحثين أنه قالها في مدح الطولونيين في مصر.

ومن بديع وصفه قوله في بركة المتوكل: (١)

يا مَن رأى البركة الحسناء، رؤيتها والغانيات إذا لاحت مغانيها

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٨٤ جرجى زيدان.

(٢) ديوان البحتري - المجلد الأول ص ٣٤.

بحسبها أنها في فضل رتبها كأن جنّ سليمان الذين ولوا
فلو تمرّ بها بلقيس عن عرض تنصبّ فيها وفود مُعجّلة
كأنما الفضة البيضاء سائلة إذا علتها الصبا أبدت لها حُبكاً
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وإذا النجوم تراءت في جوانبها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعده ما بين قاصيها ودانها
تعدّ واحدة والبحرُ ثانياً إبداعها فأدقوا في معانيها
قالت: هي الصرح تمثيلاً وتشبيها كالخيل خارجة من حبل مجربها
من السبائك تجري في مجارها مثل الجواشن مصقولة حواشيها
وريق الغيث أحياناً يباكيها ليلاً حسبت ساء ركبت فيها
وقد مربنا في الصفحات السابقة نماذج أخرى من شعر البحتري.

عبدالله بن المعتز

٢٤٧ - ٢٩٦هـ

هو أبو العباس عبدالله بن الخليفة المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد. ولد في العشرين من شعبان سنة ٢٤٧هـ في مدينة سامراء. كان منصرفاً إلى تلقى العلم ونظم الشعر وتأليف الكتب، ولم يكن يطمع في الخلافة لما شهد من تعسف الجند الأتراك وتلاعيمهم بالخلفاء. ولكنه على الرغم من ذلك لم ينج من شرهم. فقد ثاروا على الخليفة المقتدر وخلعوه ولوا مكانه عبدالله بن المعتز. غير أن أنصار المقتدر عادوا فجمعوا صفوفهم في اليوم التالي وأخرجوا المقتدر من السجن ثم وضعوا مكانه عبدالله بن المعتز وعذبوه حتى مات، بعد أن تولى الخلافة ليلة واحدة.

كان ابن المعتز أدبياً شاعراً وناقداً عالماً، واسع الثقافة بصيراً بصناعة الألحان ومن آثاره: ديوان ابن المعتز: وقد طبع عدة مرات ويشتمل على قصائد في الأدب والفخر والمدح والرثاء والهجاء والوصف والنسيب والطرده والزهد. وقد أبدع في وصف الحياة المترفة في القصور، كما أكثر من وصف الخمر والحلى والجواهر، وله في الهلال والنجوم أوصاف بارعة هي بلا ريب أفضل شعره. (١)

(١) تاريخ الأدب العربي: عمرفوخ، ص ٣٧٧ - ص ٣٧٩.

ومن بديع شعره قوله في الحسود^(١):

اصبر على كبد الحسود
كالنار تأكل بعضها
وقال يصف الهلال والنجوم^(٢):

انظر الى حسن هلال بدا
كمثجل قد صيغ من فضة
وقال في زيارة حبيب^(٣):

كم فيهم من مليح الوجه مكتحل
لاحظته بالهوى حتى استقاذله
وجاءني في قيص الليل مستتراً
فقممت أفرش خدى في الطريق له
ولاح ضوء هلال كان يفضحنا
وكان ماكان مما لست أذكره

فإن صبرك قاتله
إن لم تجد ماتأكله

يهتك من أنواره الخندسا
يحضد من زهر الدجى نرجسا

والسحر جفنيته على حور
طوعاً وأسلفني الميعاد بالنظر
يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
ذلاً وأسحب أذيالي على الأثر
مثل القلامة قد قذت من الظفر
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ولابن المعتز اثنا عشر كتاباً غير ديوانه هي: كتاب الآداب، وكتاب البديع، تباشير السرور، فصول التماثيل، طبقات الشعراء المحدثين، أشعار الملوك، سرقات الشعراء، الزهر والرياض، مكاتبات الاخوان بالشعر، الصيد بالجوارح، الجامع في الغناء، حلى الأخبار. وقد عرف العصر العباسي الثاني عدداً كبيراً من الشعراء منهم: البسامي البغدادي، والخبز أريزي، وابن العلاف، وفضل جارية المتوكل، ومحمد بن عبد الرحمن العطوى، وأبو العنبس الصيمري، وأبو العيناء، والناشيء الأكبر، وابن العلاف وسواهم.

(١) ديوان ابن المعتز دار صادر بيروت ط سنة ١٩٦١ ص .

(٢) ديوان ابن المعتز ٢٧٨ دار صادر بيروت ط سنة ١٩٦١ ص .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٦ .

رواد التأليف الأدبي المنهجي في العصر العباسي الثاني

١ - الجاحظ^(١)

١٥٠ - ٢٥٥ هـ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، لُقّب بالجاحظ لبحوث عينيه وسمى بالحدقّي، وهو دُرّة يتيمة في جبين الثقافة العربية والإنسانية، وعلم من أعلامها الذين قل أن يوجد مثلهم الزمان.

كان عالماً في كل فن، ثقف نفسه ثقافة واسعة هيأت له أسباب المجده، وسطرت اسمه في سجل الخالدين.

قيل عنه: إنه لم يُر إلا ومعه كتاب، ولم يقع في يده كتاب إلا قرأه، وأنه كان يستأجر حوانيت الوراقين «المكتبات» ويبيت فيها ليشبع من كتبها نهمه للقراءة.

نشأ بالبصرة، وتعلم على علمائها، وهو زعيم مدرسة الترسل في الكتابة. لا يفتعل ولا يتوعر ولا يسجع إلا لمأماً، يعتمد إلى المزاوجة أحياناً ويميل إلى الاستقصاء والتحليل والاستطراد. استقام له أسلوب الكتابة فعمد إلى التأليف مستخدماً أسلوبه السهل الرفيع.

كان معتزلياً، وكان ظريفاً خفيف الظل، سريع البديهة، حاضر النكتة. استقدمه المتوكل لتأديب ولده، فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعد أن أمر له بعشرة آلاف درهم.

مؤلفاته ونهجه:

بلغت مؤلفاته ثلاثمائة وستين كتاباً، يمتاز أكثرها بالابتكار والإبداع. وقد طرق موضوعات كثيرة متشعبة، وقد طالت بعض كتبه حتى بلغت سبعة مجلدات ككتاب

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ١٦٣ .

ومن بديع شعره قوله في الحسود^(١):

اصبر على كبد الحسود
كالنار تأكل بعضها
وقال يصف الهلال والنجوم^(٢):

انظر الى حسن هلال بدا
كمثجل قد صيغ من فضة
وقال في زيارة جيب^(٣):

كم فيهم من ملبح الوجه مكتحل
لاحظته بالهوى حتى استقأله
وجاءني في قيص الليل مستتراً
فقمْتُ أفرش خدى في الطريق له
ولاح ضوء هلال كان يفضحنا
وكان ماكان ممالست أذكره

فإن صبرك قاتلة
إن لم تجد ماتأكلة

يهتك من أنواره الخندسا
يحصد من زهر الدجى نرجسا

والسحر جفني على حور
طوعاً وأسلفني الميعاد بالنظر
يستعجل الخطوم من خوف ومن حذر
ذلاً وأسحب أذيالي على الأثر
مثل القلامة قد قُدت من الظفر
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ولابن المعتز اثنا عشر كتاباً غير ديوانه هي: كتاب الآداب، وكتاب البديع، تباشير السرون، فصول التماثيل، طبقات الشعراء المحدثين، أشعار الملوك، سرقات الشعراء، الزهر والرياض، مكاتبات الاخوان بالشعر، الصيد بالجوارح، الجامع في الغناء، حلى الأخبار. وقد عرف العصر العباسي الثاني عدداً كبيراً من الشعراء منهم: البسامي البغدادي، والخبز أريزي، وابن العلاف، وفضل جارية المتوكل، ومحمد بن عبد الرحمن العطوي، وابو العنيس الصيمري، وأبو العيلاء، والناشيء الأكبر، وابن العلاف وسواهم.

(١) ديوان ابن المعتز دار صادر بيروت ط سنة ١٩٦١ ص .

(٢) ديوان ابن المعتز ٢٧٨ دار صادر بيروت ط سنة ١٩٦١ ص .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٦ .

رواد التأليف الأدبي المنهجي في العصر العباسي الثاني

١ - الجاحظ^(١)

١٥٠ - ٢٥٥ هـ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه وسمى بالحدّقي، وهو ذرّة يتيمة في جبين الثقافة العربية والإنسانية، وعلم من أعلامها الذين قل أن يوجد بمثلهم الزمان.

كان عالماً في كل فن، ثقّف نفسه ثقافة واسعة هيأت له أسباب المجد، وسطرت اسمه في سجل الخالدين.

قيل عنه: إنه لم يُر إلا ومعه كتاب، ولم يقع في يده كتاب إلا قرأه، وأنه كان يستأجر حوانيت الوراقين «المكتبات» ويبيت فيها ليشبع من كتبها نهمه للقراءة.

نشأ بالبصرة، وتعلم على علمائها، وهو زعيم مدرسة الترسّل في الكتابة. لا يفتعل ولا يتوعر ولا يسجع إلا لمأماً، يعتمد على المزاجية أحياناً ويميل إلى الاستقصاء والتحليل والاستطراد. استقام له أسلوب الكتابة فعمد إلى التأليف مستخدماً أسلوبه السهل الرفيع. كان معتزلياً، وكان ظريفاً خفيف الظل، سريع البديهة، حاضر النكتة. استقدمه المتوكل لتأديب ولده، فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعد أن أمر له بعشرة آلاف درهم.

مؤلفاته ونهجه:

بلغت مؤلفاته ثلاثمائة وستين كتاباً، يمتاز أكثرها بالابتكار والإبداع. وقد طرق موضوعات كثيرة متشعبة، وقد طالت بعض كتبه حتى بلغت سبعة مجلدات ككتاب

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ١٦٣ .

الحيوان أو أربعة كالبيان والتبيين، وقصر بعضها الى درجة جعلته يقترب من الرسالة^(١) ومن أشهر كتبه:

كتاب الحيوان: ألفه الجاحظ وهو يعانى من وطأة المرض. وهو أكبر كتبه حجماً، وقد طبع في سبعة مجلدات حققها الاستاذ عبد السلام هارون. وقد عني فيه بالحديث عن أصناف الحيوان والوحش والطير، وما يعرفه العرب عنها. وفيه فصول عديدة عن غير الحيوان كوسائل البيان وكتابة المعاهدات وأنواع الخطوط وأقوال الشعراء فيها وفصول عن البلدان والأجناس البشرية وأثرها في خلق الإنسان وفصول أخرى في مسائل الفقه والدين. والكتاب مفعم بالنوادر والملح التي تدور حول ما ذكره من أصناف الحيوان وطباعها وما قيل فيها من الشعر العربي.

البيان والتبيين:

وهو أفضل آثار الجاحظ وأشهرها على الإطلاق. وتدرج موضوعاته تحت بابين رئيسيين: الأول: الموضوعات الجادة كالخطابة وما يتصل بها والبلاغة والبيان والشعر والرسائل والوصايا والمحاورات والنسك والقصاص. الثاني: الموضوعات الهزلية: وتتضمن الحكمة التي تصدر عن لا يتوقع الناس صدورها منهم كالحق ورعاة الغنم والموسوسين وغيرهم، والأقوال المسجوعة لكثير من الأعراب والحضر^(٢).

٢ - ابن قتيبة الدينوري

٢١٣ - ٢٧٦ هـ

معلم كبير من معلمى العربية، ومفكر جليل من مفكرى الإسلام، ومؤلف متشعب الثقافة. كنيته أبو محمد واسمه عبدالله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينوري. قيل إنه لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة. ألف ثلاثمائة كتاب على الرغم من أنه لم يكن من العمرين. كان صاحب فضل ودين كما ألف عدداً من الكتب عن القرآن الكريم

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٧١.

والحديث الشريف ردّها فيها على بعض انحرافات الفلاسفة وعلماء الكلام. عمل في القضاء في مدينة دنيور التي نسب إليها. ومنهجه في التأليف شبيه بمنهج الجاحظ إلا أنه أكثر منه ميلاً للتخصص. وله كتب في الخيل والقرآن والحديث والقراءات والأدب والنقد والنبات والأشربة والأنواء والجراثيم وحكم الأمثال وغير ذلك. وعلى الرغم من أصله الأعجمي فقد كان محباً للعرب مدافعاً عنهم، معترفاً بفضلهم. وله في هذا المجال كتابان هما: الرد على الشعوبية، وهو مطبوع، والثاني فضل العرب على العجم وهو لا يزال مخطوطاً^(١). أما أشهر كتبه فهي: عيون الأخبار، والشعر والشعراء، وأدب الكاتب وتأويل مختلف الحديث، والإمامة والسياسة. وهذه نبذة موجزة عن الكتابين الأولين:

عيون الأخبار: وهو في عشرة فصول سمى كل فصل منها كتاباً وهي: كتاب السلطان، وكتاب الحرب، وكتاب السؤدد، وكتاب الطبائع، وكتاب العلم، وكتاب الزهد، وكتاب الإخوان، وكتاب الخوائج، وكتاب الطعام، وكتاب النساء. والكتاب في منهجه مثل أعلى لفن التأليف في عهد صاحبه، وهو في ذلك يفوق الجاحظ ويتقدم عليه، فقد برئ كتابه هذا من الاستطراد الذي كان يقع فيه الجاحظ^(٢).

الشعر والشعراء: ويحتوى على تراجم المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم ويدخل في ذلك أشهر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام إلى أيام المؤلف وأمثلة من أشعارهم. والكتاب مطبوع متداول منذ مدة طويلة^(٣).

٣ - أبو العباس المبرد

٢١٠ - ٢٨٦ هـ

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، عالم جليل من علماء الأدب واللغة والأخبار

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ١٨٥.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٩٨ جرجي زيدان.

بصرى المولد، بغدادى الحياة، والوفاء. كان كثير الحساد، وهو ثقة في الرواية وحسن المحاضرة.

وهو من العلماء الذين لم يتولوا أى منصب رسمى، وكان الشعراء يمدحونه لفضله. كان معاصراً لأبى العباس ثعلب إمام الكوفيين في اللغة والأدب وكان هذا يتحاشى الاجتماع به في مجلس واحد، لأنه لم يكن يستطيع أن يأسر الحضور بمحدثه كالمبرد.

ترك المبرد لنا أربعة وأربعين كتاباً في الأدب والنوادر والأخبار واللغة والنحو، والعروض والبلاغة والأنساب، والتفسير، والعلوم القرآنية والأخلاق^(١).

وأعظم آثار المبرد بلا شك هو كتاب «الكامل» وهذا تعريف موجز بمحتواه: **الكامل**: من أنفس كتب العربية، يعده ابن خلدون واحداً من أربعة كتب لا غنى لطالب المعرفة والثقافة عن قراءتها. وهو شبيه بكتاب البيان والتبيين في الخطبة والتبويب والاستطراد. وهو في أربعة أجزاء في الأدب والأخبار والتاريخ واللغة والنحو والثقافة القرآنية والمواظب والخطب والرسائل وغير ذلك.

٤ — أبو العباس ثعلب

٢٠٠ — ٢٩١ هـ

إمام أهل الكوفة في النحو، كان ومعاصره المبرد فرسى رهان اسمه أحمد بن يحيى بن زيد بن سياد الشيباني بالولاء. محدث راوية وحافظ ثقة، وقد تتلمذ على كثير من الأعلام كابن سلام الجهمي وابن الأعرابي والقواريري وغيرهم.

وكان بدوره أستاذاً لعدد من الأعلام منهم: الأخفش والأنباري، والزهرى وسواهم. وكان تقياً صالحاً، وقد تمنى لو أنه تبخر في علوم الدين بدلاً من النحو، عاش أكثر من تسعين عاماً، وقد صدمته فرس ألقت به في هوة فأودت بحياته.

اعترف المبرد بفضله على الرغم من المنافسة بينها فقال: أعلم الكوفيين ثعلب. ذكر المترجمون له أنه ترك أربعة وعشرين كتاباً طبع منها ما لا يقل عن عشرة كتب، هى: المجالس وهو في جزأين، والفصيح، وقواعد الشعر، ومعانى الشعر، وشرح ديوان زهير،

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٢٠٧.

وشرح ديوان الأعشى، ومعانى القرآن، وإعراب القرآن، وماتلحن فيه العامة، والشواذ. ويُعدُّ كتابه «الفصيح» أكثر مؤلفاته إثارة وأشهرها بين جمهرة العلماء والدارسين في المشرق والمغرب. ومن الخطاطين من تكسَّب بنسخه وبيعه لنفاسته^(١).

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٢٢١.

الفصل الثالث العصر العباسي الثالث من ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ

و يبدأ باستقرار الدولة البويهية في بغداد سنة ٣٣٤ هـ وينتهي بدخول السلاجقة إليها سنة ٤٤٧ هـ، وقد سمي هذا العصر بالعصر البويعي، ويعدّه المؤرخون العصر الإسلامي الذهبي من حيث نضج العلوم على اختلاف موضوعاتها ففيه ظهرت الكتب الوافية في اللغة وعلومها، والتاريخ والجغرافيا والأدب والفلسفة.

وفي هذا العصر تعددت مراكز العلم والأدب وزاد انتساب العلماء إلى مواطنهم فكثرت أسماء البخاري والنيسابوري والرازي والبغدادى، ونحوها بعد أن كان العلماء ينسبون قبل ذلك إلى أصولهم كالحميري والقرشي، والفارسي أو إلى حرفهم كالنحاس والزجاج. وكان البويعيون لا يستوزرون أو يستكتبون إلا العلماء والشعراء والكتاب، كما اشتهر بعض ملوكهم بالأدب والشعر كعضد الدولة وعز الدولة وغيرهما.

ومن الدول التي عاصرت دولة بني بويه:

الدولة السامانية في تركستان، والدولة الزيرية في طبرستان وجرجان، والدولة الغزنوية في أفغانستان والهند، والدولة الحمدانية في الشام والموصل، والدولة المروانية في بلاد الأندلس، والدولة الفاطمية في المغرب ومصر^(١).

سمات هذا العصر ومميزاته

يمتاز هذا العصر بنضج العلوم، وظهور المعاجم اللغوية واستقرار الكتابة الإنشائية على قواعد وأصول أصبح يقلدها أهل العصور التالية، وقد نضجت الفلسفة وتآلفت جماعة إخوان الصفا، واستقرت قواعد العلوم الطبيعية والطب وظهرت رسائل إخوان الصفا واتسع خيال

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٥٧.

الشعراء وبرز الشعر الفلسفي، ونضج النقد الشعري أو الأدبي، واستقرت أبواب الشعر، وظهرت الروايات والقصص الحماسية الخيالية، ونما فن التاريخ والجغرافيا، وظهرت المكتبات الكبرى في مصر والعراق والأندلس وكانت الواحدة منها تشتمل على مئات الآلاف من المجلدات وفي هذا العصر أخذت الموسوعات في الظهور بعد أن وضع أساسها الفارابي.

وقد تعددت العلوم في هذا العصر حتى زادت على ثلاثمائة علم قسمها صاحب مفتاح السعادة إلى ستة أبواب هي: العلوم الخطية، والعلوم اللسانية، والعلوم الباطنة عما في الأذهان، والعلوم المتعلقة بالأعيان، والعلوم الحكيمة، والعلوم الشرعية، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره.

وفي هذا العصر ظهر من العلوم ما لم يصل المعاصرون إلى مثله في القرن التاسع عشر الميلادي وذلك كالتدبير المنزلي، والسياسة، والاقتصاد السياسي، وعلم العمران، وعلوم الحرب وغير ذلك^(١).

الشعر والشعراء

تسابق ولادة الأمر في هذا العصر في نصرة الشعر وتقريب الشعراء وتكريمهم مما أدى إلى شحذ قرائحهم وكثرة مدائحهم وإطالة قصائدهم وتفرع أساليبها وتنوعها وقد امتاز الشعر في هذا العصر بمزايا نجلها فيما يلي: (٢)

١ - تحرر الشعراء من قيود الشعر التقليدية القديمة، وقد حل كل من المتنبي والمعري لواء الدعوة إلى التجديد، فأقبل الشعراء على نظم الشعر كماتوجيه القرينة فأكثرُوا من قوله في الحكمة وفلسفة الوجود.

٢ - زاد اقتباس الشعراء للأفكار الفلسفية وعربوا كثيراً من الحكم عن اليونانيين وأمثالهم.

٣ - ولدت أغراض جديدة كالإخوانيات والعتاب وشكوى الدهر والمداعبات والسلطانيات والمقارضات وصار النظم في وصف الزهر والغزل فيه غرضاً مستقلاً.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٦٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٣.

٤ - غالى الشعراء في المبالغة الشعرية فأتوا في مجالها بما لم يسبقهم إليه أهل العصور السابقة حتى خرجوا من الممكن إلى المستحيل.

٥ - طالت القصائد حتى بلغ بعضها المئات من الأبيات.

٦ - زادت إجادة الشعراء في الوصف وتوسعوا فيه وأصبح عرضاً خاصاً.

٧ - زادت أبحر الشعر وأوزانه بعد أن تولدت فيه بحور لم تكن من قبل، ولعل الموشحات، وهي من مبتكرات الأندلسيين من أجل الأوزان المستحدثة في الشعر في هذا العصر.

أشهر الشعراء

١ - أبو الطيب المتنبي

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكندي، ولد في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ في محلة كنده. كان محباً للعلم والأدب قوى الحافظة، مطبوعاً على الشعر، طموحاً على الهمة، كبير النفس. اتصل بسيف الدولة الحمداني وصحبه تسع سنوات وشهد معاركه مع الروم، ثم فارقه إلى كافور الإخشيدي ومدحه ثم هجاه بعد أن يش من تحقيق ما كان يطمح إليه على يديه. وقد عرض له فاتهك الأسدي في ثلة من أصحابه فاقتتلا حتى قتل المتنبي سنة ٣٥٤ هـ ولم يكن معه سوى ابنه مُحَسَّد وغلّامه مفلح، وقد قتلا معه عند دير العاقول من سواد بغداد. أما شعره ففي الدرجة الأولى من المتانة والبلاغة والإبداع. لم يدع باباً من أبواب الشعر إلا طرقه وأجاد فيه.

ولم يُشغَل الدارسون والباحثون بشعر شاعر كما شغلوا بالمتنبي وشعره، فقد ألفت فيه دراسات كثيرة قديماً وحديثاً.

ومن عني بدراسة شعره من القدماء: أبو منصور الثعالبي في «يتيمة الدهر» وابن رشيق في «العمدة» وأبو سعيد العميد في «الإبانة عن سرقات المتنبي» ومحمد بن حسن الحاتمي الذي كشف عن أثر حكمة أرسطو في شعر المتنبي.

وقد درس شعره من المستشرقين كل من راسكي، ودي ساسي، وبولين، وبروكلمان، وهر، ونيكلسن.

وقد جمع ديوانه ورتب حسب الحروب الأبجدية وشرحه كثيرون، وطبع في كثير من البلدان. ومن أشهر شروحه شرح ابن جني المتوفى سنة ٣٩٣ هـ وهو في ثلاثة مجلدات (١).

نماذج من شعره:

من قصيدة له يصور فيها طموحه واعتزازه بنفسه:

فؤاد ما تسليه المدام وعيش مثلي تهب اللثام
وما أنامهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
وللمتنبي فخر كثير فيه مبالغة وتعظيم واحتقار لبني دهره، ومن ذلك قوله من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة (٢):

واحر قلباه ممن قلبه شيم مالى اُكُتُم حُباً قد يرى جسدى
إن كان يجمعنا حب لغركه يأعدل الناس إلا في معاملتى
أعيذها نظرات منك صادقة وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى
أنام ملء جفونى عن شواردها إذا رأيت نيوب الليث بارزة
الخيال والليل والبيداء تعرفنى وقال من مقطوعة له في الحكمة (٣):

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٨٥.

(٢) ديوان المتنبي ط دار صادر بيروت ص ٣٣١.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٧٤.

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بُغْصَةً كلُّهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
بما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر إحسانا
وكأننا لم يرض فينا يريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن تتعادي فيه وأن تتفانى

٢ - أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ هـ

هو الحارث بن أبى العلاء سعيد بن حمدون الحمداني ابن عم سيف الدولة، شاعر أمين وفارس مغوار، وشعره بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة والحلاوة والظرف وعزة الملك.

كان المتنبي يشهد له بالتقدم، ويتحامى جانبه، ولكنه لم يمدحه. وكان سيف الدولة يستصحبه في غزواته، ويستخلفه في أعماله.

أسره الروم وحلوه إلى القسطنطينية، ومكث في الأسر أربع سنوات. وقد نظم في خلالها عدداً من القصائد التي صور فيها مرارة الأسر وحنينه إلى الوطن، وقد عرفت هذه القصائد بالروميات. وهى من أجود شعره.

ولما مات سيف الدولة خرج أبو فراس على ابنه أبى المعلى، وجرت بينهما حرب انتهت بمصرع أبى فراس وهو في السابعة والثلاثين من عمره.

جمع شعره في ديوان طبع لأول مرة في بيروت سنة ١٨٧٣ م وقد ترجم له صاحب يتيمة الدهر. وقد عني المستشرق الألمانى دوفورك بترجمة بعض أشعاره إلى الألمانية

نماذج من شعره:

قال من قصيدة له وهو أسير في القسطنطينية وقد سمع هديل حمامة على شجرة بالقرب

من نافذة سجنه: (١)

أقول وقد ناحت بقري حمامة
معاذ الهوى ماذا طارقة النوى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
أيضحك مأسور وتبكي طليقة
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّة
وقال يتغزل من قصيدة له في الفخر، وهي من روميته: (٢)
أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
بل أنا مشتاق وعندى لوعة
إذا الليل أضواني بسطت يدي الهوى
تسألني من أنت؟ وهي عليمّة
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
فقلت لها: لو شئت لم تتعنى
فقلت: لقد أرى بك الدهر بعدنا

٣ - الشريف الرضي

المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر، ينتهي نسبه إلى موسى الكاظم ومنه إلى الحسين بن علي، ولد في بغداد سنة ٣٥٩ هـ، وكان أبوه نقيب الأشراف الطالبيين. ثم آلت إليه النقابة سنة ٣٨٨ هـ وأبوه حتى يرزق.

كان عالماً بعلوم القرآن واللغة والنحو، وله فيها مؤلفات نافعة. قيل فيه إنه أشعر قريش. توفي ببغداد سنة ٤٠١ هـ فرثاه عدد من الشعراء.

وله ديوان كبير رواه أبو حكيم الخيري. وقد طبع في الهند في مجلد واحد كبير مرتب على

(١) ديوان أبي فراس - دار صادر بيروت ص ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٧.

حروف المعجم، وأعيد طبعه في بيروت وغيرها من العواصم العربية^١.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خطي البحتري في مدح المتوكل^٢:

لله يوم أطلعتك به العلا
لما سمّت بك عزة مومونة
وبرزت في برد النبي وللهدى
وكأن دارك جنة حصاؤها
في موقف تغضى العيون جلالة
وكأنما فوق السرير وقد سما
والناس إما راجع متهيّب
مالوا اليك محبة فتجمّعوا
وطعنت في غرر الكلام بفيض
وعرست في حبّ القلوب مودة
وأنا القريب اليك فيه ودونه
عطفاً أمير المؤمنين فإننا
مابيننا يوم الفخار تفاوت
إلا الخلافة ميّزتك فإني

علماً يُزاوئ بالعيون ويُرشق
كالشمس تبهر بالضياء وتومق
نور على أسرار وجهك مُشرق
الجادى أو أنماطها الاستبراق
فيه ويعثر بالكلام المنطق
أسد على نشزات غاب مطرق
مما رأى، أو طالع متشوّق
ورأوا عليك مهابة فتفرّقوا
لا يستقل به السنن الأزرق
تزكو على مرّ الزمان وتورق
ليدنى عدوك طود عز أغتق
في دوحه العلياء لا نتفرق
أبداء، كلانا في المعالي مُغرق
أنا عاطل منها وأنت مطوّق

٤ - أبو العلاء المعري

٣٦٢ - ٤٤٩ هـ

هو خاتمة شعراء هذا العصر. وهو شاعر حكيم فيلسوف، اسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي. ولد في معرة النعمان سنة ٣٦٢ هـ في أسرة اشتهرت بالعلم والأدب. أصيب بالجذري وهو صغير فكف بصره. لقنه أبوه النحو واللغة في حديثه، ثم قرأ

على جماعة من علماء المعرفة. ولما بلغ العشرين عمداً إلى سائر العلوم اللغوية والأدب فأكتسبها.

وقد روى عن قوة حافظته روايات لا تكاد تصدق وكان مفطوراً على الشعر.

كان له وقف يرتزق منه وينفق من ريعه على من يخدمه ويقرأ له.

درس فلسفة اليونان على رهبان اللاذقية ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ فاستقبله علماؤها بالحفاوة، واطلع فيها على فلسفة الهند وفارس، ثم زهد في الدنيا وعزم على الاعتزال فغادر بغداد سنة ٤٠٠ هـ، وأتى المعرة ولزم بيته وسمى بنفسه «رهبين المحبسين» وقد تفرغ للنظم والتأليف، وهجر أكل اللحم واقتصر على أكل النبات.

وقد انتقل إلى جوار ربه سنة ٤٤٩ هـ بعد أن قضى في عزله بضعاً وأربعين سنة.

لم يتكسب بشعره كغيره من الشعراء. وقد ترك لنا عدداً من المصنفات، أهمها: (١)

١ - **اللزوميات**: وهو ديوان شعر كبير التزم فيه حرفين في القافية، وضمّنه آراءه في الوجود والخليقة والنفس والدين. وتتسم أشعاره في هذا الديوان بمسحة تشاؤمية وقد نقل أمين الريحاني بعض رباعياته إلى الانجليزية ونشرها في امريكا منذ سبعين سنة. وترجم جورج سلمون بعض شعره إلى الفرنسية ونشرها في باريس سنة ١٩٠٤.

٢ - **سقط الزند**: وهو ديوان آخر نظمته قبل العزلة وقد طبع عدة مرات.

٣ - **رسالة الغفران**: وهي رسالة فلسفية خيالية كتبها في عزله، وضمّنها انتقاد شعراء الجاهلية والإسلام والأدباء والرواة والنحاة الذين سبقوه بأسلوب روائي خيالي لم يسبقه إليه أحد.

وقد تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك كما فعل دانتي شاعر إيطاليا في «الكوميديا الإلهية» وملتن الإنجليزى في «الفردوس المفقود» لكن أبا العلاء سبقهما ببضعة قرون، وليس من المستبعد أن يكونا قد تأثرا به.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٠٢.

وقد طبعت هذه الرسالة في مصر وغيرها من البلاد العربية والأجنبية عدة مرات (١) نماذج شعر أبي العلاء:

قال يرثى ابن عمه على بن المهذب وهي من عيون الرثاء في الشعر العربي (٢):

أحسنُ بالواجِدِ مِنْ وَجْدِهِ
وَمَنْ أْبَى فِي الرُّزْءِ إِلَّا الْأَسَى
فَلْيَذْرِفِ الْجَفْنَ عَلَى جَعْفَرٍ
وَالشَّيْءُ لَا يَكْثُرُ مُدَاخَعُهُ
لَوْلَا غَضِي نَجِدَ وَقُلَامُهُ
لَيْسَ الَّذِي يُبْكِي عَلَى وَصْلِهِ
كَانَ الْأَسَى فَرَضاً لَوْنِ الرَّدَى
هَلْ هُوَ إِلَّا طَالِعٌ لِلْهُدَى
يَا ذَهْرُ يَا مُنْجِزُ إِبْعَادِهِ..
أَيُّ جَدِيدٍ لَكَ لَمْ تُبْلِهِ
تَسْتَأْسِرُ الْعُقْبَانَ فِي جَوْهَا
أَرَى ذَوَى الْفَضْلِ وَأَضْدَادَهُمْ
لَوْ عَرَفَ الْإِنْسَانُ مَقْدَارَهُ
أَمْسَ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبِهِ
أُضْحَى الَّذِي أُنْجِلَ فِي سِتِّهِ
وَلَا يُبَالِي الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ
تَشْتَاقُ أَيْارَ نَفْسِ الْوَرَى
كَمْ صَائِنٍ عَنْ قَبْلِهِ خَدَّه
وَحَامِلٍ ثِقْلَ الثَّرَى جِيدَهُ
وَرُبَّ ظُلْمَانٍ إِلَى مَوْرِدٍ
فِيَا أَخَا الْمَفْقُودِ فِي خَسَةِ

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٠٥.

(٢) سقط الزند - السفر الثاني - ص ١٠٠٦.

سَلَّمَ إِلَى اللَّهِ فَكُلُّ الَّذِي سَاءَكَ أَوْ سَرَّكَ مِنْ عِندِهِ
إِنَّ الَّذِي الْوَحْشَةُ فِي دَارِهِ تُؤْنَسُ الرَّحْمَةُ فِي لَحْدِهِ
لَا أَوْحَشْتُ دَارَكَ مِنْ شَمْسِهَا وَلَا خَلَا غَابُكَ مِنْ أَشْدِيدِ
وقد عرف هذا العصر بالإضافة إلى من ترجمنا لهم من الشعراء عدداً كبيراً من الشعراء
المرموقين الذين زينوا دواوينهم رفوف المكتبة العربية على مر العصور ومنهم:
كشاجم الرمل، والسري الرفاء، والوأواء الدمشقي، وأبو الحسن السلمي المخزومي، وأبو
الفرج البغفاء، وأبو العباس النامي، وابن نباتة السعدي، وصريع الدلاء، وابن الحجاج،
وابن سكرة الهاشمي، وابن زريق البغدادي صاحب العينية المشهورة التي مطلعها:
لَا تَعْدِلِيهِ فَإِنَّ الْعَدْلَ يُولَعُهُ قَدْ قَلَبْتُ حَقّاً وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

الكتابة الإنشائية

في هذا العصر انتقلت زعامة الكتابة إلى ابن العميد، وقد امتازت طريقتة في الكتابة
بما يلي:

- ١ - التزام السجع وهو ثمرة من ثمار التأنيق. وقد أتقنه أدباء هذا العصر، ورغبوا الناس
فيه، وتسابقوا في مضماره وقد تكلفه بعضهم فجاء بارداً ليس له ما يبرره.
- ٢ - الجناس والبديع. وهما لونان من ألوان الحلية اللفظية التي تكسب العبارة رونقاً
وجالاً.
- ٣ - شيوع الخيال الشعري حتى أصبح قريباً مما يسمى في عصرنا الحاضر بالشعر المنشور.
- ٤ - الإكثار من تضمين مراسلاتهم للأمثال والحكم والطرائف والعبارات العلمية
والتاريخية التي تفتقر إلى الشرح.
- ٥ - الإكثار من الاستشهاد بالشعر، وقد بالغ بعضهم في ذلك حتى زاد الشعر في كتاباتهم
عن النثر.
- ٦ - أصبح للرسائل نظام خاص يلتزمه الكتاب فالرسالة غالباً تبدأ بمخاطبة المرسل إليه
بلقبه أو نعتة بعد الإشارة إلى كتابه. وقد يأتي اللقب مشفوعاً بالدعاء. وقد يكون

- الخطاب بصيغة الغائب غالباً، أو بصيغة المخاطب في بعض الأحيان.
- ٧ - تعددت أغراض الرسائل فصارت تقسم إلى تهنئة وتعزية ومديح وثناء وإلى إخوانية
وسلطانية وغير ذلك.
 - ٨ - الالتزام بتقديم الحمدة والصلاة على النبي في مقدمات الكتب والخطب، وختمها
بآية يحسن الختام بها كقولهم «وماتوفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب» أو نحو
ذلك.
 - ٩ - اختصت كل طبقة من الوجهاء ورجال الدولة بنعوت خاصة بها ضمنها الكتاب في
رسائلهم الموجهة إليهم.
 - ١٠ - أصبح الإنشاء فناً له ألفاظ خاصة سموها الألفاظ الكتابية لا يتجاوزها الكتاب إلى
سواها. وتولدت فيه مصطلحات خاصة لأساليبه وعباراته.^(١)

نموذج للكتابة في هذا العصر

كتب ابن العميد إلى صاحب بن عباد يصف له البحر، فرد عليه صاحب برسالة
منها: ^(٢)
«وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه،
وعاين من مراكبه، ورآه من طاعة آلاتها للرياح كيف أرايتها، واستجابة أدواتها لها متى
نادتها، وركوب الناس أشباحها والخوف بمراي ومسمع، والمنون بمرقب ومطلع، وعرفت
ماقاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته، وحصولي على مساعدته ومَنْ رأى بحر الأستاذ
كيف يزخر بالفضل، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يُفِيته من
منظر البحر، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله، واستغظامه لأهواله.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي / ج ٢ عمر فروخ ص ٥٦٢.

سَلَّمَ إِلَى اللَّهِ فَكُلُّ الَّذِي سَاءَكَ أَوْ سَرَّكَ مِنْ عِندِهِ
إِنَّ الَّذِي الْوَحْشَةُ فِي دَارِهِ تُؤْنَسُهُ الرَّحْمَةُ فِي حَلِيهِ
لَا أَوْحَشْتُ دَارَكَ مِنْ شَمْسِهَا وَلَا خَلَا غَائِبُكَ مِنْ أَشَدِّهِ
وقد عرف هذا العصر بالإضافة إلى من ترجمنا لهم من الشعراء عدداً كبيراً من الشعراء
المرموقين الذين زينوا دواوينهم رفوف المكتبة العربية على مر العصور ومنهم:
كشاجم الرمل، والسري الرفاء، والوأواء الدمشقي، وأبو الحسن السلامي الخزمي، وأبو
الفرج البغداد، وأبو العباس النامي، وابن نباتة السعدي، وصريع الدلاء، وابن الحجاج،
وابن سكرة الهاشمي، وابن زريق البغدادى صاحب العينية المشهورة التي مطلعها:
لَا تَعْدِلِيهِ فَإِنَّ الْعَدْلَ يُولُّعُهُ قَدْ قَلَبَ حَقّاً وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

الكتابة الإنشائية

في هذا العصر انتقلت زعامة الكتابة إلى ابن العميد، وقد امتازت طريقتة في الكتابة
بما يلي:

- ١ - التزام السجع وهو ثمرة من ثمار التأنيق. وقد أتقنه أديبا هذا العصر، ورغبوا الناس
فيه، وتسابقوا في مضماره وقد تكلفه بعضهم فجاء بارداً ليس له ما يبرره.
- ٢ - الجناس والبديع. وهما لونان من ألوان الحلية اللفظية التي تكسب العبارة رونقاً
وجالاً.
- ٣ - شيوخ الخيال الشعري حتى أصبح قريبا مما يسمى في عصرنا الحاضر بالشعر المنثور.
- ٤ - الإكثار من تضمين مراسلاتهم للأمثال والحكم والطرائف والعبارات العلمية
والتاريخية التي تفتقر إلى الشرح.
- ٥ - الإكثار من الاستشهاد بالشعر، وقد بالغ بعضهم في ذلك حتى زاد الشعر في كتاباتهم
عن النثر.
- ٦ - أصبح للرسائل نظام خاص يلتزمه الكتاب فالرسالة غالباً تبدأ بمخاطبة المرسل إليه
بلقبه أو نعتة بعد الإشارة إلى كتابه. وقد يأتي اللقب مشفوعاً بالدعاء. وقد يكون

- الخطاب بصيغة الغائب غالباً، أو بصيغة المخاطب في بعض الأحيان.
- ٧ - تعددت أغراض الرسائل فصارت تقسم إلى تهنية وتعزية ومديح وثناء وإلى إخوانية
وسلطانية وغير ذلك.
- ٨ - الالتزام بتقديم الحمدة والصلاة على النبي في مقدمات الكتب والخطب، وختمها
بآية يحسن الختام بها كقولهم «وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب» أو نحو
ذلك.
- ٩ - اختصت كل طبقة من الوجهاء ورجال الدولة بنوع خاص بها ضمنها الكتاب في
رسائلهم الموجهة إليهم.
- ١٠ - أصبح الإنشاء فناً له ألفاظ خاصة سموها الألفاظ الكتابية لا يتجاوزها الكتاب إلى
سواها. وتولدت فيه مصطلحات خاصة لأساليبه وعباراته (١).

نموذج للكتابة في هذا العصر

كتب ابن العميد إلى صاحب بن عباد يصف له البحر، فرد عليه صاحب برسالة
منها: (٢)

«وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه،
وعاين من مراكبه، ورآه من طاعة آلاتها للرياح كيف أرادت، واستجابة أدواتها لها متى
نادتها، وركوب الناس أشباحها والخوف بمراى ومسمع، والمنون بمرقب ومطلع، وعرفت
ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته، وحصولي على مساعدته وقمن رأى بحر الأستاذ
كيف يزخر بالفضل، وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيها يُفِيته من
منظر البحر، ولا فضيلة له عندى أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله، واستعظامه لأهواله.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٠٩ - ص ٣١٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي / ج ٢ عمر فروخ ص ٥٦٢.

أهم الكتاب والمؤلفين في هذا العصر
ومصنفاتهم

١ - أبو الفرج الأصفهاني

٢٨٤ - ٣٥٦ هـ

هو أبو الفرج علي بن الحسين، عرني أموي، يتصل نسبه بمروان بن الحكم. ولد في أصفهان سنة ٢٨٤ هـ، ونشأ في بغداد، وتوفي فيها سنة ٣٥٦ هـ. كان قوي الحافظة، وعى في ذاكرته كثيراً من الأشعار والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث والأنساب بأسانيدها ورواتها. وكان متبحراً في اللغة والنحو والسير والمغازي وعلوم الجوارح والطب والبيطرة والنجوم وغيرها. وضع كثيراً من الكتب النافعة أشهرها «كتاب الأغاني» وقد ضاع معظم كتبه، وإليك تعريفاً بهذا الكتاب (١).

كتاب الأغاني:

لم ينل كتاب في العربية حظاً من الشهرة والذيع مثل كتاب الأغاني. والكتاب جدير بهذه المنزلة، فهو جيد رائع يدل على ملكة أصيلة في التأليف وسعة الأفق وتنوع الثقافة عند صاحبه الذي أنفق في تأليفه خمسين سنة كاملة. وتكمن قيمة هذا الكتاب في تنوعه وثرائه وتشعبه وشموله وتخصصه واستطراده. فقد جمع الكتاب مادة وفيرة وهو مزيج من الموسيقى والأدب، فن خلال حديثه عن الموسيقى جمع الأصوات المائة التي اختارها المغنون للرشيده. والكتاب أكبر مرجع عرني في الغناء وتاريخه وقواعده وآلاته الموسيقية. وهو موسوعة أدبية تقع في واحد وعشرين جزءاً. وكان المؤلف إذا ما ذكر صوتاً انطلق من الحديث عنه

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٣١٩.

إلى الحديث عن المغني وأخباره، والشاعر وأشعاره ومن اتصل به من الخلفاء والملوك. وهو يدعم روايته بالإسناد. والكتاب مفعم بأخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ومفاخرهم وحياتهم الاجتماعية.

ومما يؤخذ على هذا الكتاب اشتماله على بعض القصص المستهجنة والحكايات الخليعة والأشعار البذيئة، ولكن يشفع له أنه لم يكن الكتاب الوحيد الذي تفرد بذكر مثل هذه الموضوعات من كتب الأدب العربي القديم.

ومن مآخذه كذلك اغفاله ترجمة بعض كبار الشعراء، من أمثال أبي العتاهية وأبي نواس وابن الرومي.

وقد لجأ بعض الأدباء إلى اختصار هذا الكتاب وتخليصه من الأسانيد ومفاتيح الموسيقى ومما يחדش الحياء.

ومن فعل ذلك الحسين بن علي المغربي المتوفى سنة ٤١٨هـ، وابن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ، وابن منظور المصري المتوفى سنة ٧١١هـ، والشيخ محمد الحضري المتوفى سنة ١٩٢٧، وقد سمي مختصره «تهذيب الأغاني» وهو في سبعة أجزاء. ومهما يكن من أمر فإن كتاب الأغاني يظل قمة من قمم التأليف في الأدب العربي ومورداً سائغاً للدارسين والمتأدبين^(١).

٢ - أبو هلال العسكري

المتوفى سنة ٣٩٥هـ

هو أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تلميذ سمييه أبي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري اللغوي. ومن أجل ذلك وقع الالتباس بينهما كثيراً. تلقى أبو هلال العلم في بغداد والبصرة وأصفهان، وتوفى سنة ٣٩٥هـ، بعد وفاة أستاذه بثلاثة عشر عاماً^(٢). ولأبي هلال كثير من الكتب أشهرها:

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٣٢٥

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٢٨.

١ - كتاب الصناعتين: وفيه يتحدث عن صناعاتي النظم والنثر. وقد طبع لأول مرة سنة ١٩٥٢م.

٢ - كتاب جهرة الأمثال: وقد طبع في بومباي سنة ١٣٠٦هـ، وفي مصر على هامش كتاب الأمثال للميداني سنة ١٣١٠هـ.

٣ - الثعالبي

المتوفى سنة ٤٢٩هـ

هو أبو منصور عبد الملك بن اسماعيل النيسابوري الثعالبي، كان يصنع الفراء من جلد الثعالب. شاعر مطبوع وكاتب بليغ. له مؤلفات كثيرة أكثرها في الأدب. قام بتدوين الكثير من أخبار العصر العباسي الثالث وخصوصاً ما يتصل بالشعر والأدب. ترك ما لا يقل عن ستة وثلاثين كتاباً، أشهرها:

١ - يتيمنة الدهر في محاسن أهل العصر: وتشتمل على أخبار الشعراء المائة الرابعة للهجرة، وهو في أربعة مجلدات، وقد قسم الكلام فيه عن الشعراء وفقاً للأقاليم التي نشأوا فيها.

ومما يؤخذ على المؤلف في هذا الكتاب التزامه بالعبارة المسجوعة وإغفاله ذكر سنوات وفاة أغلب من ترجم لهم من الكتاب والشعراء.

٢ - فقه اللغة: وهو معجم معنوي جمعت فيه المعاني المتقاربة والمترابطة في باب واحد مع بيان الفرق بينها أو تدرجها أو تفرعها^(١).

الشریف المرتضى

المتوفى سنة ٤٣٦هـ

هو علي بن طاهر من سلالة موسى الكاظم، انتهت إليه نقابة الطالبين في بغداد،

وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر وهو أخو الشريف الرضى. من أهم تصانيفه: نهج البلاغة: وقد جمع فيه ما ينسب إلى الإمام على بن أبي طالب من خطب وأقوال. وهو من أهم كتب الأدب لما حواه من بلاغة الأسلوب ودقة التعبير والحكم في الأقوال. غير أن في الكتاب خطباً ليست للإمام بدليل اختلاف أسلوبها ومخالفة معانيها لعصره. والكتاب مطبوع متداول، وقد عني بشرحه عدد من الأدباء والعلماء منهم ابن أبي الحديد، والشيخ محمد عبده^(١).

٥ - ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦هـ

هو أبو العباس الحسن بن رشيق من أهل القيروان. نشأ صائغاً في بلدة المحمدية، ثم تآقت نفسه إلى العلم فهجّر الصياغة إلى الشعر والأدب حتى نبغ فيها. له عدد من المصنفات أشهرها: كتاب العمدة: ويبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو أجل كتاب في هذا الباب. طبع لأول مرة في القاهرة سنة ١٩٠٠م. قال عنه ابن خلدون: «إن كتاب العمدة هو الكتاب الذي تفرد بهذه الصناعة وأعطاه حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله»^(٢).

الروايات والقصص

ظهر في هذا العصر والعصر الذي يليه عدد من الروايات والقصص، وهي قسمان: قسم وضعه العرب، والثاني نقلوه عن غيرهم ثم توسعوا فيه وزادوا عليه. ومن القصص التي وضعوها: قصة عنترة، وقصة البراق وقصة بكر وتغلب، وقصة شيبان مع كسرى أنوشروان، وقصة عمر بن أبي ربيعة، وقصة مليكة ونعم وابن الوزير، وأبو العتاهية وعتب.

أما القصص المنقولة أشهرها: ألف ليلة وليلة، وقد اختلف الباحثون في أصلها وتاريخها، والأشهر أنها منقولة عن الفرس ثم أضافوا إليها وسعوها وغيروها حتى صارت

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٣٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤.

كما انتهت إلينا. وصورتها الحالية ماهي إلا نتيجة ماتم من توسع وإضافة إليها عبر ستة قرون. وأكثر ما أضيف إليها تم في مصر والدليل على ذلك ما ورد فيها من ذكر لحكام المماليك وما تصور من عادات لم تكن معروفة في العصور السابقة، كشرب القهوة ونحوها.

النحو والنحاة في هذا العصر

كثر النحاة في هذا العصر، ولكنهم لم يبتكروا كثيراً في النحو، وأكثر ما صنفوا منه شروح على كتاب سيبويه، أو إعراب، أو نحو ذلك. وقد ضاع أكثر مصنفاتهم. ومن أشهر النحاة: ١ - ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠هـ، وله رسالة في إعراب ثلاثين سورة، وكتاب ليس، وهو في الشواذ.

٢ - أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩هـ، وله كتاب «الواضح في النحو والعربية» وكتاب «الاستدراك على سيبويه» وكتاب «طبقات اللغويين والنحاة في المشرق والأندلس». وقد نشر في القاهرة بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

٣ - ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ، وله كتاب الخصائص في اللغة، وهو بحث فلسفي في اللغة وأصولها واشتقاقها وأحكامها ومصادرها، وما يجوز القياس فيه.

اللغة واللغويون

نبغ في هذا العصر من علماء اللغة طائفة اشتغلوا في ضبط الألفاظ وتدوينها وتعريف معانيها وترتيبها على حروف المعجم، أو على المعاني، وقد عرفوا بأصحاب المعاجم.

المعاجم اللغوية وأصحابها

الصينيون هم أسبق الأمم إلى تأليف المعاجم، وقد وضعوا معجماً يحتوي على أربعين ألف كلمة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وقد وضعه رجل منهم يدعى «باوتشي». أما أقدم معجم لا تيني فهو لرجل يدعى «وارو» المتوفى سنة ٢٨ قبل الميلاد، ثم ظهر بعد ذلك معجم للغة هوميروس ألفه أبولونيوس الإسكندري، ثم ظهر بعده معجم كامل في اليونانية سنة ١٧٧ ميلادية وضعه رجل يدعى يوليوس بولكس. ثم جاء العرب بعدهم،

ولذلك فهم يعدون أسبق الأمم الحديثة إلى وضع المعاجم اللغوية.^(١)

مصادر المعاجم اللغوية

أخذ واضعوا المعاجم مادة كتبهم عن السماع من أفواه العرب في أدوارهم المختلفة، وكان بداية ذلك في البصرة والكوفة حيث كان الرواة كحماد والأصمعي، وأبي عبيدة وسواهم يَرْوُون ما يسمعون ويدونونه في كتب مستقلة، كل موضوع على حدة، ككتاب الإبل وكتاب الخيل وكتاب الشاء، وأسمااء الوحش، وخلق الإنسان والنبات، والشجر والنخيل والمطر وغير ذلك.

و يلحق بذلك ما ألفوه من كتب النوادر في اللغة والغريب وشروح في الشعر والأضداد والأشباه والنظائر.

هذه الكتب وأمثالها كانت أكبر العوامل المساعدة في تأليف المعاجم وتبويبها.

تاريخ المعاجم العربية

كان الخليل بن أحمد أول من رتب ألفاظ اللغة على الأبجدية في كتاب «الفين» ثم تلاه كتاب «الجمهرة» لابن دريد، وكتاب «البارع» لأبي علي القالي.

أما أهم المعاجم التي ظهرت بعد ذلك فهي:

- ١ — التهذيب، للأزهري المتوفى سنة ٣٧٠هـ، وهو جزءان.
- ٢ — المحيط، للصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ، وهو في سبعة مجلدات.
- ٣ — المجمل، لأحمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠هـ، وقد اقتصر فيه على ذكر الألفاظ المهمة المستعملة، وله معجم آخر في ستة أجزاء اسمه «مقاييس اللغة».
- ٤ — الصحاح: للجوهري المتوفى سنة ٣٩٨هـ، وقد ضمنه ما صح سنده من ألفاظ اللغة.
- ٥ — الجامع: للقرظي المتوفى سنة ٤١٢هـ وقد ضاع مع سائر كتبه.
- ٦ — المواعظ: للتياني القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦هـ وقد جمع فيه الصحيح من محتويات

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٥٤.

كتاب العين والجمهرة. لكنه ضاع.

٧ — المحكم والمختص: لابن سيده المتوفى سنة ٥٨٠هـ وهو آخر أصحاب المعاجم التي ظهرت في هذا العصر وأعظمهم. رتب كتابه المحكم في اللغة على ترتيب كتاب العين، وقد قامت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بنشره. أما المختص فهو معجم معنوي مثل فقه اللغة للثعالبي ولكنه أوسع منه، وقد طبع في مصر في سبعة عشر مجلداً.

الفصل الرابع العصر العباسي الرابع من سنة ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ

هو آخر العصور العباسية و يبدأ بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ وانقضاء عهد دولة بني بويه، وينتهي بزوال عصر السلاجقة ودخول المغول بغداد في حوزة المغول سنة ٦٥٦ هـ، بقيادة هولاكو حيث انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر. وفي هذا العصر بدأت الحملات الصليبية على بلاد الشام، وانحلت الدولة الأموية في الأندلس وانقسمت إلى إمارات وبدأ الفرنجة يستعيدون بلاد الأندلس إمارة إمارة و بلداً بلداً حتى أخرجوا المسلمين منها بصورة نهائية سنة ٨٩٧ هـ، ١٤٩٢ م.

وفي هذا العصر انحلت كذلك الدولة الفاطمية في مصر، وقامت الدولة الأيوبية على أنقاضها. وكان ملوك الأيوبيين أكثر تشجيعاً للغة العربية وآدابها من سواهم. وقد اكتسح المغول ديار الإسلام وخرّبوها وأحرقوا مكباتها وقتلوا من أهلها أعداداً غفيرة.

وفي هذا العصر نشأت المدارس النظامية في العالم الإسلامي وتغيرت طرق التدريس. ونشأت المعاجم التاريخية. وأقبل العلماء والأدباء على جمع وتلخيص كثير من الكتب تعويضاً للأمة عما فقدته من كتب في مصر والشام والعراق وخراسان والأندلس بسبب الكوارث الحربية، وهكذا أصبح الكتاب الواحد زبدة عشرات من الكتب. ومن أشهر هذه المعاجم التاريخية:

معجم ياقوت، ووفيات ابن خلكان، وطبقات ابن أبي أصيبعة وسواها. وفي هذا العصر ظهرت المبالغة في العناية بالصناعة اللفظية فوضعوا علم البيان ودونوه وضبطوه حتى صار علماً مستقلاً. وازدهر نتيجة لذلك فن المقامات. وقد امتاز هذا العصر بقلّة ماضع من مؤلفاته بالنسبة للعصور السابقة (١).

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٨.

الشعر في هذا العصر

تغيرت حال الشعر في هذا العصر، وصار الشعراء ينظمون الشعر إرضاء لقرائهم بعد أن كفت الأمراء عن تشجيعهم وإجازتهم، وانصرفوا إلى دراسة الفقه والتصوف وغيرها من العلوم الدينية. وقد تغيرت أغراض الشعر، وقل النابغون من الشعراء. وعلى الرغم من اتساع رقعة الدولة والطول الزمني لهذا العصر، فإنه لم ينبغ فيه من الشعراء نصف مانبع منهم في أي عصر من العصور التي سبقتهم.

وهكذا خمدت ريح الشعر، وكسدت بضاعة الشعراء، وصاروا يجاهدون بطلب الرغد والشكوى من الفقر، كما فعل ابن التعاويذي في مخاطبته عضد الدين بن رئيس الرؤساء بعد أن تجاهل مدائحهم وتغاضى عن مكافأته. (١)

فيا مولاي هل حُذِّثت عني
وأن وظائف التسبيح فوق
وأني قد غنيت عن الطعام
وهل في الناس لو أنصفت خلق
فلا في جملة الأحرار أدعى
وفي هذا العصر نضجت الموشحات الأندلسية، وانتقلت إلى الشرق، وتوسع شعراؤها في وصف المناظر الطبيعية، ووضعوا فن الزجل وعروض البلد.

واتجه الشعراء إلى الأدعية والمدائح النبوية ومدح الخلفاء الراشدين. وقد كثرت المعاني الصوفية واهتم الشعراء بالصناعة اللفظية أكثر من المعنى.

أشهر الشعراء

تكاثرت الشعراء في أطراف الدولة الإسلامية، وقد تكاثروا في مصر أكثر من العصور السابقة. ويرجع ذلك إلى اعتزازها بالخلافة الفاطمية التي دامت أكثر من قرنين، ثم بالدولة الأيوبية بعدها وبعناية سلاطينها باللغة العربية وبلائهم في مقارعة الصليبيين.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢.

ومن أشهر الشعراء في هذا العصر:

١ - الطغرائي المتوفى سنة ٥١٤ هـ

هو فخر الكتاب الحسين بن علي الملقب بالطغرائي نسبة إلى مهنته في أوائل حياته، حيث كان متخصصاً بكتابة الطغرى أو الطرة في أعلى الكتب فوق البسمة بالقلم الغليظ. وتتضمن الطغرى عادة نعوت الملك الذي صدر عنه الكتاب. استوزره السلطان مسعود السلجوقي بالموصل، وكان نابغة عصره في النظم والنثر. وله ديوان شعر كبير، أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه. وقد طبع لأول مرة في الآستانة.

ومن أشهر شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم. ومنها:

أصالة الرأي صانتي عن الخطل

وحليته الفضل زانتي لدى العطل

وهي مشهورة، وقد طبعت مراراً وشرحها وشرها كثيرون، وترجمها المستشرق بوكوك إلى اللاتينية سنة ١٦٦١ م. وأعاد ترجمتها إلى اللغة نفسها المستشرق جولي ثم طبعت سنة ١٧٠٧ م. (١)

أبو اسحق الغزي

المتوفى سنة ٥٢٤ هـ

هو أبو اسحق إبراهيم بن عثمان الكلبي، ولد بغزة من أعمال فلسطين، وتوفي في خراسان. كان يضرب به المثل في جودة شعره، وله ديوان في نحو خمسة آلاف بيت أكثرها في مدح أبي عبدالله مكرم وشاهنشاه البويهى وغيث الدولة وغيرهم. ومن لطيف شعره قوله: (٢)

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة

باب الدواعى والبواعث مُغْلَقُ

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨.

لم يبق في الدنيا كريم يُرتجى
منه النوال، ولا مليح يُعشق
ومن العجائب أنه لا يُشتري
ويُخان فيه مع الكساد ويُسرق

ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ

هو القاضي السعيد هبة الله جعفر بن المعتمد الملقب بسناء الملك. شاعر مصري من الرؤساء النبلاء. وكان في أيامه مجالس للشعراء في مصر يجري لهم فيها مفاهات ومحاورات. وكان هو واسطة عقد هذه المجالس وزينتها. وهو أول من استكثر من الموشحات من شعراء المشرق ومن آثاره:
دار الطراز: وهو ديوان كل شعره من القصائد الموشحة، وقد نشره جودة الركابي في دمشق.^(١)

٢ - عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ

هو أبو حفص عمر بن علي بن المرشد، حموي الأصل، مصري المولد والنشأة والوفاة. كان صوفياً وزمياً جاور بمكة، زمناء، ودفن في سفح المقطم بمصر. يمتاز شعره بكثرة الجناس والبديع. وقد لقي ديوانه عناية خاصة من المتعلمين، وقد شرحه عدد من العلماء منهم: الشيخ حسن البوريني، والشيخ عبد الغني النابلسي وقد ترجمت بعض قصائده إلى اللغتين الألمانية والفرنسية. وشعره مفعم بالرموز الصوفية ومنه قوله في الخمر:^(٢)

شربنا على ذكر الحبيب مُدامةً سكرنا بها من قبل أن تُخلق الكرم
لها البدر كَأْسٌ، وهي شمسٌ يُديرها هلاكٌ وكم يبدو إذا طلعت نجمٌ

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥.
(٢) المصدر السابق ص ١٦.

ولولا شذاها ما اهتديت لحانها
يقولون لي: صفها فأنت بوصفها
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوا
تقدّم كلّ الكائنات حديثها
وقالوا: شربت الإثم، كلا وإنما
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً
على نفسه فليبك من ضاع عمره
ولولا سناها ما تصوّرها الوهم
خبير، أجل عندي بأوصافها علم
ونور ولا نار، وروح ولا جسم
قديم ولا شكل هناك ولا رسم
شربت التي في تركها عندي الإثم
ومن لم يمت سكرأ بها فاته الحزم
وليس له فيها نصيب ولا سهم

٣ - جمال الدين بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ

هو أبو الحسن يحيى بن عيس الملقب بجمال الدين، من أهل صعيد مصر. اتصل بالملك الصالح الأيوبي وهو نائب عن أبيه الكامل بمصر وخدمه فعينه ناظراً في الخزانة وزيراً لنائب دمشق. كانت بينه وبين ابن خلكان المؤرخ مطارحات ومكاتبات. له ديوان طبع لأول مرة في الأستانة مع ديوان الشاعر العباسي عباس بن الأحنف.^(١)

بهاد الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ

هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي المهلب الكاتب. كان من فضلاء عصره، ومن أحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، ومن أكثرهم مروءة وظرفاً. خدم الملك الصالح وأخلص له في أثناء نكبته، فلما عاد الصالح إلى الملك قرّبه. ويمتاز شعره بالركة والظرف وخفة الروح. وكثير منه شائع بين الناس، وفي بعضه مجون لا يبلغ حد الفحش. وقد طبع ديوانه بمصر وغيرها عدة مرات. وترجمه المستشرق الانجليزى «بالمير» إلى اللغة الانجليزية^(٢)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٧.
(٢) المصدر السابق ص ١٨.

من شعره في مخاطبة الذين يكثرون من التشكى من صروف الدهر:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به
إن استردّ فقدماً طالما وهباً
حاسب زمانك في حالتي تصرفه
تحلّه أعطاك أضعاف الذي سلباً
والله قد جعل الأيام دائره
فلا ترى راحة تبقى ولا تعباً
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت
لا تأسفنّ لشيء بعددها ذهباً
فرب مالٍ نما من بعد مرزاة
أما ترى الشمع بعد القطّ ملتهباً؟
وله في مداعة أحد أصدقائه:

لك يا صديق بغلة
تمشى فتحسبها العيون
وتخاف من دبره إذا
مقدار خطوتها الطويلة
اشبهت بها بل أشبهت
تحكى صفاتك في
ليست تساوى خردلة
على الطريق مشكّلة
ما أقبلت مستعجلة
حين تسرع أنمله
كأن بينكما صلة
الثقالة والمهانة والبله

الكتابة الإنشائية في هذا العصر

استمر كتاب العصر العباسي الرابع المبالغة في استخدام الحلية اللفظية حتى خرجوا بها عن المألوف، وأصبحت الكتابة مغلقة على غير المتخصصين والمتبحرين في علوم اللغة والأدب.

(١) ديوان بهاء الدين زهير ص ١٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠.

وقد بالغ بعض المنشئين في استخدام ألوان البديع من سجع وجناس وطباق وإغراب في اللفظ حتى التزموها في كتب التاريخ كما فعل العماد الأصفهاني.
وقد انتهت زعامة الكتابة الإنشائية في هذا العصر إلى القاضي الفاضل، وهذه ترجمته (١).

القاضي الفاضل

المتوفى سنة ٦٩٥ هـ

هو أبو علي عبد الرحيم البيساني، ولد بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين. أخذ العلم عن أبيه ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية وعمل كاتباً في ديوان الظافر.
ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين الأيوبي فساس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل، وتوفى في القاهرة سنة ٦٩٥ هـ.
كان سريع الخاطر، حاضر البديهة حتى قيل إن رسائله زادت على المائة مجلد لم يبق منها إلا نكت مشتتة في مكنتات أوروبا ومصر. (٢)

علوم اللغة وعلمائها في هذا العصر

نضج في هذا العصر من علوم اللغة ما لم ينضج منها في الأعصر الماضية، وتولدت فيه علوم جديدة.
وفيه وضعت أهم كتب النحو والصرف والبيان ومنها: كافية ابن الحاجب، والفيّة ابن مالك، ومفتاح العلوم للسكاكي، وشافية ابن الحاجب، وتصريف العزى.
وفيه نضج فن المقامات على يد أبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري، كما نضج علم اللغة بما ظهر من قواميس كأساس البلاغة للزمخشري وغيره. (٣)

أشهر علماء اللغة في هذا العصر

١ - أبو زكريا التبريزي

المتوفى سنة ٥٠٢ هـ

هو يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٣٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨.

كان عالماً في النحو واللغة. وقد درس الأدب في المدرسة النظامية ببغداد. نشأ في تبريز ورحل إلى مصر في عنفوان الشباب، ثم عاد إلى بغداد حيث مات فيها فجأة. وكانت له موهبة في نظم الشعر: ومن أهم آثاره:

شرح المعلقات، وشرح الحماسة، وشرح ديوان أبي تمام، وشرح سقط الزند، وتهذيب إصلاح المنطق، والوفاء في العروض والقوافي وغير ذلك.^(١)

٢ - الحريري

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري البصري، كاتب مكث وشاعر مقل. مهد أسلوبه لظهور طريقة القاضي الفاضل للكتابة.

ومن أهم ما وصل إلينا من كتبه:

كتاب: مقامات الحريري. وفيه خمسون مقامة رواها أبو زيد السروجي على لسان بطلها الحارث بن همام. جمع فيها المؤلف من اللغة والأمثال والأحاجي مالا غاية بعده.

وقد عُني بها الأدباء من العرب والإفرنج، وقام بترجمتها أكثر من عشرين مستشرقاً من الإنجليز والفرنسيين والألمان. كما نقلت إلى الفارسية والتركية.

درة الخواص في أوهام الخواص: وقد بين فيه الحريري أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناه أو في غير موضعه.^(٢)

كمال الدين الأنباري

المتوفى سنة ٥٧٧ هـ

هو أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن أبي الوفاء سكن بغداد من صباه إلى أن مات. تفقه في المدرسة النظامية، وقرأ النحو فيها.

وله مؤلفات عديدة أشهرها:^(٣)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣.

نزهة الألباء في طبقات الأدباء: وقد ترجم فيه لعلماء النحو والعربية وآدابها الذين ظهوروا منذ عصر صدر الإسلام إلى عصره. وقد رتبته حسب سني الوفاة. وقد اعتمد جرجي زيدان في ترجمته للنحاة والأدباء، في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» على هذا الكتاب.

كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين. وقد طبع عدة مرات.

ابن أبي الحديد

المتوفى سنة ٦٥٥ هـ

هو عبد الحميد بن هبة الله المدائني، ولد في المدائن وتوفي في بغداد. وهو فقيه شاعر نحوي. من أشهر مؤلفاته:

شرح نهج البلاغة: المنسوب للإمام علي، وقد شرحه في عشرين مجلداً. وفي هذا الشرح فوائد دينية وتاريخية وشرعية كثيرة.^(١)

عبد القاهر الجرجاني

المتوفى سنة ٤٧١ هـ

من كبار أئمة النحو واللغة، ومؤسس علم البيان. له مؤلفات كثيرة، أشهرها:

أسرار البلاغة والبيان: وقد طبع في مصر عدة مرات.

دلائل الإعجاز: وهو في علم المعاني، وفيه أبحاث في الشعر والنحو والفصاحة والبلاغة وفروعها وعلومها وقد طبع في مصر بتصحيح الشيخ محمد عبده سنة ١٣٢٠ هـ ثم طبع بعد ذلك عدة مرات.^(٢)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٤٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦.

أبو الفضل الميداني

المتوفى سنة ٥١٨ هـ

هو أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، توفي في نيسابور، كان عالماً باللغة وأمثال العرب، وقد ألف في الأمثال ما لم يبلغ فيه أحد مبلغه. ومن أشهر كتبه: **مجمع الأمثال**: وقد حوى من أمثال العرب ما لم يحوه كتاب قبله، وهو أشهر مرجع في الأمثال العربية حتى الآن^(١).

جار الله الزمخشري

المتوفى سنة ٥٣٨ هـ

وكان امام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير والحديث. ومن أشهر كتبه:

الكشاف عن حقيقة التنزيل: وهو تفسير للقرآن الكريم. وقد عني به كثير من الأئمة ما بين شارح وناقد ومادح ومختصر وملخص. وقد طبع عدة مرات. **أساس البلاغة**: وهو معجم لا مثيل له في طريقته لأنه يبحث في استعمال الألفاظ ومواضعها من الجمل بغض النظر عن معانيها المستقلة أو اشتقاقها. وللزمخشري مؤلفات أخرى عديدة منها: ديوان شعر، ومجموعة من المقامات وغير ذلك^(٢).

يوسف السكاكي

المتوفى سنة ٦٢٦ هـ

هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي. ولد في خوارزم، وفيها توفي. ومن أشهر مؤلفاته:

مفتاح العلوم: وقد تحدث فيه عن علوم الصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض. وقد عني العلماء بهذا الكتاب وتلخيصه. ومن أشهر شروحه **مفتاح المفتاح** للشيرازي. ومن أشهر ملخصاته **تلخيص المفتاح** للقروي خطيب دمشق^(٣).

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٢.

ضياء الدين بن الأثير

المتوفى سنة ٦٣٧ هـ

هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، وهو شقيق عز الدين بن الأثير المؤرخ ومجد الدين بن الأثير المحدث.

تفقه ابن الأثير في الموصل، ودخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ هـ بعد أن زكاه القاضي الفاضل، ثم وزر لابنه الملك الأفضل. وقد توفي في بغداد سنة ٦٣٧ هـ، وعلى الرغم من اشتغاله بالسياسة فقد ترك لنا عدة مؤلفات منها:

كتاب **المثل السائر** في أدب الكاتب والشاعر: وهو مكون من مقدمة ومقالتين. وقد تحدث في المقدمة عن علم البيان، وتحدث في المقالة الأولى عن الصناعة اللفظية، وفي المقالة الثانية عن الصناعة المعنوية.

ومن كتبه: **كتاب الوشى المرقوم** في حل المنظوم، و**كتاب الجامع الكبير**، والبرهان في علم البيان وغير ذلك^(١).

الموسوعات في العصر العباسي الرابع

بدأت الموسوعات في الظهور في العصر العباسي الثالث، لكنها لم تنضج ولم تعدد إلا في هذا العصر:

ومن أشهر مؤلفيها في هذا العصر:

١ — أبو الفرج بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، وقد خلف من المؤلفات ما يزيد على مائة كتاب أهمها:

المنتظم في تاريخ الأمم: وهو موسوعة في التاريخ العام منذ بدء الخليقة إلى ظهور الإسلام ومنه إلى أيام المستنصر بالله العباسي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وهو مرتب حسب السنين. حيث يذكر المؤلف دخول السنة وخلاصة حوادثها، ومن مات فيها، ويرتب أسماؤهم على حروف الهجاء مع خلاصة أخبارهم.

المدھش: وهو موسوعة في القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواعظ^(٢).

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٩.

٢ — فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وله عشرات من المؤلفات في أصول الدين والعقائد، وثمانية في الفلسفة والمنطق، وبضعة مؤلفات في التنجيم وغيره. وأهم كتبه:

مناقب الإمام الشافعي، وتاريخ الدول: وهو في مجلدين^(١).

ومن الموسوعات في هذا العصر:

١ — كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم: وهو في العلوم الدينية وفي الحقوق والأدب والتاريخ والسياسة وعجائب البلدان والخواص والمناظرات والحروب والجهاد وغير ذلك. وقد نسب هذا الكتاب إلى أكثر من واحد من الأدباء.

٢ — أنموذج العلوم: لأبي بكر بن خير البلوي المتوفى سنة ٥٥٩ هـ ويشتمل على أربعة وعشرين علماً. منه نسخة في قينا.

٣ — ينابيع العلوم أو أقانيم التعاليم: وهو في التفسير والحديث والفقه والأدب والطب والهندسة والحساب^(٢).

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٣.

الباب الخامس

العصر الأندلسي

بقلم

الدكتور رجا سمرين

الفصل الأول ١٣٨ - ٨٩٧ هـ

أفلت صقر قریش من سیوف العباسیین، ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس. وكانت آنذاك تمرقها الخلافات بین المغاربة والیمینة، فتمكن عبد الرحمن الداخل بمعونة الیمینة من توحید البلاد ورفع العلم الأموی فوق قرطبة سنة ١٣٨ هـ، فكان ذلك إیداناً بقيام الدولة الأمویة فی الأندلس.

وقد تعاقب على عرش قرطبة من نسله تسعة عشر خليفة فی ٢٨٤ عاما هی عمر الدولة الأمویة فی تلك البلاد.

وبعد ذلك تجزأت الأندلس إلى دو یلات حکمها أمراء عرفوا بملوك الطوائف، ثم توالى على حکمها بعدهم المرابطون والموحدون - وكانوا حکاماً لبلاد المغرب - ثم قوض الملك الإسبانی فردیناند الثالث حکم الموحدين، فلم یبق فی حوزة العرب بعدهم سوى غرناطة وضواحيها حیث حکمها بنو الأحمر إلى أن سقطت فی أیدی الإسبان سنة ٨٩٧ هـ الموافقة لسنة ١٤٩٢ م. وبذلك انحسر الحکم العربی نهائياً عن بلاد الأندلس. وفقد الأدب العربی بفقدھا قاعدة عظيمة من قواعدہ.

ويمکننا بوجه عام أن نقسم العهود العربیة فی بلاد الأندلس إلى ثلاثة عهود:

العهد الأول: عهد الولاة حیث كانت البلاد تحکم من قبل وال یعینه الخليفة الأموی فی دمشق. ویبدأ هذا العهد من سنة ٩٢ هـ وینتهی بنهاية الدولة الأمویة فی المشرق سنة ١٣٢ هـ، وقد اتسم هذا العهد بعدم الاستقرار، وانشغال العرب فیہ بتثبیت أقدامهم فی البلاد. لذا لم یکن فیہ للأدب العربی فی تلك البلاد شأن یذكر.

العهد الثاني: عهد الدولة الأموية الغربية: ويبدأ من سنة ١٣٨ هـ، وينتهي سنة ٤٢٨ هـ، وقد اتسم بالاستقرار السياسي والازدهار العلمي والأدبي. وهو من أزهى العهود الأندلسية.

العهد الثالث: عهد ملوك الطوائف ويبدأ من سنة ٤٢٨ هـ وينتهي سنة ٨٩٧ هـ، وهو عهد الإمارات المتنافسة، ومن أشهرها: إمارة بنى عباد في اشبيلية، وإمارة بنى ذى النون في طليطلة، وإمارة بنى عامر في بلنسية، وإمارة بنى الأحمر في غرناطة، وقد تخلل هذا العهد حكم المرابطين والموحدين. وقد ازدهر الأدب في هذا العصر على الرغم مما أصاب العرب من الضعف السياسي، وذلك بسبب التنافس في تشجيع الأدباء والشعراء بين ملوك هذه الدولات.^(١)

الأدب في الأندلس

لم يكن للعرب في الأندلس أول الأمر أدب خاص بهم يختلف عن الأدب العربي في مهده الأول بلاد المشرق. فقد حمل العرب معهم إلى تلك البلاد عقيدتهم ولغتهم وطرائق معيشتهم وتعبيرهم وعاداتهم وتقاليدهم. وهكذا ظل أدبهم محتفظاً بالطابع العام والخاص للأدب العربي المشرق طوال العهد الأول، وخلال فترة ليست بالقصيرة من العهد الثاني، ولكن لم يلبث الأندلسيون أن خضعوا لعوامل متعددة فعلت فعلها في أدبهم، وأدت بالتالي إلى نشوء أدب أندلسي له طابعه الخاص.

وتتلخص هذه العوامل فيما يلي:

- ١ - البيئة الأندلسية: وهي غنية بالجمال الطبيعي الأخاذ.
- ٢ - الاختلاط بالسكان الأصليين بالتزاوج والتفاعل الدائم في شتى حقول الفكر والعقيدة والعادات والآداب. وقد أدى ذلك إلى نشأة جيل أندلسي جديد يتطلع إلى الحياة بعيون أندلسية لا أثر فيها للتقليد أو الالتزام.
- ٣ - التقلبات السياسية والحروب بين الإمارات المتصارعة من جهة وبين الإشبانية

(١) تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ص ٣١٢.

- ٤ - تشجيع خلفاء العهد الثاني للأدب في الأندلس ومتنافسهم دول المشرق في هذا المجال.
- ٥ - الاستقرار النسبي في عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم وهما من خلفاء العهد الثاني. وقد هباً للأندلس من الحضارة والتقدم في مجال الفكر والعمران والثقافة العميقة ما يعجز القلم عن وصفه.

هذه العوامل ساعدت على ظهور أدب أندلسي خاص ظهرت فيه موضوعات أدبية خاص لم تكن معروفة عند المشاركة. مثل:

- ١ - البكاء على الممالك الزائلة ورثاء المدن والضواحي والقصور.
 - ٢ - العناية بتصوير مجالس اللهو والطرب.
 - ٣ - الإسراف في فن الغزل، وبخاصة التغزل بجمال الطبيعة، والمزج بينها وبين الإنسان، وخلع العواطف على مظاهر الطبيعة المختلفة.
 - ٤ - الحنين إلى الأوطان.
 - ٥ - ابتداء الموشحات والأزجال.
- هذا فيما يتعلق بالشعر، أما النثر فلم يطرأ عليه تغيير يذكر إلا ما كان متصلاً بأدب الرحلات والفلسفة.^(١)

أشهر الشعراء في الأندلس

ابن هانيء الأندلسي

المتوفى سنة ٣٦٢ هـ

هو أبو القاسم محمد بن هانيء الأندلسي، ولد بإشبيلية وشب خليعاً يتكسب بالشعر، ارتحل إلى المغرب، واتصل بالمعز الدين الله الفاطمي، ومدح قائده جوهر الصقلي، وكان من دعاة الدولة الفاطمية. ولما عاد إلى بلده ليأتي بعياله وافته المنية، فأسف المعز لفقده وقال: «كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا»^(٢)

(١) عصور الأدب العربي. د. رجا سميرين وخالد الساكت ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق ص ٥٣.

ومن شعره قوله من قصيدة يمدح فيها جوهراً الصقلي حين فتح مصر ويعبر فيها عن شماته بانتزاع مصر من العباسيين:

تقول بني العباس: هل فُتحت مصرُ
فقل لبني العباس: قد قُضى الأمرُ
وقد جاوز الإسكندرية جوهراً
تُطالعه البُشرى، ويقدّمه النصرُ
وقد أشرفت خيلُ الإله طوالعاً
على الدين والدنيا كما طلع الفجرُ
ومن مبالغاته غير المقبولة قوله في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

ماشئت لا ماشاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهارُ
فكأنما أنت النبي محمدٌ وكأنما أنصاركُ الأنصارُ

ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي. ولد في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ ونشأ بها نشأة مترفة، وقد أتاح له وضعه الاجتماعي أن يتشقف ثقافة عالية. أجاد صناعات الشعر والنثر، وأهله طموحه لأن يصبح وزيراً لابن جهور أمير قرطبة. ولما غضب عليه ابن جهور سجنه، ففر إلى المعتضد بن عباد في اشبيلية ووزر له حتى مات، فوزر لابنه المعتضد، وقضى في اشبيلية بقية عمره. أحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية في الأندلس، وكانت أديبة شاعرة بارعة الجمال، وقد بادلته الحب فترك ذلك أثراً واضحاً في شعره. له ديوان ضخيم الحجم يشتمل على جميع أغراض الشعر المعروفة، وللغزل فيه نصيب كبير.

ومن أشهر أعماله النثرية «الرسالة الهزلية» التي كتبها إلى ابن عبدوس على لسان ولادة، وقد اشبعه فيها تقريراً وسخرية، وضمنها كثيراً من الملح في الأدب والتاريخ. ومن رقيق غزله قوله: (١)

يأليت شعري وعندي في الحب ماليس عندك
هل طال لي لك بعدى كطول لي لي بَعْدُك
سَلَى حياقي أهْبِها فَلَسْتُ أملكُ رَدَّكُ
الدهرُ عيدي لَمَّا أصبحْتُ في الحبِّ عِبْدُك

ابن حمد يس الصقلي المتوفى سنة ٥٢٧ هـ

هو محمد بن عبد الجبار بن حمد يس الصقلي، شاعر عرنى، نشأ في صقلية، وقد ولد فيها سنة ٤٤٧ هـ. اتصل بالمعتمد بن عباد ومدحه. وقد أثر سقوط بلده في أيدي النورماندين في عهد المعتمد في شاعر يته ففاضت بالحنين العذب إلى ملاعب صباه، ومغاني طفولته. كان من أقدر الشعراء في الوصف والحنين. وقد طبع شعره بطابع الحزن والكآبة واليأس. توفي غريباً سنة ٥٢٧ هـ بعد أن كُف بصره. ولابن حمد يس ديوان شعر عرف فضله المستشرقون الطليان فطبعوه، وأحيوا بطبعه ذكر شاعر أنبتت بلادهم وإن كان شعره في غير لغتهم. (٢)

ذكرت صقلية والأسى يُهَيِّجُ للنفس تذكّارها
ومنزلة للتصايب خلّت وكان بنو الظرف غمّارها
فإن كنتُ أُخْرِجْتُ من جتّة فإني أُلْحَدْتُ أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبتُ دموعي أنهارها

(١) عصور الأدب العربي ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٤.

المعتمد بن عباد

المتوفى سنة ٤٨٨ هـ

هو المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن عباد ولد في مدينة باجة سنة ٤٣١ هـ، تولى عرش اشبيلية بعد أبيه المعتضد، فورث عداوة لاحصر لها مع ملوك الطوائف وملوك الإسبان.

حاول أن يقضى على ملوك الطوائف ويضم إليه إماراتهم فاستعان بالإسبان، فنتج عن ذلك أن أضعف نفسه وأضعف ملوك الطوائف، ولم يستفد من هذه الخطة الآثمة غير العدو المشترك. ولما وجد نفسه وحيداً مهدداً استنجد بالمرابطين فأنجده، وانتصروا معه على أعدائه، غير أنهم لم يلبثوا أن طمعوا في البقاء في الأندلس ذات الطبيعة الأخاذة، فانقلبوا عليه، وقتلوا ولديه ونقلوه أسيراً إلى بلاد المغرب فأت أسيراً بائساً في سجنه بمدينة «أغمات» سنة ٤٨٨ هـ.

ومن رائع شعره قوله في «أغمات» وهو أسير. (١)

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
تري بناتك في الأطمار جائعة
يطأن في الطين والأقدام حافية
قد كان دهرك إن تأمره ممثلاً
من بات بعدك في ملك يسر به،
فجاءك العيد في أغمات مأسورا
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
فردك الدهر منهياً ومأمورا
فلما بات بالأحلام مغرورا

وقد عرفت الأندلس عدداً كبيراً من الشعراء غير هؤلاء الذين سبقت ترجمتهم. ومن هؤلاء: ابن سهل الاسرائيلي، وأبو الحسن المريني، وابن باجة، وابن زهر، وابن اللبانة، وأبو حيان، ولسان الدين بن الخطيب، والوشاح، والتلمساني، وابن يقي، وابن خفاجة، وابن حزم، وابن عبدون، وأبو بكر بن زهر، وابن طفيل.

وسبق الحديث عن الشعر الأندلسي ناقصاً إن نحن لم نقف عند الموشحات وقفة متأنية تمكننا من التعرف على هذا الضرب من الشعر الذي ابتدعته قرائح الأندلسيين.

(١) عصور الأدب العربي ص ٥٦.

الموشحات

الموشح: فن جديد من فنون الشعر العربي يمتاز بجماله الفني، وكثرة صوره، وتعدد قوافيه وأدواره وبأوزانه الكثيرة التي لا يتفق بعضها مع العروض العربي ولكنها توائم الموسيقى والغناء أكثر من الأوزان المألوفة.

وقد اختلف المؤرخون في نشأة الموشحات حيث زعم بعضهم أن عبدالله بن المعتز كان أول شاعر عربي ينظم الموشح، وزعم آخرون أنه من صنع شعراء اليمن. ويرى فريق ثالث أن منشئها هو مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المرواني، وأن أحمد بن عبد ربه قد أخذه عنه، ثم شاع بعدهم بين شعراء الأندلس فلم يكذب يخلو منه شعر شاعر منهم.

والموشحة: قصيدة تتألف من أقفال وأبيات، فالأقفال: ما اتفقت وزناً وأجزاء وقافية، والأبيات: ما اتفقت وزناً وأجزاء واختلفت قافية غالباً. (١)

ومن الموشحات قول ابن سهل الاسرائيلي الأندلسي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ: (٢)

هل درى ظبي الحمى أن قد حنى
فهبو في حرّ وخفق مثلاً
قلب صبّ حلّه عن مكنس
لعبت ريح الصبا بالقبس

يابدوراً أشرقّت يوم النوى
مالنفسى في الهوى ذنب سوى
عُمرراً تسلكُ بي نهج الغرر
منكم الحُسنُ ومن عيني النظر
اجتنى اللذات مكلوم الجوى
والتذاذى من حبيبي بالفكر

كلما أشكوه وجدى بسما
إذ يقيم القطر فيه مأتما
كالربا بالعارض المنبجس
وهى من بهجتها في عُرس

أيها السائل عن ذنبي لدية
لى جزاء الذنب وهو المذنب

(١) قصة الأدب في الأندلس د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٣٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٢.

أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقاً للشمس فيه مغرب
ذهب الدُّمُع بأشواقٍ إليه وله خد بلحظي مُذهب

يَثْبُتُ الوردُ بغرسي كلما لاَحَظْتُهُ مُقْلَتِي فِي الْخَلَسِ
ليت شعري أئى شئٍ حَرَمًا ذلك الوردُ على الْمُغْتَرَسِ

كلما اشكوا إليه حُرْقِي غادرتني مُقْلَتَاهِ دَنَفَا
تَرَكْتُ الحَاظِه من رمي أثر النمل على ضَمِّ الصفا
وأنا أشكرُهُ فيما بقى لَسْتُ الحَاةُ على ما أُلِفَا

فهو عندي عادل إن ظلما وعذولي نُظْفُهُ كالخَرَسِ
ليس لي في الأمر حكمٌ بعدما حلَّ من نفسي مكان النفس

الفصل الثاني التأليف والمؤلفون في الأندلس

لعل كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» كان أول كتاب ألفه عالم أندلسي يدعى
أبا بكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية.
وقد توفي سنة ٣٦٧هـ. ويتناول الكتاب تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى
سنة ٣٠٠هـ. وكان ابن القوطية على علم بالعربية وعلومها، كما كان حسن التدين،
متبحراً في العلوم الدينية. وله في ذلك عدد من المؤلفات.
وقد شكك بعضهم في نسبة هذا الكتاب إلى ابن القوطية، وزعم أنه من تأليف أحد
تلاميذه.

وإذا بحثنا عن كتب أخرى في تاريخ الأندلس وآدابها وضعت في وقت مبكر من
تاريخ تلك البلاد وجدنا أن كتاب «العقد الفريد» لأحمد بن عبدربه في مقدمة هذه
الكتب، واليك نبذة موجزة عن الكتاب وصاحبه تتلوها تراجم لأشهر المؤلفين الأندلسيين
وآثارهم.

أحمد بن عبدربه

المتوفى ٣٢٨هـ

هو أحمد بن محمد بن عبدربه سليل موالى الأمويين في الأندلس، ولد في قرطبة سنة
٢٤٥هـ، وتثقف ثقافة عربية مشرقية في الغالب، ولذا جاء كتابه «العقد الفريد» مشتملاً
على أخبار المشاركة وآثارهم ورسائلهم وقصصهم وشعرهم.
وتناول فيه نبذة من أخبار الأندلسيين وآثارهم، وضمّن باقية كتاباته الخاصة، وهي
تدور حول الألحان والغناء وما يتصل بها. وقد توفي ابن عبدربه سنة ٣٢٨هـ. (١)

(١) مناهج التأليف عند العرب. ص ٦١٨.

ومن إنشائه في كتابه المذكور قوله:

«وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن، يسرى في الجسم، ويجرى في العروق، ويصفو له الدم، ويرتاح له القلب، وتسمو له النفس، وتهتز الجوارح، وتخف الحركات. ومن ذلك كرهوا للطفل أن يُنوم على أثر البكاء حتى يُرقص ويطرب...» وهكذا تلاحظ أن أسلوب ابن عبد ربه جميل، يجرى على طريقة النثر المرسل الخالي من التعقيد والغريب والتكلف.

الفتح بن خاقان الإشبيلي المتوفى سنة ٥٣٣هـ

هو الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي المتوفى سنة ٥٣٣هـ، وهو غير الفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسي والذي قتل معه سنة ٢٤٧هـ. ومن المصادفات العجيبة أن تكون نهاية كل من هذين الرجلين متشابهة. فابن خاقان الإشبيلي قتل ذبحاً في الفندق الذي كان ينزل فيه في مدينة مراکش، والفتح بن خاقان المشرقي قتل بالسيوف مع المتوكل على الله على النحو المذكور في كتب التاريخ. ولم تكن أخبار الفتح الإشبيلي مما يثلج الصدر دائماً، فلقد كان — على الرغم من أدبه وعلمه — بذئ اللسان، هجاء سييء السمعة ولعل هذه الصفات كانت السبب في نهايته على النحو الذي ذكرناه.

ومهما يكن من أمره فقد كان من رواد التأليف في طبقات الأدباء بالأندلس، يشهد بذلك كتاباه: «قلائد العقيان» و«مطمح الأنفس». ففي هذين الكتابين من الثراء الأدبي ومن الجهد الفني ومن القيمة التاريخية ما جعلهما من المراجع الهامة لكل من يتعرض للدراسات الأندلسية بعامة والأندلسية الأدبية بخاصة.

أما كتابه «قلائد العقيان» فقد تضمن نصوصاً شعرية ونماذج نثرية ثمانية وخمسين من أعلام عصره. وقد سلك في تأليفه أسلوباً فريداً، فقد أرسل إلى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر يعرفه بعزمه على تأليف كتابه ويسأله

إنفاذ شيء من شعره ونثره، ليضمه إلى مادة الكتاب. فعمد أكثرهم إلى إرسال منتخبات من أعماله الأدبية مشفوعة بالهدايا والمال. وقد ذكر «ياقوت الحموي» أن: كل من أرضته صلته أحسن في كتابه وصفه وصفته، وكل من تغافل عن بره هجأه وثلبه. أما كتابه الآخر «مطمح الأنفس» فقد جعله ذيلاً لكتابه السابق «قلائد العقيان» وقد ترجم فيه لسته وتسعين شاعراً من شعراء الأندلس في مختلف العصور. ولعل أهم ما يؤخذ على الكتابين هو عدم اهتمام المؤلف بذكر تواريخ ولادة ووفاة من ترجم لهم من الأعيان.^(١)

لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ

هو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب. ولد في مدينة لوشة بالقرب من غرناطة سنة ٧١٣هـ. ونشأ في أسرة عريقة في العلم والأدب، اتصل بملوك بني الأحمر وتنقل بين غرناطة والمغرب، ووزر لأكثر من ملك. وكان من كبار علماء المغرب ومفكرها وهو من البارعين في نظم الموشحات. له آثار أدبية متعددة أهمها: كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة». مات خسفاً في سجنه بمدينة فاس سنة ٧٧٦هـ ولابن الخطيب كتاب أدبي آخر اسمه «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة». وقد ترجم فيه لمائة وثلاثة من الشعراء في مجلد واحد.^(٢)

ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ

هو عبد الرحمن بن خلدون المولود في تونس سنة ٧٣٢هـ، من أسرة أندلسية الأصل، وقد توفي في القاهرة سنة ٨٠٨هـ بعد حياة حافلة بالعمل السياسي والنتاج العلمي. وهو مؤسس

(١) مناهج التأليف عند العرب ص ٦٢٥.

(٢) مناهج التأليف عند العرب ص ٦٧٧.

علم الاجتماع. اشتهر بكتابه المعروف «بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» وأشهر ما في هذا الكتاب الضخم مقدمته المعروفة بمقدمة ابن خلدون.

والكتاب ومقدمته يمثلان زبدة الفكر الإسلامى المتألق وثمره الثقافة العربية الأصيلة، وهما رحلة عقلية في أكثر ميادين المعرفة على مساحة العالم الإسلامى مشرقاً ومغرباً وأندلساً.^(١)

الباب السادس

عصور الانحسار الأدبي

بقلم

د. رجا سميرين

(١) قصة الأدب في الأندلس ص ٣٢٢.

الفصل الأول العصر المغولي أو عصر المماليك^(١) من ٦٥٦ - ٩٢٣ هـ

يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة المغول على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ، وينتهي بدخول العثمانيين مصر بقيادة السلطان سليم الفاتح سنة ٩٢٣ هـ. وقد انقسم العالم الإسلامي في هذا العصر إلى ثلاثة أقسام بين العرب والمغول والأتراك. وفي أواخره خرج المسلمون نهائياً من إسبانيا. وقد أدى اكتساح المغول للممالك الإسلامية إلى الإجهاز على ما كان قد تبقى من النفوذ العربي، وهدد آداب اللغة العربية بما اقترفوه من جرائم التقتيل والتخريب والتحريق. وقد مرت على العالم الإسلامي ثلاثة قرون وليس فيه دولة عربية تستحق الذكر. وقد انحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب. أما اليمن فقد قامت فيه إمارات صغيرة في زبيدة وصنعاء وعدن، وأما المغرب فقد نشأت فيه دول صغرى بعضها عربى وبعضها بربرى وذلك في كل من تونس والجزائر ومراكش وغرناطة. وعلى الرغم من النكبات المتوالية التي حلت بالعالم الإسلامي فقد ظلت اللغة العربية حية متماسكة ونبغ فيها الشعراء والأدباء والمؤلفون. وظلت لغة السياسة والدين والعلم في معظم الدول التي نشأت في هذا العصر. والفضل الأكبر في ذلك يرجع إلى مصر والشام اللتين ظلّتا في حوزة سلاطين المماليك ومن بقى من الملوك الأيوبيين.

مميزات هذا العصر^(٢)

انتقلت مراكز العلم والأدب في هذا العصر من بغداد إلى بخارا ونيسابور والرى وقرطبة

(١) تاريخ ادب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٢.

واشيلية وغيرها من مدائن العلم في العصور العباسية كالقاهرة والاسكندرية واسيوط ودمشق وحمص وحلب وحماه وغيرها من مدائن مصر والشام. وقد أصبحت القاهرة بصورة خاصة ملجأ الأدباء والعلماء من كل مكان.

وفي هذا العصر قلّ المناصرون للعلم والأدب من أصحاب الجاه والسلطان، ونضج علم العمران وفلسفة التاريخ بظهور مقدمة ابن خلدون. وهى أول كتاب في هذا الموضوع.

وفيه أتقنت العلوم السياسية والحربية والإدارية ووضعت فيها المؤلفات، وظهر علم نقد التاريخ، وكثرت ألقاب التفخيم في الخطابات وفي تراجم العلماء والوجهاء.

وبالغ المنشئون في استخدام السجع والتطويل في الترسل والتنميق في العبارة. وشاع التسجيع في أسماء المؤلفات أكثر من ذي قبل.

وقد قلت المكتبات الكبرى لذهاب أكثرها حرقاً وغرقاً في أثناء الفتن. فقد أحرق جنكيزخان مكتبات بخارى ونيسابور وغيرها. وأحرق هولاكو مكتبات بغداد، وألقى مئات الآلاف من محتوياتها في نهر دجلة، كما أحرق الإسبان ما وجدوه من كتب في المدن التي كانوا يحتلونها في الأندلس. وكانت مكتبة غرناطة آخر ما أحرق على يد الكاردينال زيمينس، وكانت تحوى أكثر من ثمانين ألف مجلد، ولم يكتف رجاله بذلك بل أمرهم بدخول بيوت المدينة ومصادرة ما فيها من كتب وإحراقها.

وقد كثرت المدارس في مصر والشام في هذا العصر حتى صارت تعد بالمئات. وكان أول من عنى بإنشائها السلطان نور الدين زنكى ثم اقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين.

وقد تكاثرت الموسوعات والمجموعات، وتعدد المكثرون من درس الموضوعات المختلفة، واستكثروا من المعاجم في أكثر مؤلفاتهم حتى ليصح أن نطلق على هذا العصر اسم «عصر الموسوعات» أو «المجموعات» وقد انصرف العلماء في هذا العصر عن الاشتغال بالفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم إلى الأبحاث الدينية.

الشعر في عصر المغول^(١)

جمدت القرائح في هذا العصر، فلم ينبغ من الشعراء من يستحق الذكر إلا من عاش

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢٦.

خارج مملكة المغول ولا سياً في مصر والشام اللتين يرجع إليهما الفضل في حفظ اللغة العربية وآدابها.

وقد أصبح الشعر في هذا العصر صناعة لفظية، وابتذلت الصناعة الشعرية فتعاطاها الناس لقضاء ساعات الفراغ وكثر الناظمون من الباعة وأرباب الحرف، وتولدت ضروب من الشعر اقتضاها فساد اللغة الفصحى حيث وجدت طبقة من الشعراء سماها ابن خلدون في مقدمته بالمستعجمة.

وقد نظم هؤلاء الشعر في أغراضه التقليدية المعروفة وكانوا يسمون قصائدهم «الأصمعيات» وسماها أهل الشام ومصر «البدوى» وشاع إلى جانب ذلك المربعات والخمسات وعروض البلد والموالي والكان كان والدوبيت. وقد انتقل هذا اللون إلى مصر وشاع فيها وأجاد فيه المصريون كثيراً. ومن ذلك قول بعضهم:

طرقت باب الخبا قالت من الطارق

فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لي من ثغرها بارق

رجعت حيران في بحر ادمعى غارق

وفي أواخر هذا العصر ظهر التاريخ الشعري والمراد به: ضبط تاريخ واقعة بأحرف تتألف منها كلمة أو جملة أو شطريكون مجموع حروفه بحساب الجمل يساوى التاريخ الذي جرت فيه تلك الواقعة. ويأتى الشاعر بهذه الكلمة أو الجملة عادة بعد لفظ تاريخ أو ما يشق منه.

ومن أقدم ما وصل إلينا من نماذج هذا الغرض الشعري ما أرخ فيه بعض الشعراء لتاريخ فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ.

ومن أمثله قول بعضهم يؤرخ وفاة ابن الملك المؤيد سنة ٩٢٢هـ:

قل للذى يبتغى تاريخ رحلته

«نجل المؤيد مرحوم ومبروك»

وقد توسع الشعراء في هذا الفن حتى صار بعضهم ينظم القصيدة وكل شطرفها يشتمل على تاريخ أو تاريخين. ومن ذلك ما فعله النحلاوى في قصيدة له يمدح بها الشيخ عبد الغنى النابلسى.

أشهر الشعراء في هذا العصر

أشهر الشعراء الذين ظهرُوا في هذا العصر في مصر والشام هم:

شهاب الدين التلعفري المتوفى سنة ٦٧٥هـ، والشاب الظريف المتوفى سنة ٦٨٨هـ، وعفيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠هـ، والإمام البوصيري المتوفى سنة ٦٩٥هـ، وسراج الدين الوراق المتوفى سنة ٦٩٥هـ، وشهاب الدين العزاري المتوفى سنة ٧١٠هـ، ودانيال الموصلي المتوفى سنة ٧١٠هـ، وابن بناته المصري المتوفى سنة ٧٦٨هـ، وابن أبي حجلة التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦هـ، وشمس الدين الهواري المتوفى سنة ٧٨٠هـ، وبرهان الدين القيراطي المتوفى سنة ٧٨١هـ، وابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤هـ، وابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ، وشهاد الدين الحجازي المتوفى سنة ٨٧٤هـ، وابن سودون المتوفى سنة ٨٧٨هـ، وتاج الدين بن عربشاه المتوفى سنة ٩٠١هـ، وقنصوه الغوري المتوفى سنة ٩٢٢هـ، وغيرهم كثيرون.

أما أشهر الذين نبغوا من الشعراء خارج مصر والشام فهم:

صفي الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠هـ، والأمير خليل بن أحمد الأيوبي المتوفى سنة ٨٤٦هـ، وعلاء الدين المارديني الذي لم تعرف سنة وفاته، وشرف الدين القرشي المتوفى سنة ٨٢٨هـ، وسواهم.

نماذج من الشعر في هذا العصر

قال صفي الدين الحلبي في الفخر والحماصة (١):

سلى الريح العوالي عن معالينا
واستشهدى البيض هل خاب الرجا فينا
لما سعيننا فارقنا عزائمنا
عما نروم ولا خابنا مساعينا

(١) الأدب في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ص ٥١ عمر محمد الميرغني.

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة
يوماً وإن حُكِّموا كانوا موازينا
إذا ادَّعوا جاءت الدنيا مصدقة
وإن دَعَوْا قالت الأيام آمينا
إننا لقوم أبست أخلاقنا شرفاً
أن نبتهدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سود وقائنا
خضر مرابعنا حر مواضينا

وقال الشاب الظريف يصف اعتزازه بنفسه وعلوهمته (١):

أبست رقتي إلا الذي يقتضي الهوى
وعزمتي إلا ما اقتضى الرؤى والعقل
فوا عجبا أني خفيت ولم أبين
وقد راح مملوءاً بن الحزن والسهل
طريد ولي مأوى، مباح ولي حمى
وحيد ولي صحب، غريب ولي أهل
سأجهد إقنا للمنايا أو المني
قصاري، إما النصر أو ماجني النصل
فإن لم تصلني همتي بطالبي
ولم ينتسج للشيب في لحي غزل
فلا نظرت عيني ولا فاه مقول
ولا بطشت كفي ولا سمعت الرجل
ومن عرف الأمر الذي أنا عارف
رأى كل صعب كل إدراكه سهل

(٢) الأدب العربي في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ص ٥١.

خُذِ الْعِزَّ مِنْ أَىِّ الْوَجْهِ رَأَيْتَهُ
فَلَا خَيْرَ فِي عَيْشٍ يَكُونُ بِهِ الدُّلُّ
مِنَ التُّرْبِ هَذَا الطَّبْعُ وَالنَّفْسُ مِنْ غُلَا
فَلِلْمَرءِ أَنْ يَدْنُو، وَلِلْمَرءِ أَنْ يَعْلُو

كُتَّابُ الْعَصْرِ الْمَغُولِ

نبغ في هذا العصر طائفة من العلماء أصحاب الأسفار العامة الذين ألفوا في الأدب، واشتغلوا في جمع الأشعار والأمثال. منهم:

القلقشندي

المتوفى سنة ٨٢١هـ

هو شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي المصري، كان قوى الحافظة، وعى ذاكرته أهم علوم الأدب في عصره، وتولى كتابة ديوان الإنشاء سنة ٧٩١هـ، إبان دولة المماليك في مصر وله كتب جزيلة الفائدة، وأشهرها:

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: وهو في سبعة مجلدات موسوعة كبيرة في الأدب. وقد تحدث فيه عن صناعة الإنشاء وما يتعلق بها من أدوات وشروط وعن فضل الكتابة ومدلولها والكتاب وآدابهم وصفاتهم وقوانين ديوان الإنشاء وترتيبه ووظائف أصحابه، وما يحتاج إليه الكاتب من المعارف والعلوم الأدبية والتاريخية والاجتماعية والشرعية والطبيعية. وقد تحدث فيه كذلك عن المسالك والممالك والوصايا الدينية وعقد الصلح والبريد والحمام الزاجل.

والكتاب في جملة موسوعة علم وأدب لا مثيل لها. (١)

الأبشي

المتوفى سنة ٨٥٠هـ

هو محمد بن أحمد الخطيب الأبشي، اشتهر بكتابه: (٢)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨.

المستطرف في كل فن مستظرف: وهو من الموسوعات الأدبية، يشتمل على ثمانية وأربعين باباً في معاني الإسلام والعقل والذكاء والقرآن وفضله والعلم والأدب والحكم والأمثال والبلاغة والأجوبة المفحمة والسياسة والعدل والمعاشرة والمودة والفضائل ونقائضها وأخبار العرب وأوابدهم، وأنواع الحيوان والبحار وعجائبها، والأنهار والجبال، وعجائب المخلوقات، والقيان والأغاني وغير ذلك. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين الفرنسية والتركية^٢

اللغة وعلومها وأشهر علماء العصر

كثرت الاشتغال في اللغة وعلومها في هذا العصر، وكان من أهم من اشتغلوا في هذا المجال من العلماء:

ابن مالك الطائي

المتوفى سنة ٦٧٢هـ

هو محمد بن عبدالله بن مالك الطائي النحوي ولد سنة ٦٠٠هـ، وتعلم في دمشق، وتصدر لتعليم العربية في حلب، اشتهر بألفيته المعروفة «بألفية ابن مالك» وهي منظومة رجزية جمع فيها مقاصد العربية وقواعد النحوي ألف بيت. وقد غنى عدد كبير من العلماء بنشرها وشرحها وترجمتها. وهي ملخص لأرجوزة أخرى له في النحو اسمها «الكافية الشافية» وهي في ٢٧٥٧ بيتاً. (١)

ابن منظور

المتوفى سنة ٧١١هـ

هو أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الإفريقي المصري المعروف بجمال الدين بن منظور. ولد سنة ٦٣٠هـ واشتغل باللغة وعلومها وتوفي في القاهرة سنة ٧١١هـ. من أشهر مؤلفاته: (٢)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣.

لسان العرب: وهو معجم مطول مرتب على أواخر الكلم. وهو من أوثق المعاجم العربية وأدقها وقد طبع عدة مرات. وظهرت فيه طبعات حديثة رتب فيها على الأبجدية.

ابن هشام

المتوفى سنة ٧٦١هـ

هو جمال الدين عبدالله بن يوسف المصري. كان إماماً في اللغة، وتخرج عليه خلق كثير، وقد أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته. ومن أشهر مؤلفاته في النحو: (١) قطر الندى وبل الصدى: وقد طبع مراراً ونقل إلى الفرنسية. مغنى اللبيب: وهو في النحو كذلك وقد طبع عدة مرات. شذرو الذهب: وقد طبع عدة مرات.

الفيروز أبادي

المتوفى سنة ٨١٧هـ

هو أبو طاهر محمد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروز أبادي قيل: إن نسبه ينتهي إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ولد في كازين قرب شيراز سنة ٧٢٩هـ، وخدم السلطان العثماني بايزيد. وله أكثر من أربعين مصنفاً، أشهرها: (٢) القاموس المحيط: وهو أكثر المعاجم تداولاً بين أيدي الكتاب، وهو مرتب حسب أواخر الكلم، وقد شرحه بعض العلماء، ومن أشهر شروحه «تاج العروس» لمرتضى الزبيدي، كما وضع بعض الكتاب كتباً في انتقاده منها: «الجاموس على القاموس» لأحمد فارس الشدياق، وهو من علماء اللغة اللبنانيين في القرن التاسع عشر.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٧.

الموسوعات

تكاثرت الموسوعات والكتب الجامعة للموضوعات المتعددة في هذا العصر، حتى ليصح أن نطلق عليه اسم «عصر الموسوعات» وأكثر أصحابها من مصر والشام. ومن أشهرهم:

شهاب الدين النويري

المتوفى سنة ٧٣٢هـ

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري التيمي الكندي، أحد رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون. تولى نظارة الجيش في طرابلس. وموسوعته المشهورة هي:

نهاية الأرب في فنون العرب: وهي في ثلثين مجلداً، وقد طبعت مؤخراً في مصر. وقد قسمها إلى خمسة فنون، وقسم كل فن منها إلى خمسة أبواب. وقد تحدث في الفن الأول عن السماء والآثار العلوية والعوالم السفلية. وفي الفن الثاني عن الإنسان وما يتعلق به والعرب وعاداتهم وأنسائهم وآدابهم والمملك وما يشترط فيه وسياسة الرعية والاجتماع. وفي الفن الثالث عن الحيوان وأنواعه وطبائع كل نوع. وفي الفن الرابع عن النبات وأشكاله، وفي الفن الخامس — وهو أكبر أبواب هذه الموسوعة — تحدث المؤلف عن التاريخ منذ بدء الخليقة حتى وصل به إلى الدول الإسلامية وملوكها. (١)

ابن فضل الله العمري

المتوفى سنة ٧٩٨هـ

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري يتصل نسبه بعمربن الخطاب — رضي الله عنه — ولد في دمشق سنة ٧٠٠هـ وتعلم فيها وفي القاهرة

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٤١.

والاسكندرية والحجاز، وتولى القضاء في القاهرة ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها سنة ٧٩٨هـ. كان إماماً في الأدب والتاريخ والإنشاء. وله مشاركة في كثير من العلوم. ألف عدداً من الكتب المهمة، أشهرها: مالك الأبصار في ممالك الأمصار: وهو موسوعة في بضعة وعشرين مجلداً في الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغيرها. وبين هذه الموسوعة وموسوعة نهاية الأدب شبه واضح من حيث الموضوعات التي تحدث عنها المؤلفان.

وقد طبعت بعض أجزاء هذه الموسوعة مؤخراً في مصر^(١).

جلال الدين السيوطي

المتوفى سنة ٩١١هـ

هو آخر من ظهر في هذا العصر بمصر من كبار العلماء. وهو أعظمهم همة وأوسعهم علماً وأكثرهم آثاراً.

اسمه جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد السيوطي، ولد سنة ٨٤٩هـ ونشأ يتيماً، وكان قوى الحافظة، تفقه في علوم عصره وتوسع فيها، وبدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره وعكف عليه حتى وفاته، طُوف في كثير من الأمصار، وتولى الإفتاء سنة ٨٧١هـ. بلغ عدد مؤلفاته أكثر من ثلاثمائة مصنف، وكثير منها له طابع موسوعي. ومن أشهرها: (٢)

طبقات النحويين واللغويين: منه نسخة في دار الكتب المصرية تحتوي على ٢٣٠٠ ترجمة في نحو ألف صفحة مرتبة على حروف المعجم، وقد طبع سنة ١٣٣٦هـ.

تاريخ الخلفاء: ترجم فيه للخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى الأشرف قايتباي المتوفى سنة ٩٠١ على ترتيب أزمانهم، وذكر في ترجمة كل منهم ما وقع في أيامه من الحوادث العظام، ومن عاصره من الأئمة وأعلام الأمة ورتبه على السنوات. وهو مطبوع منذ سنة ١٣٠٥هـ.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٢.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٤.

المزهوي في علوم اللغة: هو أهم كتبه اللغوية وهو في جزأين الأول منها في ألفاظ اللغة، والثاني في أوزان الكلام وأبنية الأفعال.

تفسير الجلالين: وهو من أهم التفاسير المعول عليها، وقد طبع في مجلدين، وله معاجم وشروح عدة أكثرها مطبوع.

الفصل الثاني العصر العثماني

من سنة ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ

نشأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى في أثناء العصر المغولي، وبعد أن رسخت أقدام العثمانيين فيها اجتازوا البحر إلى أوروبا، ففتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ، وأوغلوا في أوروبا حتى حاصروا فيينا عاصمة النمسا، ونشروا لواء الإسلام في شبه جزيرة البلقان المعروفة بأوروبا الشرقية. وفي الوقت نفسه كان ظل الإسلام ينحسر عن عزب أوروبا في الأندلس، وبعد فتح القسطنطينية تحول العثمانيون نحو المشرق وفتحوا مصر والشام فأصبحتا ولايتين عثمانيتين سنة ٩٢٣ هـ. (١)

مميزات هذا العصر

أصبحت السيادة في هذا العصر للأتراك العثمانيين بعد أن كانت للمماليك. وصارت اللغة التركية لغة المحادثات والمخاطبات والمعاملات الرسمية في دواوين الدولة. وقد بنى العثمانيون سياستهم على إشاعة الفرقة والوقية بين رجال الحكومة الذين يجعلونهم في خدمتهم، حتى لا يجتمعوا على خلع الطاعة، أو يفكروا في الاستقلال عن سلطة الخلافة. وقد أدى ذلك إلى فساد الحكم وشيوع الظلم والاستبداد. وما زال الأمر كذلك حتى طمع الفرنسيون في مصر وغزوها سنة ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م. وفي هذا العصر تمكن الذل من النفوس، وفسدت ملكة اللسان العربي، وهجرت القرائح، فلم ينبغ في خلاله شاعر أو أديب يستحق الذكر خارج مصر والشام. وقد ظلت اللغة العربية لغة الدين في العالم الإسلامي. وقد دخل الأدب العربي في هذا العصر في أحط أدواره، وندر نبوغ العلماء والمفكرين

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٨٩.

والمبدعين فيه. وكان أكثر ما كتب الذين تصدوا للتأليف لا يخرج عن شرح بعض الكتب السابقة، أو التعليق عليها في الحواشي. وبذلك يصح أن نطلق على هذا العصر «عصر الشروح والحواشي».

وقد شاع التصوف في هذا العصر، وتعددت الطرق الصوفية، وكثر التأليف على غير نسق ونظام، وانحط أسلوب الإنشاء حتى أوشك أن يكون عامياً، على نحو ما نجد في سيرة بني هلال ونحوها من القصص التي وضعت في هذا العصر.

وقد أقبل الناس على تعاطي المخدرات والمسكرات، ولجأ الظالمون من الولاة إلى إثارة الخلافات الطائفية، وقد توالى الحن على الناس، وانتشرت الأوبئة الفتاكة، وتمكنت الأوهام من النفوس وزاد اعتقادها بالخرافات والسحر.

وقد انحطت الآداب العامة، وفسدت الأخلاق، وظهر أثر ذلك في آداب اللغة فزادت جرأة الكتاب في استخدام التعبيرات البذيئة، ووضعت كتب خاصة في الخلاعة والفحشاء والمجون.

وقد أدى استئثار الفساد إلى ظهور بعض دعاة الإصلاح كالشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي في حلب وسواهما.

الشعر في العصر العثماني

أصاب الشعر ما أصاب النثر من الانحطاط في هذا العصر، ولذلك كانت إجادة من أجاد منهم قية نسبية.

وقد سار الشعراء على خطى المتقدمين يقلدونهم في المعاني والأساليب والألفاظ. وقد زادت عنايتهم بالألفاظ فأكثرُوا من الجناس والتورية وغيرهما من ألوان الحلية اللفظية والمعنوية حتى خرجوا بذلك عن المألوف^(١).

أشهر الشعراء في هذا العصر

من أشهر الشعراء في هذا العصر: عائشة الباعونية، ومحمد بن قنصوة بن صادق، وعبد

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٩٣.

الرحمن الحميدى، وشهاب الدين النابلسى، ودرويش الدمشقي، وحسين بن الجزري الحلبي، وأبو حفص القبرصي الدمشقي وغيرهم. ومن الشعراء خارج مصر والشام: ناصر الدين بن سويدان، وابن مقبوق، وعبد الرحمن الموصلي الشيباني، وغرس الدين الخليلي، وعبد القادر الطبري المكي ودرويش مصطفى الطرابلسي، وشمس الدين اليميني وغيرهم.

نماذج من الشعر والنثر في هذا العصر

قال الشيخ عبدالله الشبراوي في مدح آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم: (١)

آل طه وقمن يقل آل طه	مستجيراً بجاهكم لا يُرد
حبكم مذهبي وعقد يقيني	ليس لي مذهب سواه وعقد
بيتكم مهبط الرسالة والوحى	ومنكم نور النبوة يبدو
ولكم في العلا مقام رفيع	مالككم فيه آل ياسين نُد
يا ابن بنت الرسول من دايضا هيك	افتخاراً وأنت أفخر عقد
يا حسينا هل مثل أمك أم	لشريق أو مثل جدك جد
وقال الشهاب الخفاجي في الغزل: (٢)	
حَتَامَ يَفْزُونِي صَدُودُهُ	الصبر قد هُزِمَتْ جَنُودُهُ
لَمْ أَدْرِ فَاتَرَجَفْنِي	والخضر أسقِمَ أُمُّ عَهْودُهُ
نَشْوَانُ يَعْبَثُ بِي كَمَا	عَبَثَتْ بِأَمَالِي وَعُودُهُ
لَوْلَا مِيَاهُ الْحَسَنِ جَالِسَتْ	فِيهِ لاحتَرَقَتْ خَدُودُهُ
كَالصَّبِّ لَوْلَا دَمْعُهُ	يَهْمِي لِأَحْرَقُهُ وَقُودُهُ
يَخْفَى الْمَوَى وَعَيْوُنُهُ	بِقَرَامِهِ الْمُضْنِي شُهُودُهُ

«الكتابة في هذا العصر»

قلنا إن الكتابة الإنشائية قد انحطت في هذا العصر، فاعتمد الكتاب في كتابتهم على

(١) الأدب في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ص ٦٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦٩.

الاستعانة بكتب قام بتأليفها بعض المنشئين وجمعوا فيها رسائل مختلف شئون الحياة بأسلوب ركيك، هو آخر ما في استطاعة أعيان الكتاب في هذا العصر. ومن أشهر هذه الكتب: كتاب «بديع الإنشاء» و«الصفات في المكاتبات» و«المراسلات» وهي لزين الدين الكرمي المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ. وهذا مثال من أساليبهم السقيمة في الكتابة الإنشائية في هذا العصر، وهو من رسالة لعبد الوهاب الحلبي إلى الشهاب الخفاجي^(١): «ولقد طفحت أفئدة العلماء بشراً، وارتاحت أسرار الكاتبين سرا وجهراً، وأفعمت من المسرة صدور الصدور، وطارت الفضائل بأجنحة السرور بحين قدوم من اخضرت رياض التحقيق بأقدامه، وغرقت بحار التنميق من سحائب أقلامه».

(١) تاريخ الحركة العربية: ج ١ ص ١٠٦.

الباب السابع

الأدب العربي في العصر الحديث

بقلم

الدكتور صلاح عيد

الفصل الأول التيارات الفكرية والأدبية على خريطة التاريخ الحديث

١ - العوامل المؤثرة في أدب العصر الحديث:

أ - القانون العالمي للنهضة ومعوقات قيامها في مصر والشرق العربي:

كما يرتفع الطائر بجناحين، كذلك ترتفع الأمة عند نهضتها بجناحين من العلم والأدب، أما العلم - الذي يكون قد فاتها ركبته - فإنها تحصله من غيرها، كما حصل العرب على العلم في العصور الوسطى من اليونان وحضارتهم في عصرها الهلنستي بالاسكندرية وكما حصل الأوروبيون في بدء نهضتهم في العصور الحديثة على العلم الذي كان العرب قبلهم قد حققوا في تقدمه خطوات في الطب والرياضيات وغيرهما، وأما الأدب الذي يكون عادة في حالة انحطاط تتمثل في فقر الفكر وبهرج اللفظ فيتحقق رقيه بالرجوع إلى أدب الأمة نفسها في عصور رقيه وازدهاره وقوته، وهذا هو ما فعله الأوروبيون حين عادوا إلى الملاحم والمسرحيات اليونانية واستقوا من منابعها وأسسوا إبداعهم الأدبي في إبان نهضتهم الحديثة عليها، وهو نفس ما فعله أهل المشرق العربي في العصور الحديثة حين عادوا إلى العصور الزاهرة في تاريخ الأدب العربي وجعلوها منطلقهم إلى إبداعهم الجديد.

هذا هو قانون النهضة وقاعدتها، تريش الامة جناحها العلمي من غيرها من الأمم التي سبقتها أو تقدمت عليها، وتريش جناحها الأدبي من نفسها ومن ماضي ازدهارها الأدبي، فالعلم خاصة عالمية، والأدب خاصة ذاتية وهما مع ذلك جناحان لا تتم النهضة الصحيحة المتوازنة إلا بهما معا وفي نفس الوقت، قد تتأثر الأمة بأدب غيرها من الأمم ولكن من أجل أن يهضم أدبها هذا التأثير ويجعله جزءاً منه أو كالجزء منه لماذا؟ لأن الأدب تشكيل موسيقى وتصويرى للغة الأمة، ولغة الأمة خاصة من خصائصها الأساسية بل هي أهم خصائصها ومظهر شخصيتها وكيانها وتميزها.

وعلى هذا الأساس سنمضي في فهم النهضة الحديثة في المشرق العربي وفي جناحها الأدبي على وجه الخصوص لأنه هو الذي يعنينا هنا.

لقد نام المشرق العربي حضاريا وهو مركز رئيسي للحضارة البشرية في عصورها القديمة والوسيطة أيضا. نام هذا المشرق أربعة قرون أو نحو ذلك تحت ستار الحكم العثماني، ذلك الستار الكثيف الذي عزله عزلا تاما عن مجريات الأمور في العالم الخارجي، وهذه القرون الأربعة بالذات والتي استغرقت القرن الخامس عشر الميلادي إلى القرن الثامن عشر هي الفترة التي شهدت النهضة الأوروبية الحديثة والتي بدأت في إيطاليا واستقرت في مركزها الجديد في غرب أوروبا (فرنسا - إنجلترا - ألمانيا - هولندا).

وكما غزا الاسكندر الأكبر مراكز الحضارة القديمة في المشرق وبنى الاسكندرية التي أصبحت المركز الجديد للحضارة في العصور الوسطى في عهدها الهلنستي الذي خلف عهدها الهليني في بلاد اليونان، كذلك قام القائد العسكري الفرنسي الكبير «نابليون بونابارت» بغزو بلاد الحضارة في المشرق القديم رغبة منه في تكوين إمبراطورية عظيمة واصطحب معه إلى مصر العلماء في شتى فروع العلم من فيزياء وكيمياء وفلك وتاريخ وجغرافية وهندسة وغيرها وكذلك أهم أداة لنشر العلم وهي المطبعة وأنشأ في القاهرة المجمع العلمي المصري بأقسامه من الرياضيات والطبيعات والاقتصاد السياسي والآداب، ومما يدل على أن «نابليون» كان يسعى إلى تحقيق ما فعله الاسكندر من جعل مصر مرة أخرى مركزا للحضارة العالمية قوله في افتتاح الديوان العام الذي أشرك فيه المصريين في إدارة البلاد: «أن قطر مصر هو المركز الوحيد، وإنه أخصب البلاد، وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة، وأن العلوم والصناعات والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول»^(١).

ومعروف أن الفرنسيين أصدروا الصحف في مصر وأنشأوا مكتبة فرنسية عربية، وكان نابليون قد اصطحب معه أيضا الموسيقيين والممثلين وأنشأ «مينو» مسرحا للتمثيل كما نقب العلماء الفرنسيون عن الآثار وحللو التربة المصرية وأنشأوا المصانع ومهدوا الطرق^٢. ولقد رسم نابليون خطى الاسكندر في نظريته هذه إلى مصر وفي تقربه من الديانة المصرية وأضاف إلى ذلك من إجلاله للعلماء وإشراكه إياهم في سياسة الدولة.

(١) تاريخ الحركة القومية: ١٠٦/١.

ولكن ما قام به نابليون والفرنسيون في مصر لم يكن ليرضى إنجلترا. والمؤرخون يذهبون عادة إلى أنها خشيت أن تهدد طرق مواصلاتها إلى إمبراطوريتها في الهند، ولكن أضيف إلى ذلك سببا آخر أكبر أهمية وعمقا هو أنه ما كان لإنجلترا أن ترضى عن تحول مركز الحضارة مرة أخرى إلى مصر وبلاد المشرق. لقد قام الاسكندر بهذا التحويل مرة واحدة وهذا يكفي، وحرص أوروبا الغربية على إبقاء بلادهم مركزا للحضارة العالمية كان قائما منذ فترة طويلة، وجاليليو نفسه كان يخشى أن تتحول الحضارة من إيطاليا إلى «الشمالين» وكان تنبؤه صحيحا وصادقا من أجل هذا عملت إنجلترا جهدها حتى حطمت أسطول نابليون وآماله في مصر، وحتى خرج الفرنسيون من مصر، ولكن بعد أن دقوا مأسميه جرس المنبه الحضاري الذي أيقظ مصر والمشرق العربي من نومه الحضارية، هذه القرون الطوال تحت ستار الحكم العثماني الكثيف ولم تكن مساندة علماء الأزهر لمحمد على إلا رغبة منهم ومن المصريين في أن تستمر النهضة التي بدأت بإزالة عوامل عزلة مصر والمشرق عن حركة الحضارة العالمية وإقامة الجسور بينها وبين مركز الحضارة الحاضرة من أجل أن تريح جناحها العلمي وأيضا بإزالة عوامل عزلتها عن الماضي الأدبي الزاهر من أجل أن تريح جناحها الأدبي تمهيدا لتحقيق قانون النهضة التاريخي العالمي، وأصبح محمد على حاكما لمصر فأزال بقية الحكم العثماني ممثلا في الممالك وإن كان ذلك بطريقة مأساوية دموية تمثلت في مذبح القلعة الشهيرة، وإذا كان نابليون قد وضع رأس الجسر بين مصر وفرنسا في مصر فقد أسرع محمد على بوضع رأسه المقابل في فرنسا حين أرسل البعوث إلى باريس، وبذلك قامت حركة تواصل قوية نشطة بين قلب الحضارة الحاضرة وفرنسا أحد مراكزها وبين مركزها القديم في مصر، وبدأ ضخ دماء هذا القلب عبر هذا الشريان أو هذا الجسر إلى مصر، وبدأت نهضة علمية قوية فتحت لها الترجمة بابها الواسع، ونشرتها المطبعة وكان عمادها مدرسة الألسن ودار الترجمة والمطبعة المصرية، وفي نفس الوقت كان الأمير بشير الشهابي في لبنان يترسم خطى محمد على في بعث النهضة، وكان الفرنسيون والأمر يكون من المبشرين سنده في إنشاء المدارس والمطابع وتأليف الكتب وإدخال فن التمثيل والصحافة، وكانت ترجمة الكتب العلمية وإحياء أمهات الكتب العربية بشيرا بالنهضة الجديدة بجناحها العلمي والأدبي في لبنان والشام.

لقد كان محمد على ومن بعده الخديو إسماعيل أقوى من بعث النهضة في بداية عهد

مصر بها إلا أن الاسراف الحرنى الذي اندفع إليه محمد على وانتصاراته المتوالية، والاسراف المالى الذي اندفع إليه اسماعيل متحا انجلترا الفرصة فحطمت آمال كل منها وزاد تدخلها في شئون مصر حتى إذا اشتعلت ثورة عرابى احتلت مصر في عام ١٨٨٢ وما يؤكد أن انجلترا كانت حريصة على قطع أسباب النهضة في مصر، وإخماد شعلتها وإبطال ما قصد إليه «نابليون» وما حققه محمد على واسماعيل... مما يؤكد ذلك إضعافها بل كسرها الجناح العلمى للنهضة بإغلاق مدرسة الألسن، وإغفال البعث، وإلغاء مجانية التعليم، أما الجناح الأدبى فتمثل كسرها له أو محاولتها ذلك بجعل التعليم كله بالانجليزية، وبذلك عملت على قطع الجسر الممتد بين مصر وقلب الحضارة الأوربية الحاضرة من جهة وبينها وبين العصور الزاهرة في الحضارة الغابرة من جهة أخرى.

ولكن هذه الإجراءات الإنجليزية في مصر إنما أخرت نمو النهضة ولم تقض عليها، وظل التنافس قائما فيها بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية مما سنرى أثره على المعارك الأدبية التي سنمر بها فيما بعد. لكن نجاح انجلترا في مصر يتمثل في أنها منعت نابليون ومن بعده محمد على واسماعيل من أن تعود مصر مرة أخرى في هذا العصر مركزا للحضارة العالمية.

ب - تعقّد تركيب الجناح الأدبى للنهضة:

ان مد الجناح العلمى للنهضة كان عملا واضحا وميسورا بالقياس إلى مد الجناح الأدبى والفنى لها وخاصة في تاريخ نهضتنا الحديثة، لماذا؟ لأن الجهد منصب على طريق واحد أو جسر واحد هو واقع الأمة المتخلف وواقع المركز الحضارى الذي تأخذ عنه وسبيلها في ذلك الترجمة وحركة البعث بين الواقعيين أو النقطتين، أما في الأدب فقد امتد جسر إلى العصور الزاهرة في تاريخ الأدب العربى، وامتد جسر آخر إلى المنجزات الأدبية والفنية للحضارة الحاضرة وفرنسا بالذات، وأدى التنافس الحرنى والثقافى بين فرنسا وانجلترا إلى امتداد جسر ثالث إلى انجلترا مع أن الدولتين ينتميان إلى قلب الحضارة الحاضرة.

ونحن نستطيع أن نفهم على هذا الأساس كل الموقف الأدبى في العصر الحديث وكل المعارك الأدبية التي نشبت في هذا العصر وخاصة إذا أضفنا إلى هذه الجسور الثلاثة جسرا رابعا أطول كثيرا هو ذلك الذي امتد إلى أمريكا الشمالية والجنوبية مع هجرة أهل الشام إلى الأمريكتين بتأثير الاضطرابات السياسية والازمات الاقتصادية.

نعم - هذه الجسور الأربعة هي التي عقدت تركيب الجناح الادبى للنهض الحديثة في الشرق العربى بالقياس إلى الجناح العلمى لها، وهي سبب ما ذكرناه من معارك أدبية عنيفة لم يشهد لها التاريخ الأدبى العربى مثيلا فقد انحاز من انحاز إلى التراث الأدبى القديم، وانحاز من انحاز إلى الثقافة الفرنسية وإلى الانجليزية ونشأ من ذلك جدال عنيف صاحب ترددات أصداؤه العالية في رحاب القرن التاسع عشر، ومع هذا فقد كان هناك من هضم كل هذه التأثيرات المختلفة القديم منها والجديد وأخرجها في وحدة واحدة متسقة متناسقة ومثاله في الشعر أحمد شوقى، وفي النثر مصطفى لطفى المنفلوطى وغيرهما من أساطين النهضة الحديثة في مصر والشام.

والواقع أننا نخطئ حين نقول إنه في عهد نابليون وعهد محمد على أهمل الجانب الفنى والادبى في النهضة إهمالا تاما لأنه في الوقت الذي كان الجسر يمتد فيه بين مصر وبين فرنسا في جانب المنجزات العلمية التي فات مصر إدراكها في تلك القرون الأربعة تحت حكم العثمانيين في هذا الوقت لم يكن الجسر الأدبى مهملًا بدليل القسم الأدبى في المجمع العلمى المصرى الذي أنشأه نابليون في مصر إلى جانب النشاط المسرحى الذي تطلّب ترجمة وتعرّيبا للأعمال المسرحية.

ومن المعروف أن مطبعة بولاق التي أنشأها محمد على في عام ١٨٢١ قد أخرجت للناس روائع المؤلفات العربية مثل كلية ودمنة لابن المقفع والبيان والتبيين للجاحظ ومقدمة ابن خلدون ودواوين فحول الشعراء الجاهليين والعباسيين كامرىء القيس وأبى نواس وأبى الطيب المتنبى، وذلك إلى جانب ما أخرجته هذه المطبعة من نفائس الكتب العلمية قديمها وحديثها.

ونرى رفاعة الطهطاوى رائد الجسر العلمى الممتد بين فرنسا ومصر في عهد محمد على يترجم رواية «مواقع الافلال في وقائع بليمال» وينشر في صحيفة روضة المدارس التي كان يرأس تحريرها بحثا أدبية وعلمية قيمة ويجعلها روضة حقيقية تنبت فيها البراعم الأولى التي كانت نتاج نشر وإحياء أدب العصور الزاهرة في التاريخ العربى، وفيها نرى اسماعيل صبرى ينشر أشعاره الأولى.

وإذن فقد كان هناك ومنذ البداية وعى كامل بأن النهضة لها وجود ولا قيام لها بغير الجناحين العلمى والأدبى معًا، وربما انشغل محمد على ببعض الشئ بأعماله العسكرية

ولكن ذلك لا ينال من الحقيقة القائلة بأن النهضة بدأت بمد الجناحين معا على ما في الجناح الأدبي من تعدد في المصادر وتعقد في التركيب هما بلا شك السبب في الاحساس بالتأخر النسبي في نموه بالنسبة للجناح العلمي.

جـ - المطبعة ... أبرز ملامح النهضة الحديثة:

لا حضارة بلا لغة مكتوبة، هذا هو قانون الحضارة الأساسي كما يعتبر عنه مؤرخو الحضارات، وجوهر النهضة الحضارية وقانونها — كما أسلفنا — واحد في كل العصور يحتاجها من العلم والأدب، وهما نفس جناحي الكلمة المكتوبة المنطوقة في الأدب تتجمع الكلمات وتنظم انتظاما موسيقيا في أوزان الشعر في كل اللغات، أما في العلم فتتجرد الكلمة وتحول إلى حرف أو رمز يخدم حركة الفكر السريعة الدقيقة.

والحق ان المطبعة هي أهم ما تماز به النهضة في العصر الحديث، فقد أدت إلى السرعة والغزارة في إنتاج الكتب وبفضل المطبعة أصبح ممكنا إنتاج الكتب بشكل دوري سنوي أو فصلي أو شهري أو أسبوعي أو يومي وهذه «الكتب» هي مانسميه صحفا ومجلات، وعلى ذلك فأهم ما يميز الكتب العادية عن الكتب الدورية هو نظام الصدور فالكتاب العادي يصدر في أي وقت ووفقا لظروف المؤلف الفرد غالبا، أما الثاني فهو يصدر في دورات زمنية محددة ومنظمة مما يتطلب تعاون جهاز بشري له تشكيل معين، وبات له مع التطور الفكري والتكنولوجي الحالي تخصصاته الدقيقة المتنوعة والمطبعة ولدت الكتاب الدوري أو الصحيفة والمجلة بأنواعها المتعددة المتنوعة شكلا وموضوعا، وبدونها لم يكن لهذا النوع من «الكتب» وجود على الإطلاق، أما الكتاب العادي فقد زادت انتشارا وجعلته يصل إلى كل يد بعد أن كان قاصرا في مرحلة التدوين اليدوي على الفئات الممتازة دون غيرها وما قامت به المطبعة في النهضة العربية الحديثة كان دورا حاسما وبالغ الأهمية إلى أبعد الحدود فقد رأينا «مطبعة بولاق» تنشر على الناس الكتب العلمية والأدبية القديمة المروث منها والجديد الوافد ترجمة وتعريبا وهذا روت العقول في وقت كانت فيه أشد ما تكون حاجة إلى الري والغذاء، واطلعت الناس على نماذج الأدب العربي في أزهى عصوره شعرا ونثرا وأطلعته على الفكر الأوربي الجديد وعلى المنجزات العلمية التي سبق بها الغرب الشرق العربي الذي كان موطن الحضارة القديمة والوسيلة منذ عدة قرون. وبعبارة أخرى كان للمطبعة اليد الطولى في مد الجناحين العلمي والأدبي للنهضة الحديثة.

وإذا كان للكتب العادية هذا الدور في النهضة الحديثة فإن للكتب الدورية أو الصحف والمجلات دوراً لا يقل أهمية أو بعدا في هذه النهضة، والواقع أنها حلت ثمار الاطلاع على الفكر القديم والحديث شعره ونثره، وكما نشرت على الناس إنتاج كبار الكتاب، فقد نشرت كذلك لمن يرجى منهم الخير والعطاء من الشعراء وغيرهم ونهت بهم تنويه الرعاية والتكريم كالوسيلة الأدبية مع البارودي، وروضة المدارس مع اسماعيل صبري، والأهرام والمؤيد والمجلة المصرية وغيرها مع شوقي فعن طريق الصحافة لم يعرفهم الناس فقط بل تفاعلوا معهم ذلك التفاعل المثمر السريع الذي هيأته الصحافة وأسهمت فيه بجهد خلاق، وانظر إلى تقديم المؤيد لبعض شعر شوقي: نشرنا هذه الابيات لان فيها لمحة من موسيقى شوقي. وهي أشبه بموسيقى البحترى وأبى نواس من شعراء العرب ولا مرتين من شعراء الأفرنج. وتجده هذه العذوبة الموسيقية في شعر شوقي جميعه، وهو القائل من نفس البحر والروى في رثاء مصطفى باشا فهمى الذي مات في ١٤ سبتمبر ١٩١٤ (لا في أول سنة ١٩١٤) كما قال شارح الجزء الثالث من الديوان: (١)

ان البنات ذخائر من رحمة وكنوز حب صادق ووفاء
الساہرات لعلية أو كبرة والصابرات لشدة وبلاء
لقد أتيت بهذا المثال لتتضح لنا صورة من صور الرعاية التي كان يلقاها الشعر والشعراء في الصحافة في إبان النهضة، ويبدو واضحا أن المعلق على هذا الشعر هو أديب محقق واسع الاطلاع على الأدب العربي والغربي.

ويكفي أن تطالع اسماء الذين أصدروا وحرروا الدوريات في أيام النهضة الحديثة ليتبين لك أنها إنما كانت وقودا جزلا لشعلة هذه النهضة في جانبها الادبي والعلمي، فالوقائع المصرية التي أنشأها محمد على سنة ١٨٢٨ وكانت أول جريدة عربية بالمعنى الفني كان محررها رجال كالامام محمد عبده، والشيخ حسن العطار وسعد زغلول، وكان رفاعة الطهطاوي هو الذي عاون محمد على علميا في إنشائها، والجوائب التي صدرت في الآسنة عام ١٨٦٠، كانت لاحد فارس الشدياق الأديب المحقق الأملعى، ومجلة التعرب كانت مجلة طبيه شهرية أصدرها محمد على باشا البقلي في عهد اسماعيل، وجريدة نزهة الأفكار

(١) محمد صبري: الشوقيات المجهولة: ٢٣٨/١.

أصدرها الأديبان الكبيران إبراهيم بك المويلحي، ومحمد بك عثمان جلال، ومجلة روضة المدارس كان رفاعة الطهطاوي رئيس تحريرها وكان يكتب فيها نخبة من رجال العلم والأدب وفيها نشر اسماعيل صبري أشعاره الأولى، وكانت الأهرام ولا تزال منبرا من منابر الأدب والعلم إلى جانب طابعها الإخباري، وكان انطون بك الجميل قد حرص على اجتذاب كبار الشعراء والأدباء إليها أما الهلال فقد أسسها الأستاذ جرجي زيدان صاحب المؤلفات الرصينة القيمة في تاريخ الأدب وتاريخ الإسلام.

وهذه فقط أبرز الأمثلة التي تشير إلى دور الصحافة في إذكاء جذوة النهضة الحديثة. وكما ولدت المطبعة الصحف والمجلات فقد ولدت معها فنونا أدبية جديدة تتجارب مع طبيعتها السريعة كالمقال والقصة القصيرة، ولعل تحرير الأسلوب الأدبي وغير الأدبي من الهرج اللفظي الذي أصبح أبرز سماته في عصور التأخر الحضاري والفقر الفكري. لعل تحرير الأسلوب منه هو أحد أيادي الصحافة البيضاء على الأدب شعرا ونثرا.

ويجب أن نذكر هنا دور اللبنانيين في تقدم الصحافة العربية فقد سبقوا إلى الاتصال بالغرب وتعلم اللغات الأوروبية واجتهدوا لغة الصحافة بتجلى في إنجازاتهم لا في لبنان فقط وإنما في البلاد التي نزحوا إليها في العصر الحديث كالأمريكتين ومصر.

د - الاستشراق

منذ القرن الخامس عشر الميلادي أو ما قبله بدأ النشاط يدب في أوربا لاستكشاف نواحي الكون والأرمن، وكان مما أقبلت أوربا على استكشافه كنوز العلم والفن في مواطن الحضارة القديمة والوسيطه وخاصة في بلدان الشرق الأوسط وترجمت إلى اللاتينية أشهر وأهم المؤلفات العربية في الطب والرياضيات والفلسفة وكانت كتب الرازي والزهراوي

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٤.

وابن رشد وابن سينا من ركائز النهضة الأدبية الحديثة. وواصلت أوروبا اهتمامها ببلاد الشرق بعد ازدهار نهضتها في القرون الأربعة التالية للقرن الخامس عشر وهي نفس القرون التي شهدت خمود وجود النشاط الفكري في مشرقنا العربي، وتمثل هذا الاهتمام في ظاهرة الاستشراق، التي يهمنها هنا تخصص نفر من الغربيين في درس الأدب العربي مما يشير إلى القيمة العالمية للتراث الأدبي العربي، وإلى جانب ما اهتم به المستشرقون من هندسة ابن الهيثم والآداب الفلكية لأبي الحسن علي، فقد ترجم هربلولة الطغراني، ونشر كوسبي دي برسفال المعلقات السبع وأمثال لقمان^(١)، ومقامات الحريري، ونقل فريتاغ المتوفى سنة ١٨٦١ ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي إلى الألمانية. وكتب دنلد كني المتوفى

١٩٣١ بحثا في الشعر الجاهلي وآخر في المعلقات السبع^(٢).

ولبروكلمان ونلينو وماسينيون وبلاشير وغيرهم مؤلفات قيمة في تاريخ الأدب العربي وغيره من موضوعات هذا الأدب، ومنهم من كان استاذا لأعلام وكبار دارسي الأدب العربي في العصر الحديث الذين أخذوا عنهم المنهج العلمي في درس الأدب وتاريخه ومختلف ظواهره، ولا يزال تاريخ الأدب العربي لبروكلمان مرجعا على المستوى لدارسي هذا الأدب.

وما ذكرناه هو قليل من كثير مما قدمه دارسو الأدب العربي لهذا الأدب من الذين أحبه وقدره من انجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا وإيطاليا وغيرها.

والواقع أن أهم أثر تركه المستشرقون هو درس الأدب العربي على أساس علمي، لقد كان هناك الدرس التحليلي التدقيق للنصوص الذي كان أبناء اللغة أنفسهم أقدر الناس عليه، ولكن النظرة الكلية الشاملة لمسيرة الأدب العربي منذ أقدم عصوره وتقسيمه إلى مراحل متعاقبة من العصور السياسية لم تكن قائمة، وفهم ظواهر هذا الأدب على ضوء الظروف السياسية والفكرية والاقتصادية وغيرها فهو مما سار عليه المستشرقون في درسه، ولا تزال دراسة الأدب العربي في الجامعات العربية تركز على هذا الأساس من فهم النتاج الأدبي أو الظاهرة الأدبية مردودة إلى البيئة والظروف التاريخية التي أحاطت بها.

(١) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي: ٥١٥.

٢ - الجناح الأدبي للنهضة الحديثة:

كان غرضنا فيما سبق أن نرسم لك صورة دقيقة ومتماسكة الاجزاء بقدر الامكان للعصر الحديث في الشرق العربي وحركة النهضة فيه بجناحيها الأدبي والعلمي بوجه عام، أما الآن فنحن نقترح أكثر من الصورة ومن الجناح الأدبي للنهضة الحديثة لنرى تفاصيلها، ولنحصل في النهاية على تصور صحيح ودقيق لهذا الجناح الذي رأينا أن ما يميزه عن الجناح العالمي هو التعدد في الجسور الممتدة من الواقع الى العصور الزاهرة في الحضارة العربية الغابرة والى الحضارة الغربية الحاضرة، وهذا التعدد هو الذي جعل لهذا الجناح مانراه من تعدد، ومن ظواهر أدبية ستصبح أكثر وضوحا وقابلية للفهم في ضوء تحليل هذا الجناح الى مكوناته الرئيسية.

ونحن سنعرض للأدب بمعناه الفني المتخصص المتمثل في التنظيم النغمي والتصويري للكلمات الذي يحقق عودة الكلمة الى أصلها النغمي والتصويري الملتقى مع أصل الفكر والتعبير الانساني الفطري كما يتمثل في الشعر والقصة بأشكالها المختلفة ومعنى ذلك أننا لن نعرض للأدب بمعناه العام الشامل لكل ما خطت يد الإنسان مما يعبر عن فكره في شتى مجالات العلم والأدب - مما تجده في العديد من كتب تاريخ الأدب التي تعرض للتأليف في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والصيدلة وعلوم اللغة والنحو والتاريخ وغيرها من العلوم الانسانية وفنونها التطبيقية... اننا سنعرض عليك الادب باعتباره أحد الفنون الجميلة حيث قنا من أول الأمر بتقسيم النهضة الى قسميها الرئيسيين من العلم والأدب ولأن هذه الدراسة تكتب في الكويت فاجدرها أن تخص الأدب الكويتي بالاهتمام المناسب، إنه حقاً جزء من الادب العربي ولكنه يحمل سمات البيئة الكويتية ومميزاتها جغرافيا وتاريخيا وهو أدب له شخصيته المتميزة كما للأدب المحلية الأخرى في شتى أرجاء البلاد الناطقة باللغة العربية.

ولأن هذه الدراسة موجهة الى طلبة قسم المكتبات فاجدرها أن تعرض لهذا الادب الذي بدأ مع النهضة الحديثة الشاملة عبر الجسر الممتد الى مركز الحضارة الحاضرة وهو أدب الأطفال وذلك من الوجهة الأدبية البحثية بقدر الامكان... إن أدب يتزايد الاهتمام به يوما بعد يوم مع زيادة الاهتمام بالأطفال الذي هو بلا شك اهتمام الإنسان بمستقبله ذاته.

أ - الشعر ومراحل تطوره:

حين تطالع الكتب التي تؤرخ للشعر في العصر الحديث ستراها جميعا تفيض في الحديث عن حال الشعر في الفترة السابقة على نهضته الحديثة في أثناء الحكم العثماني وكيف أثقلته المحسنات البديعية من طباق وجناس وتورية وغيرها، وكيف أنه كان فقيرا في الفكر فقرا شديدا أبعدته عن الأصالة والإبداع وجعل معانيه تدور حول مدح كبير أو التهنة بمولود أو رثاء راحل عزيز، وكيف أن الشعراء عمدوا الى التأريخ بالشعر المتمثل في أحد الشطور الذي تجمع الأعداد التي تدل عليها حروفه فتحصل على سنة وقوع حدث ما، فالسيد على الدرويش الذي يمدح محمد علي باشا يؤرخ بهجىء الجراد وموت البقر في آخر قصيدة له بقوله:

أرثنته وصل الجراد لمصر في عام البقر
١٢٥٩

ولأن كل حرف قديما كان يدل على عدد معين قبل اختراع الأرقام، أو قبل أن يستقل الحساب بلغتته الخاصة فإن العدد ١٢٥٩ هو مجموع حروف الشطر الثاني في البيت فالشعر في ظل الحكم العثماني اصبح زخرفا لفظيا وفقرا فكريا، ولكن مع هبوب نسيم الفكر الجديد الوافد مع الحملة الفرنسية بدت عليه بوادر الانتعاش وأقرأ قول الخشاب في غزله:

يا شقيق البدر نورا وسنا وأخا الغصن إذا ما نعطفا
بأبي منك جبيننا مشرقا لوبدا للنيرين انكسفا
بمعنى منك رضائب درمنا وعلى الدنيا ومن فيها العفا
وقول العطار:

أفلا رثيت لعاشق لعبت به أيدي المنون ونازعته خطوبه
أتت النعيم له، ومن عجب تعز به وتمرضه وانت طبيب
وهم يدخلون هذا الشعر وأمثاله في جملة الشعر المجرد من العاطفة الصادقة الفقير في فكره ومعناه، ولكنهم انما يمضون في اندفاعهم الزارى على العصر العثماني وعلى ما أنتج من شعر دون أن يشعروا بتلك السمات الرقيقة العذبة التي بدأت تهب على روضة الشعر وذلك الماء الذي أخذت تصيبها قطراته فتنعشها نجد هذا عند صاحب قصة الأدب في العالم^(١) وغيرهما

(١) قصة الأدب في العالم، أحمد أمين - زكي نجيب محمود: ج ٣ ص ٢٩٣.

في قولها: فقد يكون «الشاعر» شيخاً من شيوخ الدين لم يقع قط في أسر عشق ثم يتغزل لا يقصد من غزله إلا أن يحاكي ضرباً من ضروب الشعر الذي جرى عليه القدماء..

١ - المرحلة الأولى:

وعلى أى حال فيمكننا تقسيم الفترة التي مر بها الشعر في نهضته الحديثة إلى ثلاثة أقسام يختص أولها بذلك الجسر الممتد من واقع الشرق العربي في العصر العثماني إلى عصور الازدهار في الشعر العربي ويتمثل في احتذاء تلك النماذج الشعرية العالية تقليداً ومعارضة ونسجاً على منوالها وهذا القسم الأول يتمثل في محمود سامي البارودي وإن سبقه إليه شعراء آخرون مثل محمود صفوت الساعاتي (المتوفى سنة ١٨٨٠) إلا أن البارودي يعد أهم الشعراء الذين تذوقوا الشعر العربي الجميل في أزهى عصوره وتحسسوا مافيه من مواطن الروعة والصدق والأصالة والجمال فقد أخرجت المطابع للناس كما ذكرنا دواوين فحول الشعراء العرب، ومالبت البارودي أن نبغ في النسيج على منوالها في قوة وفتوة لفتت إليه الأنظار، وكأنه كان القيثاره الجيدة التي عزف عليها الشعر العربي أنغامه من جديد وإذا بالبارودي يمتلك ناصية الشعر، وإذا به يعبر عن حياته ومافيه من حب وحرب تعبيراً قوياً فخماً يرقى إلى مستوى الفحول فقد انحدر الرجل من أصل مملوكي وارثاً نزعة الفروسية التي كانت تجرى في دمايته وتدفع به إلى ميادين الحرب فيصف ماخاضه من المعارك في جزيرة «كريت» وبلاد البلقان وإذا به يصف هذا الموقف الفريد من مواقف الحرب يتوغل به داخل النفس البشرية و يصور في قوة ودقة مؤثرة انفعالات المحاربين:

مدافعنا نصب العدا ومشاتنا

قيام تليها الصافيات البوارخ
فلست ترى إلا كماءً بواسلاً

وجرداً تخرم من الحرب وهى ضوابع
تغير على الإبطال والصبح باسم

وتأوى إلى الادغال والليل جائح
بكى صاحبي لما رأى الحرب أقبلت

بأبنائها واليوم أغبر كالح

ولم يك مبعكاه لحوف وإنما
توههم أني في الكربة طائح

فقلت اتشد قبل الصيال ولا تكن

لنفسك حرباً، إنني لك ناصح

أنه مثال يهمله عادة المؤرخون لشعر البارودي وأرى فيه لمسة نادرة من لمسات الشعر العربي بل من لمسات الشعر العالمي فهأى نفس صاحبه حين تقبل الحرب بأبنائها ترق خوفاً على شاعرنا من الهلاك وقد خالجه شعور خفي بأنه مستشهد في هذه الحرب ولكن شاعرنا ينصح به بأن يتماسك ولا يكون حرباً لنفسه مع الحرب الواقعة بعد قليل.

وأنت ترى في هذا الشعر تلك القوة والجزالة والأصالة التي تذكرك بأزهى فترات الشعر العربي ومع هذا فهي تعكس أحداث عصر الشاعر وتتمشى مع نبضه، وها هو ذا البارودي شاعر الحرب والضرب يرق رقة شديدة حين يذكر تلك التي فتنت فؤاده في روضة المقياس في مصر والتي يمتلئ بها ديوانه أنه يتذكرها في معاركه التي خاضها في البلقان كما تذكرها في معاركه في كريت وكما تذكرها في كثير من المواقف:

فياروضة المقياس حياك عارض

من المزن خفاق الجناحين والخ

ضحوك ثنايا البرق تجرى عيونه

بودق به تحيا الربا والصحاصح

ويشترك البارودي في ثورة عرابي ويكون ما يكون من اخفاق الثورة والاحتلال

الانجليزي لمصر، وينفي البارودي مع نفر من زعماء هذه الثورة إلى جزيرة سردينيا وهناك

يكتوى بنار النفي والغربة، ويظل سبعة عشر عاماً في منفاه يعزف أثناءها على قيثارة الشعر

أعذب الألحان وأكثرها تأثيراً في النفس:

أبيت في غربة لا النفس راضية

بها ولا الملتقى من شيعتي كثب

فلا رفيق تسر النفس طلعتة

ولا صديق يرى ما بي فيكتثب

ومن عجائب مالاقيت من زمني
أننى منيت بخطيب أمره عجب
لم اقترف زلة تقضى على بما
أصبحت فيه فاذا الويل والحرب؟
والبارودى يؤكد انتهاءه الى المرحلة الأولى من مراحل نهضة الشعر العربى في العصر
الحديث بشعره وبمختاراته من شعر الفحول القدامى بل هو بهذه المختارات التي هي بين
أيدينا اليوم أكثر تأكيداً لهذا الانتهاء بل لهذه المشاركة الإيجابية في هذه المرحلة التي اختصت
بوصل الواقع بتلك العهود الزاهرة من الإبداع والقوة والأصالة في التعبير والتفكير مما بعد
بينها وبين الاحتياج الى تلك المحسنات البديعية التي أصيب بها الشعر العربى وتصاب بها
غيره من الأشعار في فترات انحسار المد القوى للفكر.
وكأنما اراد البارودى بتلك المختارات أن يكرر نموذجاً هو في نماذج أخرى من الشعراء
الذين ينهلون من تلك المناهل الصافية في تاريخ الشعر العربى مرتفعاً على تلك القرون التي
ضعف فيها تيار الشعر العربى تحت حكم العثمانيين.

٢ - المرحلة الثانية:

ونأتى الآن إلى المرحلة الثانية في فترة نهضة الشعر العربى الحديث حيث شارك الشعراء
والشعراء في جسر آخر امتد الى مركز الحضارة الحاضرة في أوروبا وفي فرنسا بوجه خاص مع
ذلك الجسر الذي امتد الى مركز الحضارة الغابرة ممثلاً في الدور العربى من تاريخ الحضارة
البشرية في العراق والشام اللذين شهدا الازدهار المشار اليه في تاريخ الشعر العربى في
العصور الوسطى.

وتمثلت هذه المرحلة الوسطى بوجه خاص في أحمد شوقى (المتوفى سنة ١٩٣٢) ونحن
نعلم أن شوقياً بعث الى فرنسا حيث قضى أربع سنوات في موبيليه وباريس، ونعلم أنه
أرسل الى هناك من أجل أن يتشرب روح الحياة والعصر والحضارة وليس فقط من أجل
درس القانون، فقد أبلغه خديوى مصر في ذلك الوقت انه يمكنه ان يقرأ كتب القانون
وغيرها وهو في بيته في مصر ولكنه يريد أن يعيش الحياة والعصر والحضارة هناك وأن يثرى
فنه الشعرى بما يطلع عليه هناك من مظاهر الحياة والأدب والفن، وعاش شوقى تلك الحياة

وتأثر بها، ولم تكن الفترة التي قضاها في فرنسا بوجه خاص مع ذلك الجسر الذي امتد الى
مركز الحضارة الغابرة ممثلاً في الدور العربى من تاريخ الحضارة البشرية وتمثلت هذه
المرحلة بوجه خاص في أحمد شوقى (المتوفى سنة ١٩٣٢) الذي يعد قبة هذه المرحلة الثانية كما
عد البارودى قبة المرحلة الأولى ومثلها الحقيقى.

ونحن نعلم أن الخديوى توفيق بعض شوقياً الى فرنسا حتى أمضى أربع سنوات في
موبيليه وباريس، ونعلم أنه أرسل الى هناك من أجل أن يتشرب روح الحياة والعصر
والحضارة وليس فقط من أجل استكمال دارسته للقانون، ولنقرأ ما ذكره شوقى من أنه حين
نظم روايته «على بك» وبعث بها قبل تمثيلها الى المرحوم رشدى باشا ليعرضها على
الخديوى السابق (توفيق) أجابه بأن الجنب العالى قد تفكه بقراءتها وناقشني في موضع منها
وناقشته وهو يدعوا بالمزيد من النجاح وأهم ما في هذا الخطاب تلك النصيحة التي مفادها أن
دروس الحقوق التي يمكن لشوقى تحصيلها وهو في بيته في مصر يجب ألا تشغله عن التمتع بعالم
المدنية القائمة أمامه وأنه يود أن يأتي من مدينة النور بباريس، بقبس تستضيء به الآداب
العربية، ويقول شوقى: «فصادفت هذه النصيحة العالية هوى في فؤادى فترجمت القصيدة
المسامة بالبحيرة من نظم «لامرتين» وهى من آيات الفصاحة الفرنسية. ثم أرسلتها الى
الباشا المشار إليه في كراس ليطلع الجنب الخديوى عليها»^(١)

وكان شوقى في إبان نشأته قد هيأته الظروف ليتصل بمنابع الشعر العربى الصافية على
يدى خيرة رجال الازهر كالشيخ محمد البسيونى والشيخ عبد الكريم سلمان، ووجد من
الشيخ البسيونى ما تجده النبتة الصالحة من رعاية فائقة وعن طريقه اتصل بالخديوى والقصر
وتهيأت له فرصة الدراسة في فرنسا، وبذلك عبر شوقى الجسر بين اللذين يمتد احدهما الى
مركز الحضارة الغابرة ويمتد الآخر الى مركز الحضارة الحاضرة، وأفاد منها إفادة قوية فعالة،
ونستطيع باطلاعنا على إنجازات شوقى في الشعر الغنائى والمسرحى على السواء أن نحكم بأن
الرجل قد جمع بين الجسرين في نفسه وإنتاجه وأنه وازن بينها موازنة حكيمة عادلة فكان
الشاعر العصرى الذي عبر بقوة الأقدمين وروعة ديباجتهم عن عصره وأحداثه، والشعر
بطبيعته كما ذكرنا هو عودة الى الأصل الموسيقى للغة ما، ولهذا كان تمسك شوقى بجمال

(١) الشوقيات المجهولة: محمد صبرى ج١ ص ٢١.

الجرس الموسيقى في العربية وبإمكانات الشعر العربي النغمية أمراً طبيعياً من شاعر مطبوع. تجلّ جسر الغابر عند شوقي بنسجه على منوال الفحول السابقين ومعارضته لهم حين يعارض الحصري والبوصيري، وتجلى جسر الحاضر عند شوقي بترجمته لقصائد من الشعر الفرنسي مثل البحيرة للامرتين وغيرها، ولا يلبث أن يمتزج في نفسه وفنه الغابر والحاضر فيكون شوقي الذي نسمع صوتها معاً فيه، وهذه في اعتقادي ميزة شوقي الرئيسية إلى جانب ملكته وطاقته الشعرية الكبيرة، بل ربما كانا من أهم مصادرها، وتستطيع أن تقرأ شعره الذي لا يعارض فيه الأقدمين ولا يترجم فيه للمعاصرين من شعراء الغرب لتجد هذه النفس القوية النبيلة التي جمعت بين القديم والجديد ذلك الجمع المتوازن الذكي، وتستطيع أن تلمس هذا التوازن في كثير من شعر شوقي، أقرأ مثلاً قوله في تحيته للمؤتمر الجغرافي:

العلم يجمع في جنس وفي وطن
شقى القبائل أجناساً وأوطاناً
ولم يزدك كرسماً الأرض معرفةً
بالأرض داراً وبالأحياء جيراناً
علم أبان عن الغبراء فأنكشفت
زرعاً وضرعاً وإقليماً وسكاناً
وقسم الأرض أكماماً وأودية
وفصل البحر أصدافاً ومرجاناً
وبين الناس عادات وأمزجةً

وميز الناس أجناساً وأدياناً^(١)
فشوق عزف على قيثارة الشعر العربي بأصالة وجمال معبراً عن روح العصر بدرجة تفوق كثيراً درجة البارودي فأنت تسمع في شعر البارودي كثيراً أصداء الشعر العباسي وتسقط فيه كثير عبارات الأقدمين ولكنك مع شوقي في مرحلة جديدة هي مرحلة الجمع بين الجسرين سالف الذكر.

والواقع أنه كان إلى جانب شوقي شعراء آخرون شاركوه بدرجات متفاوتة بطبيعة الحال في عبور الجسرين معاً، فقد كانت هذه هي طبيعة هذه المرحلة، وهي وجه اختلافها عن

(١) الشوقيات: ج ١ ص ٣٤٥ (مطبعة مصر).

المرحلة الأولى.. كان هناك حافظ إبراهيم، وخليل مطران، وغيرهما ممن اتصلوا بشكل أو بآخر بالأدب العربي وترجموا له وتأثروا به، وهذا الأثر ربما كان أوضح عند مطران ولكن ميزة شوقي هي أنه أكثر حساسية وتوفيقاً في اختيار اللفظ المناسب أو البسيط، وكذلك في مدى سعة أفقه الفكرية.

وشوقي مع تعدد جوانب إنتاجه الشعري له جانب يهمن كثيراً في هذه الدراسة هو شعره الذي نظمته للأطفال متأثراً بحياته في فرنسا، وتفاعله مع الأدب الفرنسي، فقد كتب شوقي مجموعة من الحكايات الشعرية حول الحيوانات قصد بها بث بذور الحكمة في نفوس الأطفال وهو ما سنعرض له فيما بعد.

٣ - المرحلة الثالثة:

المرحلة الثالثة من مراحل حياة الشعر العربي الحديث تمثلت في ذلك الجسر الذي امتد إلى الغرب أيضاً، ولكنه لم يتركز على فرنسا وإنما ارتكز على انجلترا من ناحية وارتكز من ناحية أخرى على امتدادها اللغوي والثقافي والأدبي في أرض العالم الجديد في أمريكا وفي هذا الضوء يمكننا أن نفهم حركة أصحاب الديوان (المازني وشكري والعقاد)، وأن نفهم أيضاً حركة الشعر المهجري، بل يمكننا أن نفهم الحركة التالية التي أسرفت إسرافاً شديداً في الاتجاه إلى الشعر الأوربي بحيث ابتعدت ابتعاداً كبيراً عن مقومات الشعر العربي الموسيقية الأصلية بل دعت إلى هدفها وطبقت ذلك تطبيقاً عملياً فيما يعرف بحركة الشعر الحر. ومن المعروف أن انجلترا كانت منافساً قوياً لفرنسا في الشرق على المستوى العسكري والثقافي واستطاعت أن تحل محلها في مصر وفلسطين والعراق.

وكانت ثقافة المازني والعقاد وشكري ثقافة انجليزية، وإذا كنا قد رأينا المرحلة الثانية التي مثلها شوقي وحافظ ومطران وغيرهم تمثل تطوراً طبيعياً للمرحلة الأولى وذلك في إضافة عناصر من الثقافة والأدب الفرنسيين إلى مقومات الشعر العربي الأصل في الموضوع، فإن هذه المرحلة الثالثة كانت ثورة عنيفة صاحبة على المرحلة الثانية وعلى أكبر ممثليها وهو شوقي بوجه خاص، إنها ثورة قادها العقاد إمام حركة الديوان والذي ظل ممثلاً لها على المستويين الفني والنقدي لقد حافظ العقاد على المقومات الفنية الأساسية في الشعر العربي من الأوزان والقوافي في إنتاجه الشعري، أما نقده فدار حول محورين أساسيين أولهما

وأهمها الصدق باعتباره آية الشاعرية الأولى وما يتصل به من تميز شخصية الشاعر، والوحدة العضوية في القصيدة بحيث تكون عملاً فنياً يكتمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة وهو في هذين المحورين آخذ عن النقد الانجليزي، ما ذهب إليه وليام هازلت في الصدق، وما ذهب إليه كوليردج فيما يختص بالوحدة العضوية وكل نقده لشوقي مركّز على هذين المحورين، فقد ارتفع شعر الصنعة في شوقي إلى ذروته العليا وهبط شعر الشخصية إلى حيث لا نتبين لمحة من الملامح ولا قسمة من القسّمات التي يميز بها إنسان بين سائر الناس، وقصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل مثلاً لا أثر فيها للوحدة العضوية فأنت تستطيع أن تبدل في أوضاع أبياتها كما تشاء دون أن يؤثر ذلك في بناء القصيدة لأنها في رأيه أبيات فاقدة للوحدة العضوية يمكن أن توضع في أي ترتيب!

والتحامل على شوقي واضح هنا من غير شك، ومسلأنا الصدق والوحدة العضوية قابلتان لمناقشة واسعة غير أننا نكتفي بالقول بأن الصدق مقياس داخلي يمكن الاختلاف حول تطبيقه بلا نهاية، أما الوحدة العضوية المطلوبة في القصيدة الغنائية فأثر من آثار الشعر الملحمي والمسرحي بقى عالقا بالقصيدة الغنائية الغربية بعد زوال دولة الشعر القصصي بجانيبه المروي والحواري ابتداء من القرن الثامن عشر.

وعلى أي حال فقد عمد العقاد إلى تحديد موقع المدرسة التي ينتمي إليها أو ينتمي إليها جيل الشعراء بعد شوقي فقال: إن الجيل الناشئ بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب الحديث، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الانجليزية ولم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسي كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر، وهو يرى أنها استفادت من النقد الانجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى^(١).

والعقاد هنا يؤكد طبيعة ومصدر الصراع الناشب بين المرحلة الثانية والثالثة في فترة الشعر الحديث على أساس اختلاف الجسرين سائق الذكر الممتدين إلى كل من فرنسا وإنجلترا، ولقد كان بين الدولتين في مصر والشرق العربي صراع عسكري وثقافي انعكست آثاره على أصحاب الشقافتين ذلك الانعكاس العنيف الذي تجلّى في العلاقة بين أدباء المرحلة الثانية والثالثة والعقاد يسارع إلى نفي تهمة التقليد الكامل للأدب الانجليزي من

(١) العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم: ١٩٠.

المنتسبين إلى تلك المرحلة الثالثة قائلاً: والواقع أن هذه المدرسة ليست مقلدة للأدب الانجليزي ولكنها مستفيدة منه مهتدية على ضيائه^(١).

الشعر المهجري:

آن لنا أن نبحث الخطى إلى ذلك الجسر الممتد إلى أرض العالم الجديد في الأمر يكتين وهو موصول جزئياً بالجسر الممتد إلى إنجلترا حيث الانجليزية وثقافتها هي السائدة في الولايات المتحدة.

وكانت الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة التي سادت بلاد الشام في العصر الحديث قد دفعت نفراً من أبنائه إلى النزوح إلى العالم الجديد التماساً للحرية السياسية ولحياة أكثر يسراً ورخاء وأماناً مما كانت عليه الأحوال في بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر.

وليست هذه هي أول مرة يرحل فيها الشعر العربي إلى بلاد بعيدة فتصيح بلبله، فقد كان له في العصور الوسطى مستقر في الأندلس ولكن شتان بين الرحلتين والمستقرين: الأول حيث كان للعرب السيادة والمكانة والحياة العالية الكريمة السعيدة والثاني حيث كان العرب مهاجرين فارين من بؤس الحياة وشظفها وآلامها إلى بلاد عانوا فيها مرارة الغربة ولم يكن لأكثرهم فيها حول ولا طول إنما شأنهم شأن غيرهم ممن طاعت بهم أرضهم ورزقهم فاندفعوا إلى حيث يأملون عيشاً أيسر وحياة أكثر حرية مما هم فيها، وأكثرهم لم يجد بغيتته وقليل منهم بلغ ما أمل من يسار وجاه كما يذكر الشاعر المهجري جورج صيدح في كتابه الكبير أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية وهو يرسم لنا في هذا الكتاب صورة بريشة رجل عاش التجربة المهجريّة بكل أبعادها.

وأنت حين تقرأ الشعر المهجري ستجد الحزن والأسى سمة غالبية على موضوعاته جميعاً، فقد ظل الشعراء هناك مشدودين إلى أرضهم ولم لا وأكثرهم رحل ناجياً بنفسه من الفقر والظلم ولم يستطع أن يصحب معه أهله فنفسه موزعة مشتتة بين حياته الجديدة وبين «بعضه» الذي تركه في الشام تحت الظروف التي قرّ هو منها بجلده فراراً، وها هو أمين مشرق يبعث بهذه الرسالة الشعرية إلى والدته كاشفة عن تلك النفس الموزعة بين عالمها الجديد

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩٠.

وبين ماضيها الذي تشفق عليه هذا الإشفاق المساوي:

أماه بالله مادهاك ومادهى إحقق الصغار
هل أوقعهم يد الهلاك ما بين نار وبين عار
وهل طغى فيكم الأعادي وطار دوكم إلى البوادي
وهل لكم خيم السكون وأغمضت في الدجى عيون
ومرّ في بالكم أمين؟ أماه - ردّى - أنا أمين!

ومن هذا الشعر وأمثاله الذي يصور لنا واقع المهاجرين إلى العالم الجديد أو أكثرهم نستطيع أن نفهم مسحة الحزن التي ذكرنا أنها تخيم على أكثر الشعر المهجري والواقع أن شعراء المهجر الذين أمضهم الحنين إلى بلادهم قد أرادوا أن يكون لهم وطن أكبر يشمل الأرض جميعاً فكان هذا الوطن هو الكون بأسره وكأن أهله هي الإنسانية كلها واذن فهناك موضوعان كبيران شمالاً كل الشعر المهجري واحتويا موضوعاته هما الوطن الأصغر ممثلاً في الشام والوطن الأكبر ممثلاً في الكون والطبيعة والإنسانية، وإذا كان الحنين هو شعورهم تجاه الوطن الأصغر فالخيرة هي رفيقتهم في شعورهم تجاه الوطن الأكبر.

فهم كثيرون الشكوى من الغربة دائم الحنين إلى وطنهم العزيز لبنان:

في أربع الأهل بؤس العيش يؤلنا
وفي المهاجر نار الوجد تكوينا
لو أن لبنان فيه العيش منبسط

لما ابتغينا نزوحاً عن أراضينا
داء التغرب من بؤس ومن عوز
في موطن الأرز قد أعيا مداوينا
وهم حين ينطلقون بفكرهم إلى الوطن الأكبر ممثلاً في هذا الفضاء العريق والكون الواسع والحياة بأسرها لاتزال مسحة الحزن والأسى تغلب عليهم حتى وهم يدعون إلى التفاؤل في مثل قول إيليا أبي ماضي:

قال: السماء كئيبةً وتجهها

قلت ابتسم يكفى التجهم في السما

(١) أدبنا وإدباؤنا في المهاجر الأمر يكية، جورج صيدح: ٧٠٤.

قال الصبا ولتى فقلت لي ابتسم
لن يرجع الأسف الصبا المنصرما
قال الليالي جرعتي علقها
قلت ابتسم ولئن جرعت العلقها
أترك تغتم بالتبسم درهمها
أم أنت تخسر بالبشاشة مغنا^(١)

وايليا أبو ماضي يعبر عن هذا الوطن الأكبر بل يعبر عن «ملكية» الإنسان له بقوله:

كم تشتكى وتقول إنك معدّم
والارض ملكك والسماء والأنجم

ذلك الحقول وزهرها واربجها
ونسيمها والبلبل المترنم

هشت لك الدنيا فالك واجم
وتبسمت فعلام لا تتبسم

وهم قد تجاوزوا حتى هذا الكون إلى مابعده ولم يملكو كغيرهم إلا إبداء الحيرة إزاء هذا «البعد» الذي لا يدرون عنه شيئاً بل هم لا يدرون شيئاً عن «القبل».

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت

وسابق سائراً إن شئت هذا أم أبى

وبوجه عام فقد ترك هذا الشعر الذي رحل إلى هذه البيئة الجديدة وحرص على أن تظل صلتها قائمة بوطنه الأول ترك بصماته على الشعر العربي، وماتأثر به من المذاهب الشعرية والأدبية في هذا العالم الجديد. وأنت تقرأ فيه فيذكرك بما كان من هجرة الشعر إلى الأندلس من تنويع كثير في القوافي وهذا أمر طبيعي فاللغة العربية التي تملك وحدها هذه القوافي الكثيرة التي تصل إلى مئات عدة يجد أبنائها أنفسهم في وسط جديد نقل فيه القوافي قلة شديدة كما في الإنجليزية والفرنسية وغيرها، ولا يلبث الشعراء العرب في تلك البلاد أن ينتقل إليهم تأثير الوسط الشعري الذي يعيشون فيه فينظمون على طريقة أصحاب تلك الأشعار الأخرى كقول ابن نخلة:

(١) عبد اللطيف شرارة: إيليا أبو ماضي: ١٢٤.

أنت ملقى على بساط الأثير
طرزته النجوم صفافصفا
فوق فلك من الهوا والنور
في عباب من اللجين المصفى
أى شيط تبغى بهذا المسير
في أقاصى المدى يبين ونقى
قد بدا الليل والنهار
في بحار الففضا تيم
سفرة ماله قارار

أم لها منتهى حكي
ولقد كان المهجريون حريصين على أن يبقى الجسر بينهم وبين المشرق العربى قائما
وفعالاً وكان لهم تأثيرهم بطبيعة الحال على حركة الشعر العربى. والشعر الاوربى بعد أن
هجرته القصة والمسرحية في القرن الثامن عشر كان يعيش مرحلة اضطراب هائلة بعد فقد
لمضمونه الأساسى منها وهو اضطراب زادت حدة أحداث الحرب الأوروبية الثانية التي
زعزعت كثيرا من القيم الثابتة وكان شعراء المهجر من رواد التأثير العالمى القوى والفعال
في الشعر العربى.

المرحلة الرابعة:

ذكرنا أن العقاد زعيم مدرسة الديوان ثار ثورة عارمة على موضوعات الشعر العربى كما
مثلتها المرحلة الثانية من نهضته بوجه خاص موجهاً نقده إلى شوقى، فكانت المرحلة الثالثة في
حياة الشعر العربى الحديث ثورة على موضوعاته تلتها المرحلة الرابعة التي نحن بصدها والتي
كانت ثورة على بنائه الموسيقى وهي أخطر ما واجهه الشعر العربى في تاريخه الطويل، فمن
المعلوم ان هذا الشعر يمتلك أكبر صرح نغمى بين اشعار العالم سواء في أوزانه المتنوعة تنوعاً
كبيرا أو في قوافيه التي يصل عددها إلى المئات بينما لا يتجاوز عدد القوافى في الاشعار العالية
الأخرى عدد أصابع اليد الواحدة إلا قليلا.

والواقع أنه عمت العالم بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) موجات من

الثورة على القيم القديمة ورغبة عارمة في الانتقال إلى كل ما هو جديد، فقد زعزعت الحرب
كثيرا مما كان قائما قبلها، وأعلنت في العلم والأدب نظريات وآراء ثورية قوبلت بالارتياح
بعد ما أشاعته الحرب من خراب ودمار حطم الكثير من القيم القديمة ضمن ما حطم ودمر.
فالانحياز الحزبى في الشعر لم يأت بجديد حين دعا إلى بروز شخصية الشاعر ونادى بالصدق
في التعبير عن التجربة فقد كان ذلك قائما في المرحلة الثالثة وإنما الجديد هو دعوته إلى تحطيم
القصر النغمى الشاهق للشعر العربى واستعمال لبناته الأساسية من التفعيلة في بناء نغم
خاص لا يخضع لنظام الشطرين المتساويين وإنما يجرى الشاعر أنغامه على تفعيلات متتابعة
في كل سطر تأخذ مداها حيث ينتهى المعنى بطبيعته فتترى في السطر الواحد من الكلمات
ما يقابل تفعيله واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أكثر، وهذا ينهدم الصرح السابق المنسق ومحل
محله أكوام من الحجارة يضعها كل شاعر وفق ما يرى وكيفما اتفق له مشروطا في ذلك — كما
يعتقد — التعبير الذي لا يقيده الالتزام بالشطرين المتساويين ولا بالقافية الموحدة في
القصيدة كلها.

ومن رواد هذا الاتجاه في العراق الشاعرة نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، وفي مصر
صلاح عبد الصبور وعبد المعطى مجازى وغيرهما.

والى جانب هذا الاتجاه كان هناك اتجاه آخر لزم جانب الاعتدال في التجديد في
موسيقى الشعر العربى فنوع في القافية وربما نوع الأوزان في القصيدة الواحدة وعزف عن
الموضوعات القديمة عزوفا جزئيا واتخذ الصورة والقصة الشعرية التي أراد ان يحقق بها اعتبار
وحدة في موضوعها، وهو الاتجاه الذي تمثل في على محمود طه والدكتور ابراهيم ناجى
وغيرهما من أصحاب التجديد المعتدل في مقابل التجديد المتطرف الرافض لتراث الشعر
العربى شكلا وموضوعا.

ب — القصة

القصة الطويلة:

نشأت القصة مرتبطة بالشعر عند اليونان، وظلت كذلك في مطلع النهضة الأوربية حتى
القرن السابع عشر الذي شهد أنفضج ثمار العلم والأدب والفن ثم انفصلت القصة الحوارية
(المسرحية) والقصة المروية (الملحمة) عن الشعر وأصبحت تكتب نثرا منذ القرن الثامن

عشر، وكان هذا تحولاً خطيراً في تاريخ الشعر وتاريخ القصة معا.

وفي الأدب العربي لم يكن للقصة شأن يوازي شأن الشعر فقد وجدت القصة مكانها في الأدب الشعبي العربي وملاحمه وإن وجدت المقامة طريقها إلى الأدب الفصيح في العصر العباسي، كما ترجمت بعض القصص الهندى والفارسي إلى الأدب العربي في نفس العصر. وحينما امتد الجسر إلى الحضارة العربية الغابرة عن طريق إحياء الكتب القديمة نسج بعض أدباء مصر والشام على منوال المقامة القديمة، ففي لبنان قلّد الشيخ ناصف اليازجي ونقولا الترك مقامات الحريري، وفي مصر كتب المولى يحيى حديث عيسى بن هشام وكتب حافظ إبراهيم ليالى سطوح، وبامتداد الجسر الفكرى إلى أوروبا سبق اللبانيون إلى الكتابة القصصية ومنهم فرنسيس مراش الحلبي المتوفى سنة ١٨٧٢ وسليم البستاني المتوفى سنة ١٨٨٤ وجرجى زيدان المتوفى سنة ١٩١٤.

وفي مصر بدأ هذا الفن تلك البداية الطبيعية بالترجمة والتعريب وهو الدور الذي قام به المنفلوطى في رواية الفضيلة، وحافظ إبراهيم في رواية البؤساء ومرجريت للدكتور أحمد زكى وآلام فرتر للزيات، ثم بدأ القلم العربى يخط روايات تصور واقعة هو فكتب محمد حسين هيكل قصته زينب وكتب العقاد ساره، وطه حسين الأيام وتوفيق الحكيم عودة الروح ونجيب محفوظ بداية ونهاية.

أما المسرحية وهي لا تخرج عن كونها قصة حوارية أى تتخذ الحوار أسلوباً أساسياً لها فكان أبرع كتابها على الإطلاق توفيق الحكيم الذي كتب أهل الكهف وبجماليون وشهر زاد وغيرها من المسرحيات غير أن هناك مسرحية من نوع آخر هي المسرحية الشعرية التي أراد القلم العربى أن يثبت أن العربية قادرة على إبداعها برغم خلوتاريخها كله منها فكتب أحمد شوقي مسرحياته الخالدة كيلوباترة ومجنون ليلى وعنترة وغيرها.

القصة القصيرة :

من أهم الفنون الأدبية التي تعد وليدة الإيقاع السريع للحياة الحديثة وللصحافة بوجه خاص فن القصة القصيرة... إنها نفس القصة التي تحررت من الشعر في القرن الثامن عشر واستأثرت باهتمام الناس لأنها تعرض عليهم صوراً من محبوبتهم الأولى، الحياة، وهي هنا تستجيب لطبيعة الحياة ذاتها في هذا العصر فتقتصر على شخصية أو أكثر وحدث أو

أكثر، لأن المساحة المتاحة لها في الصحيفة أو المجلة أو الوقت في الإذاعة لا يسمح لها بأكثر من ذلك وهكذا نشأت القصة القصيرة تماماً كما اتجهت آلات هذا العصر إلى أن تكون أصغر حجماً، وكما اتجهت الكتابة نفسها للاختصار بل لأجزاء حرف واحد ليبدل على كلمة أو أكثر... هذا هو اتجاه التطور وقد استجابت له القصة لتتكيف مع الواقع الجديد حدث هذا في مركز الحضارة الحاضرة في أوروبا الغربية ومنها انتقل إلى امتدادها الشرق والغرب، وإلى بلاد الحضارة الغابرة التي تطلعت إلى إحياء مجدها القديم لقد اختلف موقعنا الحضارى عما كان عليه الحال في أيام نهضتنا وأصبح كل ههنا أن نأخذ ونتابع ونتعلم، ودخلت القصة القصيرة حياتنا مع دخول الصحافة ومحاولتنا تسريع خطانا وفقاً لخطى العصر، وكما أن البارودى يمثل بداية الشعر الحديث، فإن المنفلوطى يمثل بداية القصة بوجه عام في الحياة العربية وتأثيره واضح على كتاب النوعين الأساسيين منها الطويل والقصير، وإذا كانت قصص المنفلوطى أو ما يدعى أحياناً مقالاته القصصية تحمل هدفها الإنسانى المعروف المتمثل في إنصاف الفقراء من الأغنياء والبؤساء من السعداء فإن قصص محمد تيمور وهو أحد رواد القصة القصيرة البارزين جعلت الهدف الاجتماعى والاخلاقى شيئاً ثانوياً وإن كنا لانعدم قصصاً يظهر فيها هذا الهدف بشكل أو بآخر.

والنقلة بين المنفلوطى ومحمد تيمور هي النقلة من الجوارومانسى العاطفى إلى الجوارومانسى العملى، وليس أدل على وجود الهدف الاجتماعى أحياناً في قصص تيمور من قصة «ماتراه العيون» التي عرضت حواراً بين طالب وعمدة وشيخ ورجل شركس وهو حوار يبرز فيه امتعاض الشركس من اعتزام الحكومة تعميم التعليم حيث ينال الفلاح نصيبه منه إن ممتعض من فكرة تعليم الفلاح وقلق منها قلقاً شديداً في نفس الوقت، وهو يرى أنه ليس للفلاح إلا السوط ولا شيء غير ذلك!

وفي ميدان القصة القصيرة اسهم كتاب بارزين عديدون مثل توفيق الحكيم وإبراهيم المصرى وصلاح ذهنى، و يوسف ادريس وغيرهم.

المقال :

كتابة المقال الأدبى خاصة أشبه بكتابة القصيدة من حيث أن يكون في منشئه خاطرة أو فكرة أو معنى يوصلها الكاتب إلى الناس في دفقة واحدة، ولهذا فخير المقالات ما كان

مصحوبا بذلك الإحساس الحار الدافق الذي يكون مصاحبا عادة للشعر.. ولعل هذا هو سبب تلك الصلة الحميمة التي تقوم بين بعض كتاب المقال والقراء شبيهة بتلك التي تقوم بين الشعراء ومتلقى الشعر في كلتا الحالتين يكون الكاتب والشاعر موصلا لما انفعلت به نفسه من إحساس صادق تجاه موضوع معين في عمل واحد محدود المساحة والوقت، ولأشك إن الصحافة هي والدة المقال بتطلبها للايجاز والتكثيف في أداء الفكرة أو المعنى.

ومعلوم أن المقال بدأ تاريخيا على يد «مونتني» في القرن السادس عشر ومابث القرن السابع عشر أن شهد ازدهاره وانتشاره، وفي القرن التاسع عشر أتيح للمقال طائفة من كبار الكتاب الذين وطدوا دعائمه مثل «هنت وهازلت ودي كرنس».

ولعل تاريخ المقال لا يختلف في عالمنا العربي عن تاريخه في أوروبا فع الصحافة التي ولدت في الشام ومصر ولد المقال وتناول موضوعات الإصلاح الاجتماعي والاستقلال السياسي ونبع فيه كثير من أرباب القلم أمثال الشيخ علي يوسف صاحب صحيفة المؤيد وإبراهيم المويلحي وحفني ناصف وباحثة البادية وهي السيدة ملك ناصف ابنته ومصطفى لطفى المنفلوطي وغيرهم، وفي الجيل الماضي تولى كتابة المقال كبار الكتاب أمثال الدكتور طه حسين والعقاد ولا يزال لهذا الفن الأدبي أهله من كبار الكتاب الذين يطالعون الناس على فترات منتظمة بمقالاتهم في شتى مايعن لهم من أفكار تستهدف الإصلاح الاجتماعي والرقى الفكرى، والصحافة القائمة اليوم في مصر والكويت تلمع فيها أسماء من كتاب المقال اليومى مثل مصطفى أمين وأنيس منصور وأحمد بهاء الدين في مصر وإبراهيم مكى في الكويت.

د - الأدب الكويتي

١ - الشعر:

تقع الكويت في ملتقى عدد من التيارات الحضارية التاريخية من الهند شرقا، ومن العراق شمالا، ومن الحجاز - مهد الدعوة الإسلامية غربا، ولعل هذا التنوع هو الذي جعلها في العصر الحديث تتقبل التأثيرات الحضارية المختلفة بهذه السرعة، وتنشط هذا النشاط الملحوظ للمشاركة في مختلف مجالات الجهد البشرى، ومنها مجال الأدب. ومن المعلوم أن هذه البلاد شهدت كبقية أجزاء الجزيرة العربية نشاطا أدبيا في العصر

الجاهلي تمثل في طرفة بن العبد وغيره وظهرت في معلقة طرفة ملامح البيئة البحرية. أما في العصر الحديث فيقسم الأستاذ خالد سعود الزيد في كتابه «أدباء الكويت في قرنين» المراحل التي مر بها الأدب إلى أربعة: أولاها مجيء الشاعر الأديب عبد الجليل الطباطبائي سنة ١٨٤٣ من العراق، وثانيها تفتح النهضة الفكرية في مصر والشام الحديثة بعد الجمود الذي ران عليها طيلة عدة قرون، وانسياب تيارها إلى الكويت على يد الأستاذ عبد العزيز الرشيد الذي يراه رائد التيار الفكرى الذي لا يزال ساريا في روح المجتمع الى اليوم، فقد درس في الأزهر والتقى بالصفوة المختارة من رجال الفكر أمثال الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار.

وثالثها مرحلة البعثات التي تمثلت في استقبال الكويت لبعثة تعليمية مكونة من أربعة أساتذة من فلسطين في عام ١٩٣٩، وإرسال بعثة تعليمية الى مصر سنة ١٩٣٩ وما صحب ذلك من نشاط صحفي امتد الى عام ١٩٥٨ حيث صدرت مجلة العربى التي يعتبر صدورها بداية المرحلة الرابعة من مراحل النهضة الفكرية والأدبية في الكويت بالإضافة الى ماشاركت به هذه المجلة الكبرى من إنعاش الحياة الفكرية على مستوى العالم العربى. ولقد تركز جهد الأستاذ خالد سعود الزيد على جمع الإنتاج الادبى والتعريف بأصحابه في هذا الكتاب ثم قام الدكتور محمد حسن عبدالله في ديوان الشعر الكويتى بعملية الاختيار والانتقاء من النتاج الشعرى لثلاثة وعشرين شاعرا يمثلون تاريخ الشعر الكويتى منذ نشأته. وذكر أنه ركز في هذا الاختيار على تصوير الواقع وقدرات الشعراء في أيامنا هذه أكثر مما حرص على كشف الماضى، وبذلك كان كتابة انتقاء للجميل والجيد، وتصويرا للتنوع والتفرد كما ذكر.

ومما يحتويه هذا الديوان أو المنتخب قصيدة للاستاذ أحمد العدواني موضوعها حوار بين والد وابنته عن شاعر زائر وبيننا يهون الوالد من شأن الشعر ذكر ان افلاطون أخرج الشعراء من مدينته الفاضلة تندفع الفتاة الى الدفاع عن الشعر بهذه الابيات:

قل لمن أفرط في الأشعار ذمها وازدراها
أنت إن ضاقت بك الدنيا الا تصرخ آها
أفلا تبكى إذا جاش على النفس اذاها
أفلا تهفو الى الوردة أو تهوى شذاها

هكذا الشعر احساسك مجلّو وأرى الشاعر من صور للنفس رؤاها
ولخالد سعود الزيد هذه الابيات في ولده:

على وجهه صورتي لويحي
وفي مقلتيه صدى منيعي
وفي شفتيه انسياب الجمال
نسما يجنح في اضلعي
وفي صوته بحة حلوة
هي النغم الفرد في مسمعي

وتستطيع أن تلمس هذا الشعر في دواوين الشعراء المحدثين أمثال فهد العسكر وصقر
الشبيب وخالد الفرج وفي دواوين المعاصرين كأحمد السقاف وخالد سعود الزيد وخليفة
الوقيان وغيرهم.

والشعر الكويتي في اتجاهاته ومذاهبه جزء من الشعر في العالم العربي فهناك القديم
المحافظ وهناك الجديد المسرف في التجديد.

والواقع ان ماتشهده الكويت من نهضة في مجال المكتبات والصحافة والجمعيات
العلمية وخاصة رابطة الأدباء كان له الأثر البارز بطبيعة الحال في إثراء الحركة الشعرية
في الكويت.

٢ - القصة والمسرحية

يتجاوز الإنتاج الأدبي الكويتي الشعر الى القصة، وهي هذا الوافد الجديد الى الحياة
العربية في القرن التاسع عشر وهي كذلك أيضا بالنسبة للحياة الأوربية بانفصالها في القرن
الثامن عشر عن الشعر، فهي بهذه المثابة وبهذا الشكل فن حديث، وكف الشعر عن أن
يكون قصة، وكفت القصة عن أن تكون شعرا.

والقصة القصيرة شأنها شأن المقال بنت الصحافة أو بنت الكلمة السريعة وعصر
السرعة، ومع الصحافة الكويتية في فترة عدم الاستقرار، ومعها في فترة الاستقرار والازدهار
الحالية ولدت القصة القصيرة، ويمكنك ان تجد في كتاب الدكتور محمد حسن عبدالله رسدا
دقيقا ومفصلا لحياة القصة في الكويت، وهو يعرض تأريخ الدكتور سليمان الشطي للقصة

في الكويت ولرواد هذا الفن فيها ومنهم فرحان راشد الفرحان، وهناك فهل الدويري الذي
كتب: فرصة ضاعت، والزوجة الثانية، والشيخ والعصفور والشارع ومهازل الحياة وغيرها.
وفاضل خلف صاحب المنقذة والسهم الأخير، وأحلام الشباب.

ومن كتاب القصة من جيل الوسط سليمان الشطي ومحمد الفايز وطارق عبدالله، ولعله
لم يبق من هذه المجموعة من ظل مرتبطا بالقصة إلا سليمان الشطي الذي صدرت له في سنة
١٩٧٠ مجموعة عنوانها الصوت الخافت وفي هذه المجموعة يصور الشطي حياة الكويت في
الماضي والحاضر وأيضا في نظرتها الى المستقبل.^(١)

اما سليمان الخليلي فيتمثل فيه مائلا على القصة القصيرة في عالم اليوم من اتجاهات
هي نفس الاتجاهات التي سيطرت على كافة الفنون بعد الحرب العالمية الثانية التي حطمت
الكثير من المفاهيم والقيم الثابتة والمنطق والتفكير العقلاني هو ما حطمت هذه الحرب
فنامت الرؤى في شتى الفنون وتقطعت أوصال الفكر فيها وغلبت عليها الكآبة والتشاؤم
ورفض العالم، وللخليفي من القصص قاع الجدار - الاسئلة المعلقة - خارج اللوحة -
اختلاط .

واذا كان سليمان الشطي حريصا على رسم ملامح البيئة والتعبير عنها وتوجيهها أيضا
فأنت لاتجد عند سليمان الخليلي حرصا على هذا التصوير في غمرة المنحى الجديد الذي يمثله
من تيار الوعي والقصة النفسية الجديدة.

ومع هذا فنحن سرعان مانعود إلى الواقع مع قصص عبد العزيز السريع وسرحه حيث
تظهر البيئة بوضوح في هذه القصص مثل أغنية الخلاص، قطبان، ومصير فرانسوا.

وهكذا نرى أن القصة باتجاهاتها ومدارسها المختلفة ممثلة في الأدب الكويتي اليوم.
والى جانب القصة القصيرة يمكننا أن نجد الرواية، والرواية الكويتية الأولى - فيما هو
معروف - «مدرسة بن المرقاب» التي كتبها عبدالله خلف، وهي تجرى على لسان مدرسة
كويتية تصور مائلا على المجتمع بعد تفجر النفط وماتبعه من ثروة مفاجئة، ويظهر فيها ميل
الكاتب وتعاطفه مع المجتمع القديم وقيمه.^(٢)

وكتب اسماعيل فهد: كانت السماء زرقاء والمستنقعات الضوئية والحبل، ويذكر

(١) انظر: د. محمد حسن عبدالله: الحركة الأدبية والفكرية ص ٤٦٩.

(٢) د. محمد حسن عبدالله: الحركة الأدبية والفكرية في الكويت: انظر ٥٠٧ وما بعدها.

الدكتور محمد حسن عبدالله أن الشاعر صلاح عبد الصبور قدم للرواية الأولى من هذه المجموعة بحماسة كبيرة، وأنها كانت في نظره إحدى علامات الفن الروائي العربي في القرن العشرين قادمة من حيث لم يتوقع... من الكويت.

أما المسرحية فقد كتب فيها الاستاذ احمد العدواني المسرحية الشعرية «مهزلة في مهزلة»، وكتب الاستاذ حمد الرقيب «خروف نيام نيام»^(١)

وهكذا نرى حرص الأدباء في الكويت على الاسهام في شتى الفنون الأدبية الحديثة من القصة القصيرة الى الرواية الى المسرحية الشعرية والنثرية، وهذا يجعلنا نصل بشكل طبيعي الى المسرح في الكويت.

وطموح الكويت ونشاطها الدائب للمشاركة في الحياة العصرية يتجلى في كثير من مجالات حياتها ومنها تلك الجهود التي بذلت وتبذل في مجال المسرح، ولقد تم الانتقال من المسرح الشعبي الذي يخاطب الجمهور الكويتي بلهجته ويعبر عن عاداته الخاصة، ومن المسرح المدرسي القائم على أساس تربوي الى المسرح الجماهيري العام بالاستعانة بالمسرحي الكبير الاستاذ زكي طليمات الذي أسهم بمجهود بارز في توطيد أسس المسرح العام وتقاليدته، وإنشاء جيل مسرحي على أسس علمية سليمة، ولقد أنشئ المسرح العربي في عام ١٩٦١، وأنشئ مركز الدراسات المسرحية في عام ١٩٦٥، وقدم المسرح العربي حتى موسم ١٩٧٣ صقر قریش، وفاتها القطار، ومضحك الخليفة... والكزن، وآدم وحواء والكويت سنة ٢٠٠٠، و٢٤ ساعة^(٢)

وتأسس مسرح الخليج العربي في عام ١٩٦٣ وقدم: الأسرة الضائعة والخطأ والفضيحة، وأنا والأيام والمحب الكبير، وضاع الديك.

وتم تأسيس المسرح الكويتي في ١٩٦٤ بمجهود محمد النشمي وقدم هذا المسرح. حظها يكسر الصخر، وشموع ودموع وناطور الدنانير، والنواخذة، ولعبة حلوة وسهاري^(٣) ولا تزال الحركة المسرحية في الكويت نشطة وتواصل عطاءها باستمرار كما لمعت عدة أسماء مسرحية على مستوى الجمهور في الكويت وفي الخليج العربي.

(١) د. محمد حسن عبدالله: الحركة الأدبية والفكرية في الكويت: ٥٢٩.

(٢) انظر الحركة الأدبية والفكرية في الكويت لمحمد حسن عبدالله، ٢٨٥.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٢٢.

هـ - النقد الأدبي:

أعمدة هذا النقد في العصر الحديث ثلاثة رجال هم مصطفى صادق الرافعي وطه حسين وعباس العقاد، أما الرافعي فيمثل النقد القديم بخصائصه الجزئية واللفظية، يعجبه اللفظ الجزل والتركيب المتين، والنقد عنده يقوم على الثقافة العميقة باللغة وأصولها وأوضاعها.

أما العقاد فالشاعر العظيم عنده هو الصادق في تعبيره عن شخصيته صدقا هو عنده آية الشعر والشاعر، وأهم ما يمتاز به الفن بالدرجة الأولى، وهو الذي يحتفظ للقصيدة بوحدها العضوية باعتبار ان القصيدة كائن حي يقوم كل عضويه بوظيفة محددة، وقد رأينا أن في هذين المحورين من محاور النقد مترسم لخطى النقد الانجليزي الذي تأثر به تأثرا عميقا.

والدكتور طه حسين أيضا يركز في نقده على الصدق الفني معياراً أساسياً، ولكن بينما يتمثل الصدق الفني عند العقاد في العلاقات الداخلية للنص، نراه يتمثل عند طه حسين في التاريخ الأدبي الذي هو أفضل حكم على صدق الشاعر ومن هذه النقطة كانت دعوة طه حسين الى عصرية الأسلوب الادبي من أجل تحقيق عنصر الصدق وفقاً لمعيار التاريخ الادبي^(١)

وفي الجيل الماضي نشبت معارك أدبية كبيرة كان مبعثها الأساسي اختلاف المدارس والمذاهب الأدبية والنقدية، ومنها مانشب بين الرافعي والعقاد، وبلغ هذا النقد درجات عالية من العنف والحدة تمثلت في كتاب «على السفور» الذي ألفه الرافعي مهاجماً فيه العقاد، وفي كتاب الديوان الشهير الذي ألفه العقاد وشكرى والمازني وتضمن حملة كبيرة على شوقي وشعره.

ونستطيع أن نلمح جانباً من هذه المعارك في كتاب العقاد شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، وفيه يواصل الحملة على شعر شوقي ويرد على المناصرين لشوقي مصرأ على موقفه من أن هذا الشعر هو شعر الصنعة لا شعر السليقة والطبع.

و - أدب الأطفال

بدأ التأليف للأطفال - خارج المقررات الدارسية - مبكراً نسبياً في العصر الحديث

(١) تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر. د. حلمي مرزوق ص ٥٢٣ وما بعدها.

في أوربا، فقد بدأ هذا النوع من التأليف في القرن الخامس عشر الميلادي حينما أخرج كاكستون قصة الثعلب رينار في عام ١٤٨١، ونشر دانييل ديغوقصة روبنسون كروزو في عام ١٧١٩، وجونتانان سويفت رجالات جلفر سنة ١٧١٦^(١)، وشاركت في ذلك فرنسا وألمانيا خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، وقد أدت دعوة جان جاك روسو إلى العناية بالطفل إلى زيادة المؤلفات المعدة له خصيصا لتنمية مواهبه من كتب القصص والمعلومات. وكما بدأت كل عناصر النهضة الحديثة في مصر والعالم العربي عبر الجسور التي امتدت إلى أوربا بعد الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ فقد بدأ الاهتمام بالأطفال مع دعوة رفاة الطهطاوى إلى العناية بهم وجدانيا وعقليا، وكان أن وضع إبراهيم العرب كتابا شعريا سار فيه على خطى لافونتين في إجراء الخرافات على ألسنة الحيوان. ولانصل إلى القرن العشرين حتى نجد أهم كاتب لأدب الأطفال وهو كامل كيلاني الذي يعد بحق رائدا لهذا النوع من التأليف وذلك حين نشر في عام ١٩٢٧ قصة السندباد البحري ثم كتب بعد ذلك مجموعة كبيرة من القصص والكتب للأطفال حتى وفاته في عام ١٩٥٩، وشارك الكيلاني وأعقبه نخبة من المؤلفين للأطفال منهم محمد سعيد العريان، وأحمد نجيب وعبد التواب يوسف، ويعقوب الشاروني.

وتنقسم كتب الأطفال إلى قسمين رئيسيين هما: كتب القصص، وكتب المعلومات، ومن القسم الأول القصص العلمي والتعليمي والأسطوري والتاريخي والديني والشعبي والبوليسي وغيرها، ومن كتب المعلومات التاريخي والاجتماعي والصحي والتكنولوجي وغيرها.

وواضح أن أهم مافي الكتابة للطفل هو مراعاة مستواه الفكري، فالتأليف للأطفال يختلف عن التأليف للكبار في الدرجة وليس في النوع، وهذا الاختلاف يقتضي في الكاتب مهارة معينة سواء في كتب القصص أو كتب المعلومات، وما أكثر ما تكون المعلومات موضوعة في شكل قصص لطيف وأنا أحب ذلك كثيرا في كتب الأطفال ولم لا؟ ألم يكتب جاليليو للكبار أدق مسائل الفيزياء في شكل حوار قصصي في بعض الأحيان؟ ألم يضع أفلاطون أهم آرائه في الدولة أوفي المدينة الفاضلة في كتابه الشهير الجمهورية في حوار قصصي؟

(١) كتب الأطفال في مصر (١٩٢٨ - ١٩٧٨) إعداد الدكتور رشدي خاطر وآخرين.

لما غلب «اصطلاح» الأدب على المؤلفات الموجهة للأطفال سواء كانت قصصا أو كتباً علمية؟ لأن المؤلف حر يص في كل منها على أن يكون الجمال سمة أساسية في أسلوبه ولأن الأدب فن جميل فإن ادب الأطفال لا يزال هو الاصطلاح المناسب لهذا النوع من التأليف هذا إذا صرفنا النظر عن الأدب بمعناه الواسع لأن ذلك يجعل كل تأليف أدبا لأن الأدب كما رأى القدماء وفقا لهذا المفهوم الواسع هو الأخذ عن كل علم بطرف، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الطرف ولا أن تصل فيه إلى مدى معين لأن القدماء أنفسهم لم يضعوا له هذا الحد.

نعم... الجمال هو الذي يجعل الكتابة للأطفال في قسميها الرئيسيين أدبا.

هذا هو ما اضطلع به النثر في مجال التأليف للأطفال اما ما اضطلع به الشعر فإن ما قام به شوقي أثناء دراسته في فرنسا متأثرا بالأدب الأوربية وعنايتها بأدب الطفل قد تمثل في مجموعة من القصص التربوية التي كتبها للأطفال حول الحيوان مما نعرض له في حديثنا عن شعر شوقي.

الفصل الثاني
التيارات الأدبية الحديثة
كما تتمثل في أبرز المؤلفات

الشعر

ديوان البارودي ومختاراته

تتوزع حياة البارودي — الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر — توزعا عادلا بين نزعتيه العسكرية ونزعتيه الشعرية وقد بلغ فيها معا أعلى المنازل والرتب ففي حياته العسكرية وصل إلى رتبة فريق وتولى وزارة الحربية، وفي حياته الشعرية يعد باعثا للشعر العربي الحديث وهو في الواقع أعلى قمة في المرحلة الأولى في نهضة هذا الشعر، وأهم ثمرة من ثمار الاطلاع على دواوين الفحول التي أخرجتها المطابع في بداية النهضة منذ عهد محمد علي.

والبارودي مثال للعصامية والموهبة في الشعر فهو لم يدرس عروضاً ولا نحواً وإنما أداه شغفه بالشعر العربي واكبابه عليه إلى أن تنطبع في نفسه هيئات تراكيبه، وترسخ فيها أركانه ودعائمه فإذا به ينسج على منوال الفحول مقلدا ومعارضاً ورائضا لسانه وقلبه على القول، وإذا به بعد ذلك يصوغ الشعر معبرا عن نفسه وأحداث حياته الشخصية وعصره ولكنك لا تزال تحس أنه يغترف من تلك البحور القديمة وينهل من مناهل الشعر العذبة في أزهى عصوره مجددا ديباجة هذا الفن ومخرجا له من عصور الضعف والظلام التي مر بها على مدى خمسة قرون تقريبا، وأنت تقرأ ديوانه الذي طبع في مصر من جزئين فتحس أنك مع شاعر من تلك العصور الزاهية بعث في العصر الحديث وأخذ يعبر عن تلك الحياة الجديدة ولكنه لا يستطيع أن يخلص تماما من آثار الماضي ولا أن ينفك من علائقه، وقد أسلفنا لك شيئا من شعره في عرضنا التاريخي للشعر الحديث.

وقد طبع ديوان البارودي طبعة جديدة في جزئين حققها وشرحها الاستاذان على الجارم، ومحمد شفيق معروف في سنة ١٩٧١ بدار المعارف بالقاهرة.

وإذا كان البارودي بشعره قد مثل أعلى قمة من قمم امتداد الجسر إلى أزهى عصور الماضي الأدبي العربي، فإنه هو نفسه قد أسهم إسهاماً فعالاً في بناء هذا الجسر ذاته وذلك بمختاراته التي خرجت للناس في أربعة أجزاء تتضمن ما اختاره هذا الشاعر الذواق من

أحاسن اشعار الفحول من شعراء العصر العباسي وقد رتبته على فنون الشعر التقليدية من مديح وغزل ووصف ورثاء وهجاء وأورد فيه أشعارا لبشار بن برد وأبي العتاهية وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وأبي الطيب المتنبي وغيرهم من كبار شعراء العرب الذين استقى هو نفسه من مناهلهم، وأراد أن يرى على هذه النماذج العالية أذواق من بعده من الشعراء وحتى يتصل مجرى نهر الشعر العربي على وتيرة القوة والسلاسة والصفاء.

الشوقيات

هذا العنوان لديوان هو من أهم دواوين الشعراء في المرحلة الثانية من مراحل نهضة الشعر العربي الحديث فقد وأثما في تاريخ الشعر العربي كله، وصاحبه هو أحمد شوقي الذي أجمع شعراء وأدباء البلاد العربية وغيرها على اعتباره أميراً للشعر.

وقد ولد أحمد شوقي بالقاهرة، وأتم دراسته العالية في مدرسة الحقوق ثم بعث على نفقة الخديوي توفيق إلى فرنسا حيث قضى بها أربع سنوات دارساً للقانون والآداب وعلت مكانته في عهد الخديوي عباس الثاني حتى إذا اشتعلت الحرب العالمية الأولى نفي إلى إسبانيا وحين عاد مع انتهاء هذه الحرب أصبح لسان الأمة المعبّر عن آمالها وآلامها المستخرج لحكماتها.

وأهم مؤلفات شوقي ديوانه هذا الموسوم بالشوقيات وعدد من المسرحيات الشعرية أهمها مجنون ليلى ومصرع كيلوباترة.

واسم الشوقيات يوحى بأن كل قصيدة تحمل سمة واسم شوقي، والحق أن القارئ المتمرس يمكنه التعرف على شعر شوقي من بين أشعار عديدة ولعل ذلك ينقض الدعوى الشائعة والتي بدأها العقاد رحمه الله بأن شعر شوقي هو شعر الصنعة التي لا تحمل من السمات الشخصية لصاحبها شيئاً.

وتقع الشوقيات في أربعة أجزاء أولها خاص بالسياسة والتاريخ والاجتماع وهو يبدأ بمقدمة للدكتور محمد حسين هيكل يستعرض فيها تاريخ مصر الحديث متطرقاً إلى شوقي وحياته في خضم الأحداث التاريخية من شيخوخة الدولة العثمانية، والثورة العربية واحتلال إنجلترا لمصر، ومحللاً شخصية شوقي في ذاتها وهو يذهب في ذلك إلى ازدواج شخصية الشاعر بين الإيمان وبين الإقبال على الحياة والمتاع بها.

وتستطيع أن تتجول مع هذا الجزء الأول في كثير من معالم الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية في شعر شوقي القوى العالی الرصين فأنا أنت ترحل معه إلى ماضى مصر في قصيدته الطويلة الرائعة كبار الحوادث في وادى النيل، أو تاريخ الاسلام ورسوله في مدائحه النبوية الشهيرة أو تشهد وقائع الحرب العثمانية اليونانية في مطولته العظيمة، صدى الحرب، والتي هي صورة خالدة وآية باقية من آيات الشعر، وأنا تعيش أحداث الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد، وذكرى دنشواى، والاعتداء على حياة سعد زغلول، واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فأنت إذن في هذا الجزء تعيش أحداث عصر بكامله، تعيشها بكل العمق وسعة الأفق والحكمة التي تمتع بها شوقي وأضفت على ذلك الجدول الصافي الرقراق من شعره كل جمال وجلال.

أما في الجزء الثانى فأنت تتنزه في روضة غناء من أجل رياض الشعر العربي بل أجل رياض الشعر العالمى فأنت معه في حفل راقص في قصر عابدين، إلى رذية للربيع في وادى النيل، إلى رحلة إلى غاب بولونيا في باريس حيث يستعيد الشاعر ذكرى من ذكريات الصبا: (١)

يا غاب بولونى ذمم عليك ولّى عهد
زمن تقضى للهوى ولنا بظلك هل يعود؟
حلم أريد رجوعه ورجوع أحلامي بعيد
ذهب الزمان أعادها هل للشبيبة من يعيد
ثم أنت مدعو لتركب معه السفينة وتمتع عينك وفكرك بمنظر طلوع الشمس وغروبها من أعلى السفينة، ومنظر آخر لطلوع البدن: (٢)

ملك السماء بهرت في الأنوار
ففذاك كل متوج من سار
لما طلعت على السماء تنيرها
سكنت وقد كانت بغير قرار

(١) الشوقيات : ج ٢ ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ٣١.

وزهت لناظرها السماء وقرّ ما

في البحر من عيب ومن تيار
ولكن أروع ماتشاهدها بعين الفكر في هذه الحديقة الغناء، هو جنيف أو بلدة المؤتمر
لناظرها في بهجة مناظرها... لقد خلق لنا الله من جمال الطبيعة متنزها لعيوننا، وخلق لنا
من جمال الفكر ماتتنزه فيه أفكارنا وتنعم في رياضة وغيضة ببدايع الجمال، ولا أزور هذه
الحديقة الغناء في هذا الجزء الثاني إلا وقفت متأملا هذه السرحة الفينانه والخميلة المزهرة
من خاتل الفكر والشعر:

لا السهد يدنني إليه ولا الكرى

طيف يزور بفضلها منها سرى

تخذ الدجى وساءه ونجومه

سبلا إلى جفنيك لم يرض الثرى

وأنا لي موفور النعم تخاله

ملكاً تم به السماء مطهراً^(١)

وبين مظاهر الطبيعة الفاتنة يجفو النوم عين الشاعر فيخرج من بين الجسور ليشهد حلما
أجل من كل الأحلام:

والماء فوق الديار وتحتها
متصوبا متصعدا متمهلا
والأرض من جسر حين درت ومعبّر
حتى إذا هدا الملا في ليله
وخرجت من بين الجسور لعلني
أوى إلى الشجرات وهى تهزنى
وهزمنى الماء في لمعانه
وهناك ازهت السماء وكان ان
فسريت في لألائه واذابه
حلم اعارتني العناية سمعها

وخلالها يجرى من حول القرى
متسرعاً متسلسلاً متعشرا
يصلان جسرا في المياه ومعبرا
جاذبت ليلي ثوبه متحيراً
استقبل العرف الحبيب اذا سرى
وقد اطمأن الطير فيها بالكرى
فأميل انظر فيه اطمع أن أرى
آنست نوراً مااتم وأهيرا
بدى تسايه الكواكب خطرا
فيه، فما استتممت حتى فسرا

(١) الشوقيات: ج ٢ ص ٣٣.

فرايت صفوى بهرة وأخذت اذ
سنى يقطه ومناى لبت خضرا
وأنت بعد ذلك المنظر الذى اجتزأنا لك بعضه هنا يدعوا الى رحلة مع الشاعر الآستانه في
طريقك من أوربا:

تلك الطبيعة قف بنايا سارى حتى أريك بديع صنع البارى
لكن أسرع معك وبك الى ماهو أفتن وأورع وأبدع الى رحلة بحرية نحو البسفور أو
البسفور كأنك تراه في تلك الرباعيات التي تتجاوز الوصف في الفتنة والروعة والجمال،
ولتقطف منها - على عجل - هذه الزهرات الياقة:

على أى الجنان بنا تمر وفى أى الحداثق تستقر
رويداً أيها الفلك الابىر بلغت بنا الربوع فأنت حر^(١)
سهرت ولم تم للركب عين كأن لم يضرهم صجر وأين
يحث خطاك لج بل لجيت بل الابريز بل افق افمر

فضاء مثل الفردوس فيه ومرأى في البحار بلا شبيه
فأيه يابنات الشعرايه فالك في عقوق الشعر عذر
جهات أم عذارى حاليات وماء أم سماء أم نبات
وتلك جزائر أم ممرات وكيف طلوعها والوقت ظهر^(٢)
وأنا مضطر الى أن اسرع بك الى الجزء الثالث من الشوقيات الى حيث يرثى شوقى
الراحلين من نجوم السياسة والأدب والفن والمجتمع تلك النجوم التي تغيب عن أفق الحياة
ويريد شوقى لشعاعها أن يظل خالدا ولا أثرها أن يظل باقيا، وهو يرد على منتقديه في ذلك
بقوله:

يقولون يرثى الراحلين فومحهم
أأمليت عند الراحلين الجوازيما
ابو حسدا ان اجمل الحى أسوة
لهم ومثالا قد يصادف حاذيا

(١) الشوقيات: ج ٢ ص ٤٠.

(٢) الشوقيات: ص ٤٢.

فلما رتب البيت اقضى حقوقه

وجدت حسوداً للرفات وشانياً^(١)

وشوق يرثى سليمان (باشا) أباطة، ومصطفى (باشا) فهمى والموسيقار الخالد سيد دوريش والمناضل عمر المختار، ومحمد تيمور الأديب الكبير صاحب القصص الاجتماعية، ومحمد فريد (بك) وعبد العزيز جاویش، والمنفلوطى الكاتب ذا الأسلوب الطلى الجميل، والشيخ سلامة حجازى.

أما الجزء الرابع من الشوقيات فقد طبع بعد وفاة الشاعر سنة ١٩٤٣ وتولى نشره الأستاذ محمد سعيد العريان الذي يقول إن هذا الجزء دفعه إلى من دفعه قصاصات من صحف وجزازات من ورق، وبقيّة من مطبوعات ومخطوطات أكلها البلى لأنظر في ترتيبها، وتبويبها، وإخراجها ديواناً، وهو يرى أن من التجوز أن تسمى ذلك جزءاً فما هو إلا بقية أو شيء من البقية التي لم تنشر في الأجزاء الثلاثة الأولى من الديوان فليس يجمعها باب ولا تضمها وحدة، ولا تميزها خصيصة من خصائص شعر شوقي وإن منها لاخر ما قال: وأوائل ما نظم من شعر الصبا^(٢)

وقد رتب الأستاذ العريان هذا الجزء على ستة أبواب، أولها: متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع، والثاني والثالث الخصوصيات والخطابات، والرابع ديوان الأطفال والخامس من شعر الصبا، والسادس مداعباته لصديقه الدكتور محجوب أو ما اسماه بالمحجوبيات.

وفي اعتقادي أنه كان أحرى أن تضم الحكايات إلى ديوان الأطفال لأنها إنما أنشئت من أجلهم، وإن تنفصل في هذا الباب عن الأناشيد والإرشاد المباشر فيكون باب الأطفال مكوناً من قسمين.

والواقع أننا نريد أن نقف وقفة أطول قليلاً عند هذا الشعر الذي كتبه شوقي للأطفال سواء في قسم الحكايات أو في قسم الإرشاد المباشر لأن الأشعار الواردة في الجزء الرابع عدا هذا القسم يمكن أن تضاف إلى الأجزاء الثلاثة السابقة كل فيما يلائمه من موضوعات التاريخ والسياسة أو الوصف أو غيرها.

(١) الشوقيات : ج ٣ ص ١٨١.

(٢) الشوقيات : ج ٤ ص ٥.

ومن المعلوم أن جان جاك روسو تحول بالتربية في فرنسا وفي أوروبا وفي العالم بوجه عام تحولاً هاماً حين أخرج كتابه الشهير إميل الذي جعل الطفل محور اهتمام العملية التربوية ودعا إلى تنمية مواهبه وملكاتة الطبيعية بعد أن كان الطفل يعتبر كائنًا يحمل على كتفيه الصغيرتين وزر البشرية وخطيئتهما، وبذلك بذر بذرة الاهتمام بالأطفال باعتبارهم المستقبل، وقد وجد شوقي من مظاهر الاهتمام بالطفل في أوروبا ما جعله يكتب له مجموعة من الحكايات عن الحيوانات الهدف منها توجيهه إلى السلوك السليم في الحياة، وهذه تعد لفئة بالغة الأهمية من أمير الشعراء في ذلك الوقت المبكر نسبياً الذي كان يشهد بداية النهضة الشاملة في مصر وفي العالم العربي بوجه عام، وهي تضاف إلى أيادي شوقي على الشعر والأدب والمجتمع.

معظم هذه الحكايات على سرد القصة التي تحتّم بيت يحتوى على العبرة منها وذلك في أسلوب شوقي الصافي المتسلسل في غير عشرات أو فجوات والذي راعى قربه من المستوى الإدراكي للطفل، ففي حكاية الديك الهندي والدجاج البلدى يروى قصة ديك هندي طرق باب بعض الدجاج الرئى راجياً أن ينزل ضيفاً عليه، وما ان استقر به المقام حتى سلك سلوك المالك في بيت الدجاج ناقضاً عهده مع الدجاج ألا يكون له فيه إلى الماء والنمام وليس له أن يمد عينه ويده إلى غير ذلك، وبعد أن ذكره الدجاج بعهده سخر الديك قائلاً إن ذلك كان قبل أن يفتح له باب البيت.

وواضح أنها قصة تدعو إلى الحيلة من الغرباء وعدم الاطمئنان لأول طارق أو دعوى. وهناك قصة القبرة وابنها وهي دعوة إلى التأنى ونهى عن التسرع في بلوغ الأمانى، فلنر فيها نموذجاً لفن شوقي الرائد بحق في هذا المجال:

رأيت في بعض الرياض قُبْرَهُ
تطيرُ ابنها بأعلى الشجرة
وهى تقول : يا جبال العيش
لا تعتمد على الجناح المَشْتِ
وقف على عودٍ بجنب عود
وأفعل كما أفعل في الصعود

فانتقلت من فني الى فن
وجعلت لكل نغمة زمن
كس يستريح الفرح في الاثناء
فلا يمل ثقل الهواء
لكنه قد خالف الاشارة
لما أراد يظهري الشطارة
وطار في الفضاء حتى ارتفع
فخانه جناحه فوقعا
فانكسرت في الحال ركبته
ولم ينل من العلا مناه
ولوتأني نال ماتمني
وعاش طول عمره مهتبا
لكل شيء في الحياة وقته
وغاية المستعجلين فوته^(١)

ديوان حافظ ابراهيم

وهانحن الان نفتح ديوانا آخر لشاعر كبير من شعراء المرحلة الثانية من مراحل النهضة التي تلت مرحلة البارودي ذلك هو ديوان الشاعر الكبير حافظ ابراهيم الذي لقب بشاعر النيل وكانت ولادته في «ذهبية» على صفحة النيل بالقرب من قناطر (ديروط) بصعيد مصر، ولا يعرف تاريخ مولده، وقد تم تقديره بعام ١٨٧٢، وكان حافظ ملولا لا يستقر في دراسة أو عمل، ودخل المدرسة الحربية وحصل على «عريضة ملازم أول» وعمل في الحربية والبوليس ثم عين رئيسا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية بعد أن سافر الى السودان في الحملة التي كانت بقيادة كوش.

وعلى أي حال فقد نشر ديوان حافظ في سنة ١٩٦٩، نشره محمد أمين دمج، وقام

(١) الشوقيات : ج٤ ص ١٥٧.

بضبطه وتصحيحه وشرحه وترتيبه الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري وكتب الاستاذ أحمد أمين مقدمة الديوان وضمها معلومات دقيقة عن حياة الشاعر مستمدة من ملف خدمته المحفوظ بإدارة المعاشات، وتحدث حديثا شاملا عن سيرته وأخلاقه، وضيقة بنقد شعره، ومصادر ثقافته التي لم تكن ثقافة عميقة أو واسعة، وذكر أن دخوله المدرسة الحربية كان عن رغبة منه في أن يحذو حذو البارودي في الجمع بين السيف والقلم الا أن حافظا حقق الثانية ولم يكن له قبل بتحقيق الأولى فلم يكن له صبر على حياة الجندية. وأفرد الاستاذ أحمد أمين في هذه المقدمة القيمة حديثا طويلا عن شعر حافظ بين القديم والجديد، ورأى أنه كان قوى العاطفة، حسن الصياغة، جميل الموسيقى، ولكن أعوزته قوة الخيال.

وقد تم نشر الديوان بمبادرة من زكي العرابي (باشا) وزير المعارف العمومية آنذاك الذي جعل وزارة المعارف تقوم على طبعه فيما ذكر الاستاذ أحمد أمين في الطبعة الأولى للديوان^(١)

وحيثا قلبت في هذا الديوان وجدت العصر وأحداثه ماثلة أمام عينيك تماما وكما ترى ذلك في الجزء الأول من الشوقيات فهذه قصيدة في حادثة دنشواي، وهذه في رثاء محمد فريد ورثاء المغفور له سعد زغلول، وكان حافظ شأنه شأن شوقي يشارك بشعره في شتى المناسبات الشخصية والقومية فهو يحمي واصف غالي (بك) بمناسبة صدور كتابه «حديقة الأزهار» الذي ترجم فيه بعض الشعر العربي إلى الفرنسية ويهنيء السلطان كامل حسين بالسلطنة في سنة ١٩١٤، وينظم قصيدة في ذكرى شيكسبير تلبية لدعوة المجمع العلمي بانجلترا الذي احتفل بمرور ثلاثمائة عام على وفاة الشاعر الانجليزي الكبير.

ومعروف أن شعر المناسبات قد هوجم هجوما عنيفا من قبل الاستاذ العقاد ومدرسته، الديوان الا أنني أرى فيه شعر الحياة، والحق ان الشعر قام في جيل حافظ وشوقي وأحزابها بدور كبير في نشر الثقافة والحكمة والذوق العالي الرفيع بمشاركته في الأحداث الشخصية والقومية وهي مشاركة أصبح يستحي الآن منها بعض الاستحياء بعد هذه الحملة العارمة عليه.

(١) ديوان حافظ ابراهيم : انظر ص ٤٠ وما قبلها.

ديوان العقاد

العقاد — شاعراً — هو أهم معلم من المعالم الشعرية في المرحلة الثالثة في فترة النهضة الحديثة للشعر العربي، ولا عجب فهو الذي حمل لواء الثورة على المرحلة الثانية ممثلة في أحمد شوقي معتبرا شعره مثلاً للشعر المصنوع لا المطبوع، وآخذاً عليه وعلى احزابه كثرة القول في المناسبات، وكنا قد أسلفنا أن انتهاء العقاد إلى الثقافة الانجليزية وانتهاء شوقي إلى المدرسة الفرنسية كانا من أسباب مانشب من خلاف بين المدرستين فيما صرح به العقاد نفسه في كتابه شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي وقد حرص العقاد أن يطبق مذهبه النقدي في شعره فتجنب بقدر ما استطاع شعر المناسبات ونفس عناوين قصائده في ديوانه تدل على هذا القصد من جانبه فهناك فينوس على جنة ادونيس، والنوم، والليل والبحر، وعمود فرعون وسباق الشياطين، والحب الأول، وعيون الحب، والهزيمة المرغوبة، وثورة النفس.

وانت ترى في هذا الديوان العقاد ابن اسوان وانطباع الآثار المصرية في نفسه وشعره:

يادار بطليموس حسبك رفعةً وصيانة بين البنى وجمالا^(١)
حرص الزمان عليك وهو موكل بالشاغحات يحيلها احلالا
ومنها:

ملك الفراعنة الحماة وخلفوا للملك اعلاما بمصر طوالا
وديوان العقاد الذي طبع سنة ١٩٦٧ في احدى مطابع أسوان يضم في الواقع أربعة دواوين: يقظة الصباح ووهج الظهيرة وأشباح الأصيل وأشجان الليل.

والواقع أنك تحس جفافاً في شعر العقاد، والشعر ليس فقط لغة وعروضا إنما هو قبل ذلك ومع ذلك فن فيه الإحساس والشخصية والروح، والعقاد مفكر له مكانته بلا شك ولكن ليست له روح الشاعر وتحليقه ولهذا لا تراه موفقا كثيراً في اختيار اللفظ الشعري الموحى، ولست أنكر أنه في بعض الأحيان يرتفع ويخلق ولكن شعره بوجه عام جاف وغير قادر على التحليق في الآفاق العليا للشعر.

تأمل معنى قوله على سبيل المثال:

(١) ديوان العقاد ص ١٤٤.

أغلى جالك في النواظر أن عرض لشين في النفوس كثير
وأنا له منا المقادة أنه في الأرض رمز كمالها المحظور^(١)
فما رأيك في كلمات كعرض لشين والمقادة والكمال المحظور في موقف كهذا الموقف، ألا ترى معنى أن شاعرنا غير موفق كثيراً في وضع الكلمات في مثل هذا الموضع: وما رأيك في نعتة السماء بأمر علوي قوله:

عبدوك من قدم وماعرفوك
يألم علو وعرشها المسموك^(٢)
ولكنك قد تقع له بين الحين والحين على مثل قوله:

تسرى نوافحه فيزدهر الصبا
ويفتح الأكماس في الوجينات
ولكن هذا وأمثاله قليل، وللشعر طعم ونكهة وروح ولأجل هذا تستحسنه أولاً تستحسنه لأول وهله تماماً كما تستحسن الشراب أو الطعام أو الرائحة، ولا عجب فالشعر عودة الكلام إلى أصل اللغة وأصل الإنسان وهو لذلك أقرب إلى نفسه وميوله الأساسية. وقد قدم المازني ديوان صديقه العقاد فوصفه بأنه بحر بلا انتهاء ولكنه احتاط احتياط الناقد الأملعى فقال: وفي هذا الشعر مافي الحياة والطبيعة، وليس كل مافي الحياة معجها موفقا، ولا كل مافي الطبيعة الازهار والرياحين، فثم إلى جانبها الشوك والجبال والجرعاء والبراكين الفائرة الثائرة بالخراب والدمار والنقمة، والعقاد نفسه يقر أن في ديوانه «غباء» إلى جانب الحكمة ويأساً إلى جوار الرجاء، وهكذا حسن المازني مافي هذا الديوان وهذا الشعر من جفاف وجبال جرءاء في المعنى واللفظ بهذا الأسلوب «الدبلوماسي» الذي ارتكز فيه على ما قاله العقاد نفسه:

فيه من الحكمة والغباء^(٣)
وفيه من يأس ومن رجاء

(١) ديوان العقاد ص ٢٦٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٤.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٥.

ديوان الخليل

وهو يحمل الإنتاج الشعري لقطب من أقطاب المرحلة الثانية للنهضة مرحلة شوقي وحافظ وإسماعيل صبري، إنه شاعر لبنان أو هو شاعر القطرين لبنان ومصر، ودعنا نراه يبين طريقته في الشعر ومذهبه فيه وهو يقدم ديوانه المكون من أربعة أجزاء بقوله: هذا شعر ليس ناظمه بعده، ولا تحمله ضرورات الوزن والقافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها ومواقفها مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشغوفه عن الشعر الحر.

ومطران يرى أن ذلك — وليس منظوماته الضعيفة كما يقول — هو شعر المستقبل^(١)، وهو بلا شك يعول على وحدة القصيدة تلك التي كانت شغلا شاعلاً لرجال المرحلة الثالثة والحق أن شوقيا وحافظا قد هاجما كذلك الموضوعات القديمة من مدح وهجاء وغيرها واستكثر شوقي أن يكون معظم شعر المتنبي معروفا في المديح وأقله في الحكمة وفنون الشعر العالية، ولم يكن التحول سهلاً أو يسيراً وسيظل كذلك غير سهل ولا يسير لسبب بسيط هو أننا إذا أردنا أن يكون الشعر شعر الحياة حقاً وصدقاً فيجب ألا تحرم عليه موضوعاً دون آخر بل يجب أن ندعه يتفاعل مع الحياة آخذاً منها ومعطياً لها وفيها الرضى والسخط على ألا ينحط الشعر إلى ذلك الدرك من الارتباط بالمأل فهو أعلى وأرفع من ذلك، وهو قد ترفع عن ذلك حقاً في العصر الحديث.

ولنعد إلى ديوان الخليل لنراه يحاول أن يطبق منهجه ما استطاع ولكنه يظل يقول في المناسبات الكبرى والصغرى، فهو يقول شعره في مناسبات شتى، إذ يوجه إحدى قصائده إلى سمو الخديوي عباس حلمي الثاني على إثر حادث سياسي ذي خطر، بل إنه يبدأ هذه القصيدة بالغزل:

تداول قلبي وجده فيك والذكر
فهذا له ليل وهذا له فجر

وهو يخاطب بعد ذلك الخديوي بقوله:

(١) ديوان الخليل: ص ١٠.

أمولاي إن مرت ببدر سحابة

فاكسيت نوراً ولا أظلم البدر

تمر بعيداً عن معالي سمائه

وتمضي عبوساً وهو جذلان يفر^(١)

وهو يرثي المرحوم الشيخ نجيب الحداد:

إربأ بنفسك أن تكون نجيباً

وازجر فؤادك أن يكون أريباً^(٢)

وهو يقول الشعر في مناسبة ترك العالم القانوني الأستاذ اسكندر عمون بك منصبه في القضاء وينصرف إلى الحمامة ويقول كذلك في الهلال الأحمر، وعند تأسيس الجمعية التشريعية.

ديوان الحمائل لايليا أبي ماضي

امتد الجسر الفكري إلى قلب الحضارة الحاضرة مرتكزا على فرنسا وامتد مرتكزا على انجلترا ووجد الصراع بين الدولتين على النفوذ العسكري والثقافي طريقه إلى الشعر فكان ما كان من ثورة العقاد ومدرسته على شوقي ومدرسته، وامتد الجسر فكرياً وبشريا من الشام إلى امتداد الحضارة الأوروبية الحاضرة غرباً في أمريكا الشمالية وامتد أيضاً إلى أمريكا الجنوبية، وغردت من هناك بلابل الشعر العربي وبلغ صوتها المشرق وكانت حريصة على بلوغه، ونشأت في كل منها «الرابطة العلمية والعصبة الأندلسية».

ونحن نستطيع أن نضع أيدينا على معلم بارز من معالم الشعر المهجري بأسره مثلاً في إيليا أبي ماضي وعلى ديوان ربما كان أهم دواوينه وأشهرها هو ديوان الحمائل ولا أحد يجهل مكان إيليا أبي ماضي من الشعر المهجري ومن الشعر العربي وقد تغنى المغنون بهذا الشعر في العالم العربي، ناقلين إلى الجماهير العريضة حيرته أمام الكون والحياة في قصيدته لست أدري، وكذلك دعوته إلى التفاؤل المنسجم مع الطبيعة:

أيها الشاكي ومابك داء^{*} كن جميلاً ترى الوجود جميلاً

(١) ديوان الخليل: ص ٧٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٩.

والخمائيل طبع حتى سنة ١٩٦٩ ثمانى طبعات كانت أولاها في سنة ١٩٦٠ في بيروت. وعند إيليا تلتقى الموضوعات الجديدة بالشكل الشعري المتطور فالشاعر حريص على تجنب الموضوعات التقليدية ما أمكنه. إنه يريد أن يكون شاعرا جديداً يرضى موجه النقد الجديد أما في قالب الشعر فهو ينوع الوزن وينوع القافية إنه لا يتطرف فيعطى لنفسه الحرية في أن عيد بعدد التفعيلات في الشطر كما يشاء ولكنه أحيانا كثيرة لا يلتزم قافية واحدة ولا وزنا واحدا في نفس القصيدة، ولأنه حريص على أن يكون جديدا في موضوعاته فهو يختار مثلا قصة رمزية تدور أحداثها بين ملك جائر متغطرس وبين شاعر فقير ولكنه معتر بفننه وكرامته، وكأنما يريد إيليا بمثل هذا الشعر أن يثار لكرامة الشعراء من قرون وقرون ذلوا فيها للملوك ولأموالهم وسلطانهم هكذا خيل إليه فيما يبدو، ودعنا الآن نقرأ شيئا من هذه القصيدة أو هذه القصيدة التي حرص الشاعر أن تكون قصة مجاريا فيها الاتجاه الغربي الذي لم يستطع أن يتخلص من إرث الشعر اليوناني القصص القديم:

أمر السلطان بالشاعر يوماً فأثاه
في كساء حائل الصبغة وإه جانباه
وحذاء أو شكت تفلت منه قدماه
قال صف جاهي في وصفك لي للشعر جاه
إن لي القصر الذي لا يبلغ الطير ذراه
ولي الروض الذي يعبق بالمسك ثراه
أن هذا الكون ملكي أنا في الكون إله
ضحك الشاعر مما سمعته أذناه
وتمنى أن يداجي فعصته شفتاه
قال اني لا اري الامر كما أنت تراه
ان ملكي قد طوى ملكك عنى ومجاه

و يغضب الملك الجائر بطبيعة الحال ويأمر بقتل الشاعر. وهذا نموذج من الشعر يرضى أولئك النقاد الذين يريدون الشعر كله قصصا، ويحبذون أن يكون القصص رمزا ولست أرى في ذلك إلا عناصر الشعر القصصى اليوناني القديم تفرض نفسها على الشعر الغنائى الاورنى الحديث وعلى من يقتفون خطى هذا الشعر في غير أوربا، لكن القصيدة فن والشعر فن.

آخر، وإذا كانت القصيدة قد استقلت عن الشعر في أوربا منذ القرن الثامن عشر فإن الشعر الاورنى لم يتمكن من التخلص من آثارها تماما في صورته الغنائية. وعلى أى حال فهذه القضية لا تشغلنا عما تراه في شعر إيليا أبى ماضى في هذه القصيدة وغيرها من قصائد الديوان من قوة في النسيج ومن خبرة ملحوظة بالتراكيب العربية الجيدة.

ديوان على محمود طه

هذا الشاعر وديوانه نتاج لما ثار واضطرب في مجرى الشعر الحديث في مصر بعد ما كان بين مدرسة شوق وبين العقاد ومدرسته، ذلك الصراع الذي انتقل الى الشعر امتدادا للصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية في مصر، وأكاد أقول امتدادا للصراع بين الحياة العالية المترفة التي مثلها شوق والحياة العادية التي عاشها العقاد.

نشأ جيل من الشعراء أثر فيه ذلك الصراع فابتعد به أحيانا عن الموضوعات القديمة الا مادعت إليه المناسبات من حفل تنويع أو زفاف ملكى أو غيرها من وفاة عظيم من عظماء الامة وهو في ذلك يتجه الى الصور الجديدة والمعانى الجديدة خشية ان يرمى بالقديم الذي هاجمه حتى شوقي وحافظ من شعر المديح الذي غلب على الشعر العربى في أزهى عصوره، وابتعد به أحيانا كثيرة عن القافية الواحدة، فهو جيل مجدد بشكل متحفظ — في الموضوع وفي الشكل الشعري بهذا التحفظ والاحتياط الذي تخلى عنه أصحاب الشعر الحر إنه جيل على محمود طه وابراهيم ناجى في مصر، والفيتورى في السودان وهذا الديوان الذى نشرته دار العودة في بيروت هو في الواقع مجموعة من الدواوين هي «الملاح التائه، وليالى الملاح التائه، وأرواح وأشباح، وزهر وخر، والشرق العائد، وشرق وغرب».

ورحلتك في هذا الديوان أو تلك المجموعة من الدواوين هي رحلة مع الجرس الموسيقى الرنان ومع الصورة الشعرية الملونة، فالشاعر يصور رحلته بالباخرة من الاسكندرية الى بيروت وأثينا بقوله:

مسراك نور وانسام وانداء
فاخفق شرعى وطري صدح لك الماء
يا أيها القلق الحيران لي امل
تشدو به موجة في البحر عذراء

يحدوك بالنغم السكران ارغنها
في مسبح ماؤه زهرٌ وصهباء^(١)
وأنت من حيث الموضوع مع شاعر مفتون بالحياة وجمالها تهره مجالها البديعة. ولكنك
دائما معه تقف عند سطح الأشياء وبريقها، ولا تجد تلك الظلال الشعرية التي تفرزها
الثقافة العميقة الواسعة.

وعلى محمود طه شاعر الطبيعة لا ينساها في أى موقف إنها دائما في خاطره بليلها ونهارها
ونجومها ووهادها وازهارها وأطيافها وشمسها المشرقة والغاربة تلمس هذا حتى من
عناوين قصائده: على الصخرة البيضاء، الشاطئ المهجور، الى البحر، البحيرة، القرية،
النهر الظامى، القمر العاشق، في السماء، سارية الفجر، نعم... الطبيعة بكل مجالها دائما
في خاطر على محمود طه هي والمرأة الجميلة.
ويبدو أن شاعرنا أراد أن يحقق في شعره قيم النقد الجديد ما استطاع، فالعقاد كما رأينا
يجعل ظهور الطبيعة في الشعر بجمالها وجلالها مقياسا للشاعر العظيم.

ديوان بدر شاكر السياب

ولعلنا لانجد خيرا من هذا الديوان معلما من معالم الشعر الحرف هو أكثرها بروزا على
طريق هذا الاتجاه، وقد أخلص صاحبه له إخلاصا كبيرا. ونحن نجد مقدمة جيدة لهذا
الديوان كتبها الأستاذ ناجى علوش، وتحدث فيها عن بدء مدرسة الشعر العربي الحر، ويرى
أن محاولات الدكتور لويس عوض وعلى أحمد باكثير هي الحائزة على قصب السبق في هذا
المجال «لكنها كانت كالصيحة في الوادي».

أما بدر شاكر فهو نتاج لثقافات متعددة من الأدب العربي والروسي واللغة الانجليزية
ولدرس القرآن والتوراة والانجيل بالإضافة إلى نموه النفسي غير المتوازن وضعفه الجسمي،
وكذلك لتعرضه لصراع الثقافات المتحاربة دون وجود خلفية مناسبة أو قدرة على الوقوف في
وجه العاصفة... هذه المكونات تخرج لنا في النهاية بدر شاكر السياب.

وهذا الديوان المنشور في بيروت سنة ١٩٧١ يضم دواوين بدر شاكر وأساطير المعبد
العريق، منزل الأقبان، انشودة المطر وشناويل ابنة الجبل.

(١) ديوان على محمود طه ص ٧٢٠.

وكما ذكرنا في عرضنا التاريخي للتيارات الحديثة في الأدب فهذا الشعر كان رفضا
للتراث الشعري بشكله الموسيقي القديم من ناحية هيكل التفعيلات فهو يأخذ التفعيلة
كوحدة أساسية ولا يلزم نفسه بعدد معين منها أو بنظام خاص في ترتيبها كما أنه يعنى نفسه
كليا أو جزئيا من القافية، أما موضوعاته فهي الأسطورة والحلم والرمز وغيرها مما نادى به
المذاهب الشعرية الحديثة في الغرب.

القصة المروية

«زينب»

محمد حسين هيكل

وسوف نجد اجماعا على أنها بداية القصص المكتوب على أساس فني أدبنا الحديث.
وموضوع القصة يدور حول الحب الذي ينتهى بسبب المجتمع ومواقفاته الى نهاية محزنة
وزينب بطلة القصة هي التي تختار هذه النهاية. ان زينب وهي العاملة الريفية الجميلة
تصرف النظر عن الزواج من حامد الشاب الغني المنحدر من عائلة أرستقراطية بسبب
الفارق الاجتماعي، والاقتصادى بينها مع أنها كانت تميل إليه، وهي تقع في حب ابراهيم
رئيس العمال ومع هذا فهي تتزوج حسن ذلك الفتى الطيب ولكن حبها لابراهيم يظل نارا
تلهب قلبها بسعيرها بعد هذا الزواج وتظل زينب موزعة اللب بين واجبها كزوجة أما حامد
فإنه بعد بأسه من زينب يصرف هواه الى عزيزة وهي فتاة ريفية أيضا ولكنها تقضى طرفا
من حياتها بالمدينة... وعندما تتزوج عزيزة من غير حامد يصاب بصدمة نفسية عنيفة ويهجر
أهله أما زينب فحين يسافر حبيبها ابراهيم عن البلدة تصاب بصدمة أكثر عنفا من هذه
الصدمة إذ تصاب بداء الصدر وتموت وهي تمسك في يدها بمنديل لابراهيم وغاية هذه
القصة تتلخص في النصيحة التي قدمتها زينب لأختها وهي تجتاز محنتها التي أدت بها الى
الهلاك وهي ألا تتزوج أبدا الا ممن يختار قلبها، وكان هذا موضوعا خطيرا في الايام التي
كتبت فيها هذه القصة.

وكأنما كل الاحداث في القصة تؤدي الى هذه الغاية وتخدمها وتحذر من مخالفتها فالزواج
الذي يخالف سنة الحب مقضى عليه بالإخفاق بل إن الذي يعاكس تيار الحب ويتزوج
من غير من يحب مقضى عليه هو نفسه بالهلاك، لقد جنت زينب على نفسها وعلى ابراهيم

وعلى حامد أيضا من قبله، وهناك شيء قليل من الخلل في حبكتها الفنية فزينب أحبت حامدا وهي أيضا أحبت إبراهيم، ربما كان حبها لإبراهيم أقوى وهذا هو الواقع ولكن القصة اهتمت كثيرا الى جانب زينب بأمر حامد ووصلت الى حد ما أصابه حينما تركته عزيزة وتزوجت سواء وليس بين زينب وحامد إلا هذا الحب العابر لان كلا منها انشغل عن الآخر بحب آخر انشغالا حقيقيا.

وتدور القصة كلها على مسرح الريف مما أعطى الكاتب فرصة واسعة لتصوير الريف وأخلاق أهله من صبر وكبت للعواطف واستسلام^(١).

عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم

تصور هذه القصة إحدى صور اللقاء الطريف والعميق معا للشرق بالغرب فبحسن الشرق يذهب الى باريس — مدينة النور — بكل ما يحمله من تقاليد الشرق ووجهة نظره للحياة وتخلفه الحضارى، وبكل ما يحمله هو شخصيا من حب للتماثيل والموسيقى وظواهر الحضارة التي يجدها ماثلة في الغرب... إنه ذلك الإنسان المرهف الحساس العفوى الذي ترسبت في أعماقه حضارة غابرة يقف مبهورا أمام الحضارة الحاضرة.

هذه هي المفارقة الأساسية الأولى في القصة بين الشرق والغرب، وهناك مفارقات أخرى بين المثالية التي يحملها محسن في ذاته وبين الواقع الذي يصطدم به في الحياة، فهذا العاشق الهائم يرسم له خياله صورا مثالية للفتاة الجميلة التي يقع في هواها ويحسبها أبعد من نجوم السماء، أو العنقاء بينما هي أقرب ما تكون إليه إذا عرف حقائق الحياة، ثم هو يؤخذ بما ألم بفرنسا في ذلك الوقت من ضوايق اقتصادية أثناء الحرب العالمية فهو يعيش مع اندريه وأسرته والمشاكل الاقتصادية التي تواجهها، وهو يلمس البؤس في شخص إيفان الروسي وفي أشخاص أولئك الفنانين، ومحسن يلتمس مواطن القوة في حياة الشرق، والبعد عن مواطن الزلل في الحياة الغربية، وكل ذلك في أسلوب ساحر سلس هو أشبه بريشه الرسام الماهر، هذا الرسام الذي يخلق بخطوطه وألوانه جوا غنيا بالإحباطات العميقة مع مالهذه الخطوط والألوان من بساطة.

(١) انظر: قصة زينب لمحمد حسين هيكل للدكتور محمود شوكت: ١٥٤.

القاهرة الجديدة لنجيب محفوظ

يعد نجيب محفوظ المعلم الثالث من معالم القصة العربية بعد هيكل والحكيم وهو ينحو المنحنى الغربى الذي يجعل الفرد نتيجة للمجتمع والبيئة، وكما يقال بحق فالبيئة هي إحدى بل هي أبرز الشخصيات في قصص نجيب محفوظ وقد ركز اهتمامه على الطبقات الشعبية بيننا أثر العيوب الاجتماعية في سقوط الشخصية وتحطيمها. إن مصور بارع بلا شك ومع هذا فأنت تفتقد عنده ماتجد عند توفيق الحكيم من إحياءات بعيدة عميقة، وكثيرا ما يبدو لي الفرق بين الحكيم ونجيب محفوظ كالفرق بين الرسام وبين المصور. الحكيم يخطط المنظر بريشته، و محفوظ يلتقطه بالكاميرا التقاطا بارعا حقا ولكن شتان بين اللونين والنكهتين! وقصص نجيب محفوظ رائعة وشائعة وأكثرها تلففته السينما وظهر على شاشتها مع تحويرات قليلة أو غير قليلة.

وإذا كان لنا أن نختار إحدى هذه القصص لنلقى نظرة على إنتاج نجيب محفوظ فلتكن القاهرة الجديدة وأحداث القصة تدور حول شاب يتخرج في الجامعة في ذلك العهد الذي كانت الجامعة فيه في بداياتها، ولأنه يريد أن يصل بسرعة إلى المنصب والجاه والثروة والحياة الفخمة العالية فإنه لا يجد غضاضة في أن يتوسل الى ذلك بأحط ما يمكن ان يتوسل به الإنسان الى غايته... انه يضحي بشرفه وكرامته كزوج ويتغاضى عن علاقة زوجته بمديره وهو يصل الى هدفه ويحقق حلمه في الوصول الى المنصب والجاه العريض ويتصل بأرقى الشخصيات في المجتمع ولكن أمره لا يلبث أن يفتضح... إنه يقف موقفا لا يحسد عليه حتى يفاجئه والده وينكشف ماستره طويلا عن الناس وخاصة عن أهله ومجتمعه الصغير ويكون في ذلك سقوطه وتحطمه والواقع أن منذ بداية القصة يرسم نجيب محفوظ الخطوط التي تقود الى هذه النهاية في هذه المجموعة من الشباب التي فقدت إيمانها بالمبادئ والمثل العليا ويكشف ذلك أثناء الحوار الذي يدور بين أفرادها وهي خارجة من الحرم الجامعي.

القصة الحوارية الشعرية مصراع كيلوباترا لأحمد شوقي

زمن الرواية هو الأيام الأخيرة في حياة كيلوباترا حوالى سنة ٣٠ ق. م بين وقعة اكتيوم

البحرية وانتحار كيلوباترا أما مكانها فيقع في مدينة الإسكندرية، ومحورها الاساسي الصراع بين سلطان الهوى وسلطان الحكم أو بين الحب وبين المجد. فأنطونيوس القائد الروماني العظيم يقع في غرام كيلوباترا ملكة مصر الفاتنة، وهذا الغرام يجنى على مستقبل أنطونيوس العسكرى والسياسى في روما، فقد تدلّه هذا القائد الروماني في حبه للملكة المصرية الى الدرجة التي أفقدته القدرة على وزن الأمور وزنا صحيحا، وكان الصراع دائراً في نفس كيلوباترا بين مجدها وغرامها، والدليل على ذلك أنها خذلت أنطونيوس في وقعة اكتيوم البحرية وانسحبت بأسطوها من المعركة فقد تركت القائد الروماني يضعف بعضها البعض حتى يتقلص سلطان روما على البحر الأبيض وحتى يسيطر سلطانها هي عليه، وقد عبر شوقي عن هذا الموقف على لسان كيلوباترا بقوله:

وتبينت أن روما إذا زالت عن البحر لم يسد فيه غيرى
ولكن هذا الموقف الغادر من جانب كيلوباترا لم ينل من هيام القائد الروماني
أنطونيوس بها فقد غفر لها زلتها:

فلما أذنتنا الحرب بالمعركة الكبرى
تسللت بأسطولك من غمرتها الحرى
فقللت انسحبت ضعفا وقال الناس بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا^(١)

هذا ما كان في المعركة البحرية، واما المعركة البرية بين أنطونيوس وكتافوس فان هذا الأول ارتكب خطأ فادحا حين توقف عن القتال بعد أن كاد يهزم اكتافوس ويأسره، وذلك أن الحنين الى كيلوباترا استبد به فأثر أن يكف عن مطاردة اكتافوس ويرجئها الى اليوم التالى وأن يسرع الى الملكة ليقتضى هو وأجناده ليلة من ليالى اللهو في قصرها، وكان ذلك كافيا ليغير الموقف لصالح اكتافوس، وساعد على ذلك أن كيلوباترا أمعنت في إهانة روما في تلك الليلة فانسل بعض قادة أنطونيوس وهو في غمرة سكره وهوى وكان أن انقلب الميزان العسكرى ضده وفي اليوم التالى ترى أنطونيوس شريدا بعد هزيمته وحين يبلغه نبأ

(١) أحمد شوقي: مصرع كيلوباترة: ٢٠.

انتحار كيلوباترا يتكىء على ظبة سيفه منتحرا ولكنه يعلم قبيل إسلامه الروح أنها لم تنتحر فيأمر بان يحمل إليها حيث يموت بالقرب منها أما كيلوباترا التي رأت أن عدوها اكتافوس انما يريد أن يأخذها أسيرة حرب إلى روما حيث تدل بعد عز وحيث يهان تاج مصر وتاجها على مرأى ومسمع من شيوخ روما فقد أثرت الانتحار بسم الأفعى وبذلك قطعت على اكتافوس ما كان يريد من التنكيل بها.

وفي الرواية بعض الانحرافات البسيطة عن واقع التاريخ، والشخص التاريخي في المسرحية هي كيلوباترا ومارك انطونيوس وكتافوس قيصر، وبالإضافة الى هذه الشخصيات هناك شخصيات أخرى وضعها المؤلف للمساعدة على سير الاحداث في طريقها المرسوم مثل انوبيس الكاهن الأكبر وزينون أمين مكتبة كيلوباترا وهيلانة وشرميون وصيفتا كيلوباترا وانشو مضحك الملكة، وهناك شخصية أوليوس الطبيب الروماني في بلاط كيلوباترا الذي أخبر انطونيوس كذبا أنها انتحرت وأدى ذلك الى انتحار انطونيوس، وهذه إحدى مواضع الانحراف في المسرحية عن وقائع التاريخ وعلى أى حال فتاريخ كيلوباترا قابل لوجهات نظر مختلفة في مدى إخلاصها لانطونيوس وجبها من ناحية، وإخلاصها لمصر ولتاجها ومجدها من ناحية أخرى.

وهناك تلك القضية القائمة باستمرار بين التاريخ والفن حينما يجمعها موضوع واحد والتي مدارها هل يتقيد الفن تقيدا مطلقا بالتاريخ أم أن له الحق في أن يحدث من التغييرات والتحويلات ما يتلاءم مع مقتضياته الخاصة وما تستدعيه الحكمة القصصية أحيانا؟

الواقع أن التاريخ نفسه كثيرا ما يختلف حول موضوع ما أو واقعة ما من بعض نواحيها، وخاصة فيما يتعلق بنوايا الشخصيات التاريخية وهنا يجد الفن مجالا واسعا للتأويل، ومن أقرب الأمثلة اليينا الان ذلك التاريخ الذي يرمى كيلوباترا بالغدر والخيانة لحبيبها انطونيوس وهو تاريخ كتبه الرومان أعداء هذه الملكة، وترى مؤلف المسرحية يميل إلى تبرئتها من هذه التهمة وإن كان لا يبنى أنها مثلت الحياة في قلبها:

بينت الحياة أنا وتشهد سيرى
ماكنت من أمى سوى تمثال

ولربما رشدت فسرت برشدها

وغوت فأغوتنى وضل ضلالى^(١)

فهو إنما يلتبس لها العذر في حدود، والواقع أن قصة كيلوباترا هي قصة الصراع بين الهوى والسياسة، وغريب أن يتفانى الرجل في حبه إلى الحد الذي ينسى معه كل مجده السياسى والحربى بينما لا تنس كيلوباترا مجدها ومطامعها السياسية في غمرة حبه الذي لاشك فيه لانتونيو، لقد كان قرارها بالانسحاب من وقعة اكتيوم البحرية قرارا أملاها انتصار السياسة، وكان قرار انتونيو التوقف عن ملاحقة اكتافىوس المنهزم قرارا أملاها انتصار الحب، وكلاهما قاد أحداث الرواية إلى نهايتها الحتمية المأساوية التي خلدت وقائعها في التاريخ.

تاريخ الأدب العربى

للاستاذ أحمد حسن الزيات

ألف في تاريخ الأدب العربى مجموعة من كبار الكتاب في العربية منهم المستشرق الكبير كارل بروكلمان الذي ترجمه د. عبدالحليم النجار ورجيس بلاشير وترجمه ابراهيم الكيلانى، وجرجى زيدان وعمر فروخ، ومصطفى صادق الرافعى وأحمد حسن الزيات، والدكتور شوقي صيف.

ولكل من هؤلاء المؤلفين طريقته من الاسهاب والايجاز والتركيز على جوانب معينه أخرى كالنصوص أو التراجم أو غيرها. وأنت واجد في تاريخ بروكلمان وصفا موجزا لمراحل الأدب وعصوره وترجمة للأدباء تتبعها إشارة إلى المراجع لمن يريد التوسع في درسه، وأنت واجد هذا الوصف للعصر أو المرحلة وترجمة أدبائها دون هذه الإشارة إلى المراجع في كتب أخرى وكل مؤلف حر يص على أن يعطيك صورة كاملة ما أمكن ودقيقة ما أمكن عن تاريخ هذا الأدب، وأنت واجد صورة مفصلة تفصيلا شاملا دقيقا في تاريخ جرجى زيدان بأجزائه الأربعة ونحن نريد أن نقف بك عند تاريخ من هذه التواريخ العديدة يجمع الدقة والاحاطة والأسلوب الأدبى الرائع الجميل ممثلا في تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات الذى جمع هذا التاريخ في مجلد واحد طبع حتى الآن خمسا وعشرين طبعة،

(١) أحمد شوقي: مصرع كيلوباترة: ١٠٣.

وأفادت منه أجيال وأجيال في استخلاص صورة متكاملة بقدر الإمكان عن المراحل التي قطعها الأدب العربى في عمره الطويل الذى يمتد إلى أكثر من ألف وسبعمائة عام.

وهو في مقدمته يعرض لمفهوم الأدب ولتقسيم تاريخ الأدب العربى إلى الأقسام التي جرى عليها كثرة الكتاب في تقسيم هذا التاريخ وهى العصر الجاهلى فعصر صدر الاسلام والدولة الاموية فالعصر العباسى فالعصر التركى فالعصر الحديث مشيرا الى الحوادث الرئيسية المميزة لبداية ونهاية كل عصر فالعصر الجاهلى يبدأ باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد وينتهى بظهور الاسلام سنة ٦٢٢م.

ويعرض الزيات لتعريف تاريخ الأدب بمعناه العام والخاص فهو من دائرته الخاصة علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف العصور، وعما عرض لها من أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسن ونقد مؤلفاتهم وبيان تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصياغة والأسلوب^(١).

ويشير الأستاذ أحمد حسن الزيات الى أن تاريخ الأدب بهذا المعنى علم حديث النشأة ابتدعه الايطاليون في القرن الثامن عشر، وأن أول من نقل هذا العلم الى الشرق كان الاستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وتدرسه له في دارالعلوم كما ذكرنا آنفا.

وواضح أن تاريخ الأدب بمعناه العام هو دائرة أوسع من الدائرة السابقة التي يمثلها تاريخ الأدب بالمفهوم الخاص حيث يهتم بكل ما أنتجته القرائح من العلوم والفنون المختلفة أو بكل مادونه يد الانسان مما يعبر عن خلاصة تجاربه في شتى نواحي الكون والحياة.

ومع الزيات عبر تاريخه للأدب تقوم برحلة ممتعة عبر العصور المختلفة التي مر بها الأدب العربى بمراحله الخمس التي جرى فيها المؤرخ بجرى المؤلفين في هذا المجال وفقا للمنهج الذي رسمه استنادا الى تعريفه السابق لتاريخ الأدب بمفهومه الخاص والعام أيضا. فأنت تراه يعرج حينما اقتضت الحال على الفلسفة والفلاسفة وعلى علم اللغة وعلمائه ولكن لا يتوسع بطبيعة الحال التوسع الذي أخذ به جرجى زيدان حي أدخل في تاريخه الرياضيات والطب والصيدلة وغيرها من العلوم وأرخ للراجلين من المؤلفين في هذه المجالات تاريخا

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٤.

تلمس فيه العناية الفائقة. فالزيات في تاريخه المختصر هذا اقتصر نسبياً على تاريخ الأدب بمعناه الخاص.

ويختص كل باب من أبواب الكتاب بعصر خاص يبدأ بالحديث عن خصائصه الأساسية، ففي عصر صدر الإسلام والدولة الأموية تجد الحديث عن تغير العقلية العربية بالإسلام، واثار الفتوح في حياة العرب، وأثر الخصومة السياسية في الأدب، وفي العصر العباسي ترى أثر الحضارة الآرية في هذا العصر وما اقتبسته العربية من الفارسية وغيرها إلى جانب الحدث الأساسي الهام في هذا العصر من انتقال الخلافة إلى بني العباس على يد الفرس.

بعد هذه الملامح الأساسية لكل عصر من العصور الخمسة ينتقل المؤلف إلى فنون الأدب في هذا العصر أو ذاك فن شعر إلى كتابة إلى خطابة إلى نثر وكل يضم فنونه وأغراضه المتعددة ومميزاته ثم يترجم المؤلف لأهم وأبرز الشعراء والكتاب والخطباء وغيرهم مورداً نماذج مما تركوه من آثارهم في العصر الأموي مثلاً يتحدث عن الكتابة في هذا العصر وعن ظروف نشأتها ثم يتحول إلى الكتاب فيترجم لعبد الحميد بن يحيى مبيناً أثره في الكتابة ثم مقتبساً شيئاً مما كتب. وينسحب هذا المنهج على الكتاب في أسلوب الزيات الكلي الجلي مع دقة وعمق وإحاطة بجوانب هذا التاريخ الطويل للأدب العربي.

تم بحمد الله وعونه

مراجع البحث ومصادره

- ١ - ابن الرومي ديوانه
- ٢ - ابن المعتز ديوانه ط دار صادر - بيروت ١٩٦١ م
- ٣ - ابن النديم الفهرست - الجزء الأول
- ٤ - أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي شرح القصائد العشر - مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر
- ٥ - أبو الطيب المتنبي ديوانه - ط دار صادر - بيروت
- ٦ - أبو العتاهية ديوانه
- ٧ - أبو العلاء المعري سقط الزند - السفر الثاني - ط الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة
- ٨ - أبو فراس الحمداني ديوانه - دار صادر/ بيروت
- ٩ - أبو نواس ديوانه - دار مكتبة الثقافة العربية/ بغداد
- ١٠ - البحتري ديوانه - المجلدان الأول والثاني ط دار صادر/ بيروت
- ١١ - أحمد أمين وشريكه قصة الأدب في العالم
- ١٢ - أحمد حسن الزيات تاريخ الأدب العربي - ط ٣٥ - دار نهضة مصر - القاهرة
- ١٣ - أحمد شوقي الشوقيات - المكتبة التجارية الكبرى/ القاهرة
- ١٤ - أحمد شوقي مصرع كليوباترا «مسرحية شعرية»
- ١٥ - المسعودي مروج الذهب
- ١٦ - بشار بن برد ديوانه
- ١٧ - جميل بثينة ديوانه

- ١٨ - جرجى زيدان
١٩ - جورج صيدح
٢٠ - حافظ ابراهيم
٢١ - حسن جاد حسن وشريكاه
٢٢ - حلمى على مرزوق
٢٣ - خليل مطران
٢٤ - رجا سمرين وشريكه
٢٥ - عباس محمود العقاد
٢٦ - عباس محمود العقاد
٢٧ - عبد الحى دياب
٢٨ - عبداللطيف شرارة
٢٩ - صمر بن أبى ربيعة
٣٠ - عمر فروخ
٣١ - عمر محمد الميرغنى
٣٢ - كثير عزة
٣٣ - محمد حسن عبدالله
- تاريخ آداب اللغة العربية/ الأجزاء الأربعة
دار الهلال/ القاهرة ١٩٥٧م
أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية
دار العلم للملايين/ بيروت ط ٣ سنة ١٩٦٤
ديوانه / بيروت ١٩٦١
الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام
ط ١ سنة ١٩٥١ المطبعة الفاروقية الحديثة/ القاهرة
تطور النقد والتفكير الأدبى في العصر الحديث
دار المعارف / القاهرة ١٩٦١م
ديوان الخليل — دار الكتاب العربى/ بيروت
عصور الأدب العربى/ ط ٢ مطبعة الشعب
عمان - الاردن
ديوان العقاد/ مطبعة وحدة الصيانة
والانتاج — اسوان ١٩٦٧م
شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى
دار نهضة مصر/ القاهرة ١٩٨١
عباس العقاد ناقدًا - الدار القومية للطباعة
والنشر ١٩٦٥ القاهرة
إيليا أبوماضى/ دار صادر بيروت ١٩٦٥م
ديوانه
تاريخ الأدب العربى/ بيروت
الأدب في عصر المماليك والعثمانيين
والعصر الحديث - مطبعة الأزهر ١٩٥٤
ديوانه
ديوان الشعر الكويتى - وكالة المطبوعات
الكويت سنة ١٩٧٤

- ٣٤ - محمد حسن عبدالله
٣٥ - محمد الخضرى
٣٦ - محمد رشدى خاطر
٣٧ - محمد صبرى
٣٨ - عبد الحميد المسلول وشريكاه
٣٩ - محمد عبد المنعم خفاجى
٤٠ - محمود سامى البارودى
٤١ - مصطفى الشكعة
- الحياة الأدبية والفكرية في الكويت
رابطة الأدباء - الكويت سنة ١٩٧٤
محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية
الجزءان الأول والثانى .
كتب الأطفال في مصر من سنة ١٩٢٨
الى سنة ١٩٧٨ «استكشاف معد ليونسكو»
المجلد الأول - القاهرة ١٩٧٩
الشوقيات المجهولة - مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٦١
الأدب العربى في ظلال الأمويين والعباسيين
ط ١ مطبعة دار التأليف بمصر ١٩٥٢م
قصة الأدب في الأندلس
منشورات مكتبة المعارف/ بيروت ١٩٦٢
ديوان البارودى/ دار المعارف/ القاهرة ١٩٧١
مناهج التأليف عند العرب دار العلم
للملايين - ط ٤ بيروت ١٩٨٢م

الفهرست

- ١ - المقدمة ٣
- ٢ - تمهيد - الأدب - وظيفته - وعناصره - العوامل العامة المؤثرة فيه - تاريخ الأدب العربي وعصوره.
- ٣ - الباب الأول : العصر الجاهلي ١٧
- الفصل الأول: السمات العامة لهذا العصر
- الفصل الثاني: الشعر الجاهلي - أغراضه - نماذج منه - مميزاته - المعلقات - أشهر المختارات الجاهلية.
- الفصل الثالث: النثر الجاهلي - الخطابة - الوصايا - الحكمة - الأمثال.
- ٤ - الباب الثاني : عصر صدر الاسلام ٣٩
- الفصل الأول: السمات العامة لهذا العصر - القرآن الكريم - موضوعاته - مميزات الأسلوب القرآني - أثر القرآن في اللغة والأدب - الحديث الشريف وأثره في اللغة والأدب.
- الفصل الثاني: الشعر في صدر الإسلام - أغراضه - نماذج منه - مميزاته - أشهر الشعراء الإسلاميين.
- الفصل الثالث: النثر الفني في صدر الإسلام - الخطابة - الكتابة.

٥ - الباب الثالث : العصر الأموي

٥٩

الفصل الأول: سمات هذا العصر ومميزاته.
الفصل الثاني: الشعر في العصر الأموي - اغراضه ومميزاته.
الفصل الثالث: النثر في العصر الأموي - الكتابة -
التوقيعات - الخطابة - الترجمة والتدوين والتأليف في
العصر الأموي - نشأة علم النحو.

٦ - الباب الرابع : الأدب في العصر العباسي ، تمهيد

٧٩

الفصل الأول: عصر نفوذ الخلفاء - ابرز معالمه - الترجمة في
هذا العصر - أطوارها - تولد العامية وتعددتها - مجالس الشعر
والأدب - الشعبية - النقد الأدبي - الرواية والرواه - الغناء
واثره في الشعر - الفنون الشعرية - أشهر الشعراء.
النثر في عصر نفوذ الخلفاء: الخطابة - الكتابة الانشائية -
التوقيعات - القصص والحكايات - حركة التدوين
والتأليف - تدوين الحديث - تدوين العلوم والمعارف -
مصادر النثر العربي - رواد التأليف ومؤلفاتهم - التأليف
الأدبي غير المتخصص.

الفصل الثاني: العصر العباسي الثاني:

سماته ومميزاته - الشعر وأشهر الشعراء - رواد التأليف
الأدبي المنهجي.

الفصل الثالث: العصر العباسي الثالث:

سماته ومميزاته - الشعر وأشهر الشعراء - الكتابة الانشائية -
أهم الكتاب ومصنفاتهم - الروايات والقصص - النحو
والنحاة - المعاجم اللغوية وأصحابها ومصادرهما.

الفصل الرابع: العصر العباسي الرابع:

الشعر وأشهر الشعراء - الكتابة الانشائية في هذا العصر -
علوم اللغة وعلمائها - الموسوعات في هذا العصر وأصحابها.

٧ - الباب الخامس : العصر الأندلسي

٢٧٧

الفصل الأول: الأدب في الأندلس - أشهر الشعراء
الأندلسيين - الموشحات.
الفصل الثاني: التأليف والمؤلفون في الأندلس.

٨ - الباب السادس : عصور الانحسار الأدبي:

١٩١

الفصل الأول: العصر المغولي أو المملوكي: سماته العامة
الشعر وأشهر الشعراء - كتاب العصر المغولي ومؤلفاتهم -
اللغة وعلومها في هذا العصر - الموسوعات
الفصل الثاني: العصر العثماني
مميزاته - الشعر وأشهر الشعراء - حالة الكتابة في هذا
العصر.

٩ - الباب السابع:

٢٠٩

الفصل الأول: التيارات الفكرية والأدبية على خريطة
العصر الحديث:
- العوامل المؤثرة في أدب العصر الحديث
- القانون العالمي للنهضة ومعوقاتها في مصر والشرق العربي
- تعقد تركيب الجناح الأدبي للنهضة
- المطبعة.. ابرز ملامح النهضة الحديثة
- الشعر ومراحل تطوره.
- القصة وأنواعها.
- المقال الأدبي وتاريخه
- الأدب الكويتي
- النقد الأدبي
- أدب الاطفال

الفصل الثاني: التيارات الأدبية الحديثة كما تتمثل في أبرز المؤلفات.

الشعر:

ديوان البارودي - الشوقيات - ديوان حافظ - ديوان العقاد
- ديوان الخليل - ديوان الخمائل لأبي ماضي - ديوان علي
محمود طه - ديوان بدر شاكر السياب.

القصص المروية:

زينب لمحمد حسين هيكل

عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم

القاهرة الجديدة لنجيب محفوظ

القصص الحوارية الشعرية (المسرحية)

مصرع كيلوباترا لشوقي

تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات

مراجع البحث
الفهرست

٢٧١

٢٧٥